تفسير

من وحي القرآن

سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

المجلد العاشر

دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعــة الثانيــة
مزيدة ومنقحة
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - طريق المطار - خلف كلية الهندسة هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ص.ب ١٥٨/ ٢٥ الغبيري

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَعرَافِ

مكـــيّة

وآياتها مئتانِ وستّ

في أجواء السورة

لعل الميزة الغالبة لهذه السورة ولأمثالها من السور المكية، أنها تتناول شؤون العقيدة وأصولها، من توحيد الله في الفكر والتشريع والعبادة، وشؤون الرسالة والرسول، في حركة الحياة معهما في ساحة الصراع الفكري والعملي... وفي منطلقات الجهاد، وحديث القيامة في أجواء الوقوف بين يدي الله في عالم الثواب والعقاب؛ لأن هذه القضايا هي التي تمثّل الأسس الفكرية العقيدية التي يرتكز عليها الإسلام في عقيدته من حيث ذاته، وتنطلق منها الشخصية الإسلامية للإنسان المسلم في بنيانه الفكري والروحي... وكل ما عداها فهو فروع وهوامش.

ولا بد لنا ـ في هذا المجال ـ من الإشارة إلى أن هذه السورة وأمثالها لا تتحدث عن هذه الأصول العقيدية بالطريقة التقليديّة التي تطرح الفكرة ثم تواجهها بشكلٍ مباشرٍ من خلال الأدلة والبراهين العلميّة، ولكنها تطرح الفكرة وتثير حولها جواً متحركاً، من خلال الأجواء المحيطة بالإنسان في حياته الذاتية والعامة، بحيث يشعر ــ معها ــ بأن الفكرة مطروحة في ساحة حياته، قبل أن تطرح في ساحة فكره. فإذا تحدث القرآن عن الله وعن توحيده،

فإنه يبدأ الحديث عن الإنسان، وعن خلقه، وعن النعم التي يحيطه الله بها، وعن كل ما حوله من مفردات حياته وحياة الآخرين، حتى ليحسّ الإنسان بأن الله موجود في كل ما يحيط به، وفي كل ما يعيش معه، وذلك هو الأسلوب القرآني الذي يريد للإنسان أن يحس فيه بالله من خلال وجدانه وإحساسه بحركة الفطرة في داخله، قبل أن يحس به من خلال تفكيره ضمن نطاق المعادلات الفكرية. وليس معنى ذلك أن يغفل دور الفكر في هذا المجال، بل كل ما هناك أنه يثير حركة الفكر بطريقةٍ وجدانيةٍ مميّزةٍ.

وهكذا نجده في حديثه عن الرسالات والرسل، فإنه يُدخل الإنسان في أجواء التاريخ المتحرك، فيعيش تاريخ الرسالات، وحديث التحديات والأفكار المضادّة المطروحة في الساحة التي انطلق بها جنود الرسالات، مما يوحي بالفكرة من خلال التجربة الحية، لا من خلال الفكر التأمّلي التجريديِّ الغارق في الخيال. فأنت عندما تواجه الرسالات في القرآن، فإنك تلتقي بنوحٍ ويونس وموسى وعيسى وإبراهيم ولوطٍ وشعيب... وهم يدعون إلى الله، ويحملون أثقال المسؤولية، وأعباء الصراع، وقوة التحدي، وعمق التجربة، وامتداد الصبر، وحركة الإنسان في الرسالة، وضراوة الألم في خط المواجهة، وقساوة الظلم وشراسته، وغباء الكفر وسذاجته في شخصية الكافرين، ووعي الإيمان، وروحية الرسالة، وروعة الصدق، وطهارة الروح في شخصية الرسول... وتتمثل أمامك الساحة، بكل أوضاعها السلبية والإيجابية، حتى كأنك تنظر إليها على الطبيعة، فتلتقي بالحياة المتحركة التي تقدم لك الفكرة بكل وضوح.

أما حديث الآخرة والقيامة والجنة والنار... فإنه ينقلك إلى المشاهد الحيّة التي تضجّ بالحركة، وتنطلق بالإيحاء، وتنفتح على المسؤولية في الحياة، من خلال انفتاحها على موقف الإنسان من الله وأمامه... وبذلك تجد الحياة أمامك في قبضة العبث واللا معنى إذا ابتعدت عن المسؤولية في نتائجها

الحاسمة في يوم القيامة، بينما تتمثل فيها كل معاني الجدّ والحركة والإيجابية عندما تقترب من خط المسؤولية في وعي الإنسان لدوره الطبيعي في الحياة؛ وبذلك لا يعود الإحساس بالآخرة غيباً فكرياً يتحرك في أجواء الضباب، بل يتحول في وعي المؤمن مشهداً متحركاً يحمل في داخله كل خصائص الإنسان الحي على صعيد الواقع، تماماً كما لو كان يراه أو يسمعه أو يلمسه بيده.

وفي ضوء ذلك، فإننا نتحرك مع هذه الأصول العقيدية في السورة، من خلال الجوّ المميز للأسلوب القرآني الذي يربي لنا عقلنا ووجداننا ونظرتنا إلى الحياة، ليجعل منها نظرةً واقعيةً عمليةً بعيداً عن النظرة الخيالية التجريدية.

وفيما بين ذلك كله، تتوالى اللمحات الفكرية، واللمعات الروحية، التي توحي للإنسان بالحركة في مسيرة حياته الخاصة والعامة عندما يدعو إلى الله، وعندما يجاهد في سبيله، وعندما يواجه حالة الصراع الداخلي ضد نوازعه الشريرة، كما تشير إليه بالمستوى الرفيع الذي ينبغي له أن يتطلع إليه في علاقته بالله، وفي الحصول على رضوانه في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال ما يتحمّله من آلام المعاناة، وما يواجهه من تحدّيات وعقبات في كل مراحل الصراع العنيف مع قوى الشر والكفر والطغيان... وبذلك نقف مع خط العقيدة الذي لا يعيش في أبراج الفكر العاجية المترفة، بل في تفاصيل الحياة اليومية للإنسان، وفي خطوات الصراع المتحرك في جهاده، وفي نبضات المشاعر الحارّة في عروقه... وذلك هو سرّ التوحيد في إيحاءات الروح، ومعنى الرسالة في انطلاقات الفكر، وحركة القيامة في خط الالتزام، ووحي الشريعة في خطوات الإنسان في الحياة، حيث تلتقي القصة بالفكرة، وتمتد الفكرة في وعي الشعور، ويتحرك الشعور في رحلة الحياة، لتتكوّن من ذلك كله، القاعدة الفكرية والشعورية والعملية في بناء الشخصية الإسلامية،

على هدى الله في وحيه وفي قرآنه، فيتحول القرآن ـ الكلمة إلى قرآن متحركٍ نابضٍ بالحياة في التجسيد الحيّ للإنسان القرآني المسلم في فكره وعاطفته والتزامه.

● □ ● □ ●

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآيات

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ
بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾
فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الٓمٓصٓ﴾: تقدم الحديث عن الوجوه المذكورة في تفسير هذه الحروف المقطعة، في تفسير سورة البقرة عند الحديث عن ﴿الٓمٓ﴾.

﴿حَرَجٌ﴾: ضيق، شكّ. أصل الحرج والحراج مجتمع الشيء، وتُصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللإثم حرج[1].

---

(١) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، ص: ١١١.

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: تذكر نافع. وهو كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر، قال في المجمع: الذكرى مصدر ذكّر يذكّر تذكيراً، فهي اسم للتذكير وفيه مبالغة[١].

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: تتعظون.

﴿بَأۡسُنَا﴾: قال الراغب: البؤس والبأس والبأساء: الشدّة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية[٢]، وقال غيره: يطلق البأس على الشجاعة والقوة وعلى الضرر والحرج؛ والمراد به هنا العذاب.

﴿بَيَٰتًا﴾: أصل البيت مأوى الإنسان في الليل، والبيات والتبييت قصد العدو ليلاً.

﴿قَآئِلُونَ﴾: نائمون في النهار، من القيلولة.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ نتلونّ، والقصص ما يتلو بعضه بعضاً، ومنه المقص لأن قطعه يتلو بعضه بعضاً، ومنه القصة من الشعر والقصة من الكتاب، ومنه القصاص لأنه يتلو الجناية في الاستحقاق، ومنه المقاصّة في الحق لأنه يسقط ما له قصاصاً بما عليه.

* * *

انفتاح الداعية على مشاكل الساحة

﴿الٓمٓصٓ ۞ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي هذا الكتاب، أنزله الله إليك وحياً منه، في ما يريد للناس أن يسيروا على هديه من فكرٍ وخط عمل، وفي ما يريد للحياة أن ترتكز عليه أو تنطلق منه، من قاعدةٍ أو هدف، حتى يتحرك الكون في نظامه

---

(١) الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، ط: ١، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م، ج: ٤، ص: ٦٠٩.

(٢) مفردات الراغب، ص: ٣٢.

البشري على خط الإرادة الإنسانية المؤمنة الواعية المنسجمة مع إرادة الله، في ما يحب للإنسان أن يمارسه من عملية الاختيار، ليتطابق مع التوازن والحكمة في نظامه الكوني. ولا بد للإنسان، الذي يحمل مسؤولية قيادة الناس على خط الرسالة إلى الصراط المستقيم، من أن يعاني الصدمات والتحدّيات، ويواجه العقبات من القوى المضادّة التي لا تريد للحياة أن تنضبط وتتوازن، ولا ترضى للإنسان أن يستقيم. وربما كان من الطبيعيّ لهذا الإنسان ـ نبيّاً كان أو غيره ـ أن يتأثَّر نفسياً بالمشاعر السلبية في ما تتمثل به من ضيق الصدر، واختناق الروح، وفي ما تؤدي إليه من خطواتٍ تراجعيةٍ للتخلّص من ذلك كله.

ولهذا أراد الله لرسوله ـ كما أراد للدعاة من بعده، أن يعيش في نفسه إيجابية الانفتاح الروحي والشعوري على مشاكل ساحة الصراع، باعتبارها حالةً طبيعيةً تتحرك في نطاق السنن الكونية التي حدّدها الله لعملية التغيير في ما تفرضه من المراحل المتدرجة التي تبدأ من مرحلة الدعوة والتوعية، وتنطلق في حركة الحوار على خط الصراع، وتمتدّ في عملية المواجهة الحادّة التي تتقابل فيها الإيجابيات والسلبيّات، وتتصارع فيها الانفعالات والمشاعر والأفكار... وهكذا لن يكون الضيق النفسيّ والتشنُّج الفكري والروحي في مصلحة النتائج الإيجابية المرتقبة في حركة الدعوة والداعية في نهاية المطاف. وبتعبير آخر، إن هناك مزاجاً للإنسان ـ البشر في الرسول أو في الداعية، وهو المزاج الذي يتحرّك من خلال النوازع الذاتية في ما يعيشه من عوامل إثارة الانفعال الداخلي، وإنَّ هناك مزاجاً للإنسان ـ الرسول في شخصيته، وهو المزاج الذي تتحرّك فيه الرسالة، في وعيها للامتداد الرسالي في خط الزمن في ما تنفتح عليه من رحابة صدر لا يضيق بشيء، وسماحة روح لا تتعقّد من شيء، وانفتاح فكرٍ لا يتهرّب من شيء، لأن قصة الرسالة هي أن تصل إلى هدفها ولو بعد حين، بينما هدف الذات هو أن ترتاح مشاعرها في نطاق اللحظة الحاضرة.

وهكذا أراد الله لرسوله أن يعيش روحية الرسالة، لا عقدة الذات، ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ﴾ أي يا محمد ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي من الكتاب، لما سيثيره حولك من مشاكل وقضايا في حياة الناس، ولما سوف تواجهه من الانحرافات التي تحوّلت إلى مناهج في الفكر وفي الحياة، ولما ستواجهه من الأوضاع التي تحوّلت إلى عاداتٍ وتقاليد، ومن الأساليب التي درج عليها الناس في طريقة إدارتهم للعلاقات والانتماءات، بما سيحوّله إلى عنصر إتعاب وإجهاد لك، كما أن الواقع الذي تريد تغييره يجعلك تقف في مواجهة كل القوى المتضررة من عملية التغيير، فتفقد ـ من خلال ذلك ـ كثيراً من الأصدقاء والأقرباء الذين يسيرون في الاتجاه الآخر، فعليك أن لا تشعر بالضيق والحرج من ذلك كله، بل يجب أن تستمر في حمل مسؤوليتك في إبلاغ الكتاب إلى الناس، ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ ليعرف الناس من خلال النتائج السلبية التي تحصل من أعمالهم، كيف يكون مصيرهم في الدنيا، في ما يقاسونه من البلاء، وكيف يكون مصيرهم في الآخرة، في ما يحلّ بهم من العذاب، ليرتدعوا بذلك عن الامتداد في خط الكفر والضلال، فإن الكثير من الناس لا يفهمون القضايا بلغة الفكر التحليلي القائم على الحجة والبرهان، لأنهم لا يعيشون الحقيقة في نطاق المسؤولية، بل يفهمونها بلغة الوعيد والتهديد، مما يجعل من أسلوب الإنذار سبيلاً يدعوهم إلى التفكير بجدّية في ذلك كله على أساس ما يتمخض عنه من نتائج قاسية، لا يملكون القوة على مواجهتها وتحمل آثارها.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين قد ينطلقون في خط الضلال، من جهة الغفلة التي تنسيهم الله، فتبعدهم عن وعي المسؤولية في عذابه وعقابه، فإذا جاءتهم آيات الله في كتابه، أصغوا إليها بمسامع قلوبهم، وفتحوا لها أرواحهم، وتذكّروا ـ من خلالها ـ كل ما يتعلق بمواقع هذه القضايا من دنياهم وآخرتهم، فيؤمنون بالدين كله، ويستزيدون من الإيمان في تفاصيله الفكرية والروحية والعملية... وربما كان اختصاص الذكرى بالمؤمنين، منطلقاً من أنّ هؤلاء

هم الذين ينفتحون على الحقيقة، ويعيشونها هاجساً دائماً في أفكارهم ومشاعرهم، ويواجهونها في حالةٍ عميقةٍ من الإصغاء الواعي، والصفاء الروحي الهادىء... فتختزن قلوبهم وأحاسيسهم كل المعاني الحيّة والكلمات الصادقة، أمّا الآخرون الذين لا يعيشون هذا الهاجس، بل يمتدون في غفلتهم ولهوهم ولعبهم، ويتحركون من خلال شهواتهم، فإنهم يعيشون الظلمة المطبقة والغفلة الساذجة، والشعور الغبي الذي يعكس بلاهة الشخصية وسذاجة الروح.

* * *

اتباع ما أنزله الله على الرسول

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ويتحوّل الخطاب، من خلال ما اختزنته الآية الأولى في مدلولها من خطاب الله للمؤمنين من خلال الرسول، لينتقل إلى مخاطبة المؤمنين مباشرة، بعد أن خاطبهم من خلال الرسول... فهم مدعوّون إلى اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، لأن فيه الحقيقة والوضوح والنجاح... وكيف لا يكون كذلك، وقد أنزله ربّهم الذي عاشت حياتهم برحمته، وامتدّت بلطفه، وتنوّعت بنعمه، وأراد لهم أن يتحركوا من خلال وحيه وشريعته، لينعموا بالسعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة، فإنه لا يريد لهم إلا خيراً؛ وكيف لا يريد لهم ذلك، وهو الغنيّ عنهم في ملكه وسلطانه، الرحيم بهم في لطفه وإحسانه، اللطيف بهم بعفوه ورضوانه... وهل يريد الخالق بمخلوقاته إلا الخير في جميع ما يأمرهم به وينهاهم عنه؟! وهل يمكن أن يريد لهم الشر، وهو الذي أراد أن يخلصهم منه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ بحيث تطيعونهم في ما يأمرونكم به، وفي ما ينهونكم عنه، مما لا يتفق مع أمر الله ونهيه، لأن الله هو الذي يجب أن يتبع، فهو الذي يعرف ما يصلحكم وما يفسدكم، وهو الوليّ الذي يرعى عباده

وينصرهم ويرحمهم، لا وليّ غيره، لأن الأمر كله إليه، فكيف تتخذون من دونه أولياء، وهم لا يملكون لأنفسهم ولا لكم ضراً ولا نفعاً، إلا بإذن الله؛ فلا تتبعوهم في ما يخططون ويستهدفون، وفي ما يدعون إليه من وسائل وأساليب، فذلك هو خط التوحيد الخالص، وهو خط الدعوة إلى الله في طريق الله، لأن التوحيد ليس فقط معادلة عقلية عن الوحدانية في العقيدة في ما يتحرك فيه الفكر، بل هو بالإضافة إلى ذلك وحدانية في العبادة والاتّباع، والشرك على العكس من ذلك. فإذا أخذتم من خطط هؤلاء وشريعتهم في الحياة، واعتنقتم فكرهم، واتبعتم عاداتهم وتقاليدهم الكافرة، وجعلتم كل ذلك جزءاً من حياتكم... فإنكم بذلك تعيشون الابتعاد عن خط التوحيد والاقتراب من خط الشرك، ولو بطريقةٍ غير مباشرةٍ، لأنكم تستلهمون غير الله في خط حياتكم. وتلك قصة تحتاج إلى مزيدٍ من الفكر والجهد والمعاناة والصبر من أجل تحويل خطّ الفكر إلى خطٍّ للعمل وللحياة.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾... ولكن الناس يستسلمون لواقعهم، ويستصعبون أن يخرجوا منه أو يتغيروا عن أفكاره وعاداته، لأنهم يشعرون بالغربة والضياع بدونه، ويثيرون التفكير بالاهتزاز في مستقبل حياتهم إذا ابتعدوا عنه، تماماً كما هو الحائر الضائع الذي لا يعرف كيف يدبر أمره بعيداً عن طريقة تربيته وأسلوب حياته المألوف. وتلك هي مشكلة الأكثرية من الناس الذين لا يتذكرون إلاّ قليلاً، لسيطرة الأمر الواقع عليهم، واعتبارهم أن عملية التغيير سوف تلاحق فيهم هدوء حياتهم وتتحدى حبهم للكسل والاسترخاء والراحة والأمن، ولهذا فإنهم يخلقون لأنفسهم الكثير من المبررات والأعذار في هروبهم من حركة الصراع في الساحة، فيمتد ذلك إلى داخل شخصيتهم، فيحجب عنها الرؤية بضباب كثيف يوحي بالغفلة تارةً، وبالاستغفال أخرى... وربما كان هذا واقع الكثيرين منا الذين يسترخون للحياة وما تقدمه من جاهٍ وأمن وراحة وشهوة وطمع، فيستريحون لذلك ويأبون على أنفسهم أن يتذكروا

بعض الأشياء التي تبعدهم عن ذلك، بل ربما يهربون من التفكير عندما تلاحقهم الحقيقة في بعض السبل التي تمر بهم في الحياة، فيستغفلون أنفسهم ليوحوا للآخرين بأن يجدوا لهم العذر الذي لا يجدونه لأنفسهم.

* * *

الظلم والسقوط الحضاري

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ وهذه صورة من صور الإنذار في ما ينزله الله من العقاب على الناس الذين يتمردون على رسالاته، ويكذبون رسله، ويفسدون في الأرض. إنها الصورة التاريخية الحيّة التي تتلاحق فيها المواقع التي كانت مسرحاً للظلم والطغيان والكفر والعصيان. من قريةٍ إلى قرية، ومن مدينةٍ إلى مدينة... كيف دمرها الله بعذابه، وكيف أهلكها بقوته، من خلال الوسائل غير الطبيعية التي كانت تتحرك بطريقةٍ غيبيّة، في ما حدثنا الله عن قوم نوحٍ وعن قوم لوطٍ وشعيب وغيرهم... أو من خلال الوسائل الطبيعية، التي كانت تتحرك بطريقةٍ عاديةٍ في ما تتمخض عنه الانحرافات في داخل الحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الأخلاقية.. أو في ما تتحرك به الأوضاع الطبيعية من الزلازل والفيضانات والبراكين وما إلى ذلك، مما يتمثل فيه بأس الله الذي كان يحدث في حالة البيات في الليل عندما يعيش هؤلاء الاسترخاء في منامهم، أو في حالة القيلولة عند الظهر عندما يستسلمون للراحة والنوم، للتّخفّف من عناء اليوم وتعبه... وربما كان التأكيد على هذين الوقتين باعتبار أن الإنسان يحس بالصدمة العنيفة في مثل هذه الحال، بمقدار ما تمثل من مفاجأة مذهلة، لأنه لا يكون على استعدادٍ نفسي لمواجهة ذلك، بينما لا تكون القضية بهذه المثابة في حالة الحركة التي يبدو فيها مستعداً لكل شيء.

فكيف يواجهون هذا الواقع؟ لا شيء إلا الاعتراف بأنهم ظلموا أنفسهم

حين كفروا بالله وعصوه، وظلموا الناس حين تمردوا وتجبّروا عليهم. ولعل التعبير بقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ يوحي بأن سقوط الحضارات وهلاك الأمم الظالمة هو من السنن الإلهية التاريخية المطردة، باعتبار أن الظلم الفكري والعملي ينحرف بالحياة عن مسارها الطبيعي وهو العدل، وينحرف بالإنسان عن خط التوازن في الحركة والعلاقات، مما يؤدّي إلى الانحلال والتمزق الداخلي والخارجي على صعيد الفرد والمجتمع، فلا يبقى هناك أي موقع للتماسك الإنساني، فينتهي به إلى السقوط والانهيار الحضاري.

ولكن ما فائدة ذلك؟! إن الله لا يقبل الاعتراف القادم في لحظات الموت، ومعاينة العذاب، لأنه لا يمثل الإرادة الحرة المتحركة في خط القناعة الوجدانية في ضوء الدليل والبرهان... إنها حالة هروب من الواقع، وليست حالة اعتراف وندم.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كأي إنسان ينكر في حالة الاسترخاء، بما يوحي به إلى نفسه من شعور بالقوة على التمرد والجحود، ولكنه يحس بالضعف والانسحاق أمام الواقع المرّ الذي يصطدم به، فيتحداه بكل النتائج القاسية التي كان يهرب منها، فيقف وقفة الخائف المذعور الذي يبحث عن كلمة اعتراف، أو موقف ندم يوحي إليه بالأمن من العذاب، ولكن دون جدوى. ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الأمم والشعوب عن ذلك كله، فإنّهم سيتحدثون بكل ذلك، وإذا كانوا غير حاضرين أمامنا الآن لأنهم ذهبوا في ظلمات التاريخ، فإن تاريخهم حاضر بين أيدينا، بكل نتائجه وآثاره وبقاياه، يعرفنا كيف بادت تلك الحضارات ولماذا، وكيف هلكت تلك الأمم ولماذا، فنعرف أن انحرافهم عن طريق الله هو الذي أدّى إلى ذلك كله.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ كيف واجهتهم أممهم بالجحود والنكران، وسيقدّمون تقريرهم إلى الله يوم القيامة، كما قدموا تقريرهم في ما كانوا يعيشونه من مشاكل وآلام في وقت الرسالة. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لا على

أساس تخمينٍ وحدسٍ كما يحدث في أقاصيصكم التي قد ترتكز على كثيرٍ من أفانين الظن والخيال ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ فإن الله حاضر في الزمن كله، كما أن الزمن كله حاضرٌ أمام الله. إن الزمن يرافقنا أوّلاً ثم يتركنا ثم يستقبلنا ونستقبله، ولكن الله هو الذي خلق الزمان، وخلق الحياة التي يتحرك فيها الزمن؛ فحضوره هو الحضور، وكل ما عداه هو ظلٌّ زائل.

* * *

هل يأتي العذاب بعد الإهلاك؟

لقد توقف المفسرون أمام فقرة ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ لأن الظاهر أن الفاء للتعقيب، مما يعني أن ما بعدها يأتي متأخراً عما قبلها، فكيف يكون مجيء العذاب بعد الاهلاك مع أن القضية بالعكس؟

وقد ذكر في الجواب عن هذه الملاحظة عدة وجوه: أحدها: ما ذكره الزمخشري في أن المقصود بأهلكناها «أردنا إهلاكها»[1] لا الإهلاك الفعلي. ثانيها: أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا ولعله قريب من الأول. والثالث: انه مثل: زرتني فأكرمتني، فإن نفس الإكرام هي الزيارة، قال علي بن عيسى: وليس هذا مثل ذلك، لأن هذا إنما جاز لأنه قصد الزيارة ثم الإكرام بها[2].

وربما كان الأقرب أن المسألة واردة على نحو الاجمال والتفصيل، بأن يكون المقصود هو الحديث عن الإهلاك أولاً على نحو الإجمال ثم الحديث عن تفعيل ذلك بمجيء العذاب في الليل أو في وقت القيلولة كتفصيل للإهلاك؛ والله العالم.

* * *

---

(١) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، ج: ٢، ص: ٦٧.

(٢) يراجع: مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦١٢.

من وحي هذه الآيات

وقد نستوحي من هذه الآيات إثارة الخوف من عذاب الله في وجدان الناس الذين يتمردون على الله ويستهينون بإنذاره، وذلك من خلال الحديث عن التاريخ الذي عاش فيه المتمردون السابقون، حيث لم ينفعهم ما كانوا يملكونه من وسائل القوة، مما يمتد إلى الإنسان المعاصر الذي قد يملك الكثير من قوّة الحماية بالمكتشفات الحديثة، ولكنه لا يملك الوسائل التي تحميه من الزلازل والعواصف والبراكين والفيضانات ونحوها، وهي ـ في نتائجها التدميرية ـ قد تكون ـ في بعض الحالات ـ مظهراً من مظاهر عذاب الله، الأمر الذي يجعل البأس الإلهي شاملاً لكل العصور ولكل مواقع القوة عند الإنسان.

* * *

كيف نفهم سؤال الله الرسل والناس؟

وربما يثار أمامنا سؤال: كيف نفهم سؤال الرسل والناس الذين أرسلوا إليهم، لأن السؤال يتحرك في نطاق إرادة السائل معرفة ما عمله المسؤول، والله العالم بكل تفاصيل اعمال عباده لأنه المحيط بهم من كل الجهات؟

والجواب: إن الظاهر هو ورود الآية مورد إثارة الإحساس بالمسؤولية في وعي الناس بأنهم سيواجهون غداً الموقف الحاسم في ساحة المحكمة الإلهية التي يقيم فيها الله الحجة على الناس من خلال اعترافاتهم بما قدّموه من أعمال الخير والشرّ، فيعلم الجميع بأن الله لا يظلم الناس شيئاً من أعمالهم في جانب السلب والإيجاب، ثم من خلال تقرير المرسلين عن مهمتهم الرسالية، كيف بلّغوا الأمم التي أرسلوا إليها بوحي الله بما أنذروا وبشروا، وماذا أجابهم أولئك بالايمان أو

الكفر، فيكون الرسل شهوداً عليهم، فلا يبقى لديهم ما يعتذرون به.

وربما كانت القضية ـ في الآية ـ واردة في سياق الحديث عن المسؤولية الإلهية التي يواجهها الناس من أمم أو رسل، لأن الحساب شامل للجميع، بقطع النظر عن موقعهم من الله، فإن السؤال يفصح عن الإخلاص والصدق في أجوبة المخلصين الصادقين، كما يُظهر زيف المزيفين وكذب الكاذبين، ليعرف الجميع أن الخلق متساوون أمام الله يوم القيامة، لا فرق بين الناس والرسل في ذلك كله.

ولذلك، فليس هناك استعلام من الله لعباده، بل هو توجيه لما يقبلون عليه في وقوفهم بين يديه، لإثارة وعي المسؤولية في وجدانهم الفكري وتجربتهم العملية، وإقامة الحجة عليهم في كل أمورهم.

وقد يطرح سؤال آخر: كيف يمكن التوفيق بين التأكيد على شمولية السؤال للناس والمرسلين وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن ٣٩ ـ ٤١]، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون؟!

وقد أجيب عن هذا السؤال بعدة أجوبة، (منها): ما ذكره صاحب مجمع البيان: «أنه ـ سبحانه ـ نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألهم سؤال تبكيت وتقريع، ولذلك قال ـ عقيبه ـ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، وسؤال الاستعلام مثل قولك: أين زيد؟ ومن عندك؟ وهذا لا يجوز على الله سبحانه. وسؤال التوبيخ والتقريع كمن يقول: ألم أحسن إليك فكفرت نعمتي؟ ومنه قوله: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [يس: ٦٠]، ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، وكقول الشاعر: «أطرباً وأنت قنسري» أي كبير السن، وهذا توبيخ منه لنفسه، أي كيف أطرب مع الكبر والشيب، وقد يكون السؤال للتقرير كقول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا   وأنـدى العالمين بطـون راح

أي أنتم كذلك، وفي ضده قوله: «وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر» أي لا يصلح. وأما سؤال المرسلين فليس بتقريع ولا توبيخ لهم ولكنه توبيخ للكفار وتقريع لهم.

(وثانيها) أنهم إنما يُسألون يوم القيامة كما قال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] ثم تنقطع مسألتهم عند حصولهم في العقوبة وعند دخولهم النار، فلا تنافي بين الخبرين، بل هو إثبات للسؤال في وقت ونفي له في وقت آخر.

(وثالثها) أن في القيامة مواقف، ففي بعضها يسأل وفي بعضها لا يُسأل، فلا تضاد بين الآيات...»[1].

(ومنها) أن الآيات النافية للسؤال إشارة إلى المساءلة الشفاهية، والآيات المثبتة إشارة إلى المساءلة التي تقع على الجوارح وهي تتكلم بلسان الحال، مثل حمرة وجه الإنسان خجلاً من انكشاف الحال في إجرامه البارز عند ظهور الحقائق.

وربما كان الأقرب للسياق في آيات نفي السؤال أنها واردة في مورد التأكيد على أن الله يعلم ذنوب المذنبين وإجرام المجرمين، فلا حاجة به إلى سؤالهم للتعرف على ذلك، مع وضوحها عندهم من خلال ما يعرفونه من أنفسهم وما يقرأونه في كتاب الأعمال الذي يراد للإنسان قراءته ليكون الحسيب على نفسه بنفسه، ويتطلع المجرمون إلى ما فيه فيجدونه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولذلك فإن هناك وضوحاً في قيام الحجة عليهم المبررة لعذابهم. أما آيات السؤال فهي واردة لإقامة الحجة عليهم بإظهار أعمالهم من خلال اعترافاتهم، فلكل آية سياق يختلف عن سياق الآية الأخرى؛ والله العالم بحقائق آياته.

* * *

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦١٥.

من هم الذين يشعرون بالحرج تجاه القرآن؟

إننا نقف أمام هذه الآيات التي أرادت للنبي ومن معه أن لا يضيقوا بالقرآن الذي يحملهم مسؤولية المواجهة والانفتاح على ساحة الصراع، لنستوحي من ذلك حركة الإنسان الرسالي في الواقع الذي يعيش هموم القرآن في آياته ومفاهيمه وحركيته، ويحمل في وجدانه هموم التغيير من أجل تحويل خط الانحراف إلى خط الاستقامة، ليعيش الإنسان مع الله في كل حياته المادية والمعنوية من خلال الالتزام بوحيه في كل خطوطه العقيدية والتشريعية والمنهجية والحركية. بكلام آخر، على الإنسان الحركي أن يعرف جيداً كل ما يمكن أن تنتجه له الرسالة في حركة الواقع والمواجهة، من آلام وتضحيات وجراحات جسدية أو روحية، وأن يعي في وعيه الإسلامي للحياة أن هناك أكثر من مرحلة لا بد أن يقطعها العاملون، في سبيل الوصول إلى النتائج الإيجابية الحاسمة بعد جهد طويل، ولذلك يجب أن لا يعيشوا الضيق النفسي والسقوط الروحي أمام الصعوبات والتحديات الكبرى، بل عليهم أن يواجهوها بعقل منفتح وصدر رحب وحركة واعية.

أمّا الذين يعيشون الحياة حركة في داخل الذات، ويحملون الرسالة في معنى المهنة، ويرون في التضحيات خسارة، وفي التعب مشكلة، وفي العقبات يأساً، ويعملون على البحث عن المبررات أو التبريرات لكل تراجع وتخاذل وهزيمةٍ، ليتخففوا من مسؤولياتهم في الدعوة وفي العمل، أمّا هؤلاء فهم الذين يختنقون بالضيق النفسي، والحرج الشعوري، ويضيقون ذرعاً بكل مشكلة في الطريق، ويبتعدون عن هموم الساحة ليقتربوا من هموم الذات من أجل الاسترخاء في لذّات الحياة وشهواتها بعيداً عن الرسالة والرساليين.

● □ ● □ ●

الآيتــان

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾: مقابلة أحد الشيئين بالآخر حتى يظهر مقداره، وقد استعمل في غير ذلك تشبيهاً به، فمنها وزن الشعر بالعروض، ومنه قولهم: يزن كلامه وزناً.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: وضع الشي موضعه على وجهٍ تقتضيه الحكمة، وقد استعمل مصدراً على هذا المعنى وصفة كما جرى ذلك في العدل، قال الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] فجرى على طريق الوصف.

﴿ثَقُلَتْ﴾: الثقل عبارة عن الاعتماد اللازم سفلاً، ونقيضه الخفّة، وهي الاعتماد اللازم علوّاً.

* * *

والوزن يومئذٍ الحق

لكل شيء وزن، يحدد حجمه ومقداره بحسب الوحدة التي تعيّن

المقادير. وللوزن مقياسان؛ مادي ومعنوي. فأما المادّي، فهو الذي يعيّن مستوى الثقل في الأشياء في ما تعارف عليه الناس من الغرام، والكيلو، والطن، ونحو ذلك مما يختلف اسمه ونوعه حسب اختلاف البلدان واللغات... وأمّا المعنويُّ، فهو الذي يحدّد مستوى الثقل الفكريّ والعمليّ والاجتماعي والروحي للأشخاص وللمؤسسات، ليحدّد من خلال ذلك القيمة الفكرية والروحية والاجتماعية والعملية لها، ولتوضع ـ على أساس ذلك ـ القضايا السلبية أو الإيجابية المتصلة بحركة هذه الأشياء بما تحمل من علم أو تجيد من أمور، كما توحي به الكلمة المأثورة عن الإمام علي عليه السلام: «قيمة كل امرىءٍ ما يحسنه»[1] وكما نستلهم من الآية الكريمة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقد يتحدثون عن الوزن الروحي بما تمثله الملكات النفسية، وعن الوزن الاجتماعي والسياسي بما يمثّله من حجم اجتماعي أو سياسي في حياة الآخرين. وهكذا يحس الناس بِخفّة الأشياء وثقلها، في ميزان تفكيرهم ومشاعرهم، وفي تقييمهم لما حولهم من أشخاص أو مؤسسات...

أما في يوم القيامة، فهناك الوزن الحقّ للأشخاص، في ما يملك الناس من خصائص وأعمال في الدنيا وما خلّفه الإنسان وراءه من مواقف، مما يمثل تاريخ الإنسان في علاقته بالحياة من خلال علاقته بالله، فإذا كان تأريخه مثقلاً بالأعمال الكبيرة المنسجمة مع حجم مسؤولياته في إيجابية الممارسة، كان وزنه ثقيلاً في ميزان القيمة عند الله، ممّا يمنحه، في قضية المصير، شهادة فلاح ونجاح بما قدّمه للناس من حوله من فرص الخير والعلم والحرية والهدى والإيمان، وبما أجهد فيه نفسه، وأتعب فيه بدنه. أما إذا كان تأريخه فارغاً من ذلك كله، لأن كل همه في الحياة كان أن يأكل ويشرب ويلبس ويستمتع

---

(١) نهج البلاغة، ضبط نصه د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان، ط: ٢، ١٩٨٢م، ص: ٤٨٢، حكمة: ٨١.

بمختلف شهواته ولذّاته، وأن يعيش الحياة في كسل واسترخاء من غير هموم ومشاريع كبيرةٍ تتجاوز نفسه إلى أمته، فإن أعماله لا تمثل وزناً في حجم المسؤولية. وإنسانٌ في هذا المستوى من البعد عن الله وعن حركة الحياة، لا بد أن يكون ميزانه خفيفاً يطير في الهواء، لأنه لا يجد في مقابله شيئاً يقترب به من خطّ التوازن. وهذا ما أشارت إليه الآيتان: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، لأنهم استطاعوا أن يحوّلوا طاقاتهم إلى أفكارٍ وأعمالٍ ومواقف امتدت في رحاب الزمن، وتعمقت في وعي الإنسان، وانطلقت في آفاق المعرفة، فوجدوها أمامهم بعد أن تركوا هذه الدنيا، في ما أثاروه وفعلوه وعاشوه، مما يقربهم إلى الله ويقودهم إلى رحمته؛ فكأنّ هذه الطاقات قد بقيت لهم بثقلها وحجمها، ممّا جعلها تثقل الميزان في حساب الأعمال، وذلك هو سرّ الفلاح في الدنيا والآخرة، عندما يقف الإنسان على الشاطىء الأمين، بعد مسيرة طويلةٍ في قبضة الأمواج.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾، لأن قيمة النفس بمقدار ما تساوي من عملٍ.. فيما كان الإنسان يستطيع أن يفعله في حياته، ليربح امتدادها في قضية المصير. فإذا لم ينتهز الفرصة السانحة، فسيجد نفسه في خسارةٍ فادحةٍ لا يملك معها شيئاً، أيّ شيء، حيث لا يبقى له إلا النار وبئس القرار... ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ وذلك هو السبب الذي يجلب الخسارة للإنسان، أن يظلم الإنسان ربّه بانحرافه عن آياته، وتمرده عليها، فيبتعد عن الانسجام مع حقوق الله عليه في ما أفاض عليه من نعمة الوجود، وأغدق عليه من ألطافه في امتداد حياته، وما فتح له من نوافذ المعرفة التي تفتح قلبه على الحقيقة... وأي ظلمٍ أفظع من هذا الظلم، أن تستعمل ما منحك الله من نعمه في التمرد عليه ومعصيته، فتفقد بذلك كل دنياك وآخرتك.

* * *

آراء المفسرين في قوله تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ .

اختلف المفسرون حول فقرة ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ما هو المراد بالوزن؟ ذكر ـ كما في مجمع البيان ـ فيه أقوال: «(أحدها) أن الوزن عبارة عن العدل في الآخرة، وأنه لا ظلم فيها على أحد، عن مجاهد والضحاك، وهو قول البلخي.

وثانيها: أن الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة، فتوزن به أعمال العباد الحسنات والسيّئات، عن ابن عباس والحسن، وبه قال الجبائي.

ثم اختلفوا في كيفية الوزن، لأن الأعمال أعراض لا يجوز عليها الإعادة ولا يكون لها وزن ولا تقوم بأنفسها، فقيل: توزن صحائف الأعمال، عن عبد الله بن عمر وجماعة، وقيل: يظهر علامات للحسنات وعلامات للسيّئات في الكفتين، فيراها الناس، عن الجبائي، وقيل: يظهر للحسنات صورة حسنة وللسيئات صورة سيئة، عن ابن عباس، وقيل: توزن نفس المؤمن والكافر، عن عبيد بن عمير، قال: يؤتى بالرجل العظيم الجثّة فلا يزن جناح بعوضة.

وثالثها: أن المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظم، ومقدار الكافر في الذلة، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. فمن أتى بالعمل الصالح الذي يثقل وزنه أي يعظم قدره فقد أفلح، ومن أتى بالعمل السيّىء الذي لا وزن له ولا قيمة فقد خسر، عن أبي مسلم. وأحسن الأقوال القول الأول وبعده الثاني، وإنما قلنا ذلك لأنه اشتهر من العرب قولهم: كلام فلان موزون وأفعاله موزونة، يريدون بذلك أنها واقعة بحسب الحاجة لا تكون ناقصة عنها ولا زائدة عليها زيادة مضرة أو داخلة في باب العبث، قال مالك بن أسماء الفزاري:

وحـــديـــثٌ ألـــذّهُ هـــو ممّـــا ينعــت النــاعتــون يُــوزنُ وزْنــا
منطقٌ صائبٌ ويلحـــن أحيـــا نـاً وخيــر الحــديث مــا كان لحنا

. . . وعلى هذا فيكون معنى الوزن أنه قام في النفس مساوياً لغيره كما يقوم الوزن في مرآة العين كذلك، وأما حسن القول الثاني فلمراعاة الخبر الوارد فيه والجري على ظاهره»[١].

وقد ذكر السيد الطباطبائي في الميزان، أن الوزن يوم القيامة هو تطبيق الأعمال على ما هو الحق فيها، وبقدر اشتمالها عليه تستعقب الثواب، وإن لم تشتمل فهو الهلاك، وهذا التوزين هو العدل، والكلام في الآيات جارٍ على ظاهره من غير تأويل»[٢]. ولعل هذا هو الأقرب إلى سياق الفقرة، لأن الظاهر اعتبار الحق هو الميزان، بحيث يكون الحق هو الأساس في النتائج الإيجابية والسلبية في مصير الإنسان، وهذا هو الذي تؤكده الآية في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، حيث وصف الموازين بأنها القسط، وهذا هو الذي جاء في حديث الإمام الصادق عَلَيْتَلِارْ في حديث هشام ابن الحكم عن الصادق عَلَيْتَلِارْ أنه سأله الزنديق فقال: «أوليس توزن الأعمال؟ قال: لا، إن الأعمال ليست بأجسام وإنما هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها وخفتها، وإن الله لا يخفى عليه شيء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل. قال فما معناه في كتابه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؟ قال: فمن رجح عمله. . . الخبر»[٣].

ولعل مشكلة الكثيرين من المفسرين في تفسيراتهم لكلمات القرآن أنهم

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤ ص: ٦١٦.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ١٤١١ هـ، ١٩٩١م، ج: ٨، ص: ١٤.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط: ١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م، م: ٣، ج: ٧، ص: ٣٧٠، باب: ١٠، رواية: ٣.

يحملونها على معناها الحرفي غير ملتفتين إلى أساليب البلاغة من الاستعارة والمجاز من خلال القرائن المتنوعة التي يحددها السياق العام للكلمة الذي قد يتحدث عن العمق المعنوي لا عن السطح المادي بطريقة الإيحاء.

وهذا هو الظاهر من كلمات الوزن والميزان والموازين التي تكررت في القرآن في مورد الحديث عن الأعمال بلحاظ النتائج المترتبة عليها في حساب ثواب الله وعقابه مما لا علاقة له بالحجم المادي للاشياء، الذي لا مجال له في عالم الأعمال التي هي حركة الإنسان في الواقع مما لا وزن له في الحسابات العينية المادية.

ويشكل العدل المقياس الإلهي لتقدير أعمال الناس ونتائجها. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بأكثر من أسلوب، ومنه أسلوب الميزان الذي يمثل المقياس المادي في مقابلة الشيء بالشيء من دون زيادة أو نقصان.

ومن اللافت إصرار العلامة الطباطبائي على نظرية تجسّم الاعمال، فيقول في ذيل الحديث عن الوزن والموازين قد تقدم البحث عن معنى تجسّم الأعمال، وليس من الممتنع أن يتمثل الاعمال عند الحساب والعدل الإلهي القاضي فيها في صورة ميزان توزن به أمتعة الاعمال وسلعها لكن الرواية الواردة عن الامام الصادق في حديثه مع الزنديق لا تنفي ذلك، وإنما تنفي كون الأعمال أجساماً دنيوية محكومة بالجاذبية الأرضية التي تظهر فيها في صورة الثقل والخفة، أولاً. والإشكال مبنيّ على كون كيفية الوزن بوضع الحسنات في كفة من الميزان، والسيئات في كفة أخرى ثم الوزن والمقياس، وقد عرفت أن الآية بمعزل عن الدلالة ذلك اصلاً، ثانيا[١].

ونلاحظ على ذلك، أنّ المسألة ليست مسألة الإمكان والاستحالة لنبحث عن توجيهٍ للتجسيم في صورة ميزان توزن به امتعة الأعمال وسعيها، بل

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٧.

المسألة هي في ظهور النص القرآني في ذلك المعنى، باعتبار أن النكتة البلاغية المبنية على الاستعارة ظاهرة في غير ذلك وأن، الفهم الحرفي للكلمة يبتعد عن البلاغة اللفظية في آيات القرآن.

وقد ورد بالإسناد عن المنقري عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، قال: هم الأنبياء والأوصياء.

والظاهر أن هذا التفسير واردٌ مورد الاستيحاء بلحاظ أن هؤلاء يمثّلون الصورة المشرقة للقيم الروحية والأخلاقية التي أراد الله للناس ان يجسدوها في الحياة، في أعمالهم وأقوالهم ومواقفهم، فهم التجسيد الواقعي لهذه القيم مما يجعلهم ميزاناً لتقويم أعمال العباد بمقدار قربهم منهم وبعدهم عنهم، فهم الميزان الواقعي للأعمال بالطريقة الايحائية في المقارنة بين أعمالهم وأعمال الناس؛ والله العالم.

● □ ● □ ●

الآيـــة

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾: التمكين: إعطاء ما يصح به الفعل مع رفع المنع، لأن الفعل كما يحتاج إلى القدرة فقد يحتاج إلى آلةٍ وإلى دلالة وإلى سبب ويحتاج إلى ارتفاع المنع. فالتمكين عبارة عن جميع ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: الجعل إيجاد ما به يكون الشيء على خلاف ما كان عليه، مثل أن تقول: جعلت الساكن متحركاً لأنك فعلت فيه الحركة، ونظيره التصيير، وجعل الشيء أعمّ من حدوثه، لأنه قد يكون بحدوث غيره مما يتغيّر به.

﴿مَعَٰيِشَۗ﴾: جمع معيشة، وهي ما يُعاش به من المطاعم والمشارب؛ وقيل هي مكاسب.

* * *

على الإنسان ربط حياته دوماً بالله

إن الله يريد من الإنسان أن يدرس حياته دائماً، بما تشتمل عليه من

إمكانات القوة ومواطن النعمة، فيربطها بالله، المصدر الأساس للقوة والنعمة، ليدفعه ذلك إلى الشعور بالمسؤولية أمامه، في ما يستخدم فيه القوة، أو يستعمل فيه النعمة... وذلك هو مفهوم الشكر العملي، الذي يريد الله من الإنسان أن يجعله الطابع العام لحركة حياته، والسمة البارزة لشخصيته؛ وذلك بأن يحوّل كل ما أعطاه الله إلى السبيل الذي يتحرك فيه أمر الله ونهيه، لأنه لا يملك ذلك كله، فلا حريّة له أن يتصرف فيه تبعاً لمزاجه وهواه، بل يعتبر ذلك منه تمرّداً على الله، ومضادّاً لحالة الشكر له... ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي الدائم لارتباط الوجود الإنساني في عناصره وخصائصه بالله، والابتعاد عن الانغلاق الفكري والروحي داخل الذات، الذي يوحي إليه بالإمكانات الذاتية التي يستمدها من وجوده بعيداً عن الله.

* * *

شكر الله يجب أن يلازم الإنسان

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في ما أودعه من عناصر القوة في الإنسان، وما سخره له من مخلوقاته، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ في ما تأكلون وتشربون وتلبسون وتستمتعون... لتشكروا الله على ذلك، وتنطلقوا به في طريق طاعته. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وتلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة المسؤولة في صلتها بالله، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاحٍ وإيمان، لتعرف أن الله لم يخلقك عبثاً، ولم يخلق الحياة بدون هدف، ولم يترك الإنسان بدون نظام... فمع كل مخلوقٍ فكرة، ومع كل حياةٍ هدف، وأمام كل إنسان مسؤولية؛ فللقوّة مسؤوليتها في تحمل عبء الحياة، وللنعمة مسؤوليتها في تنمية طاقات الحياة ـ حياتك وحياة الآخرين ـ فلا مجال للسلبيّة أو الأنانية... وهذا ما يدفعنا إلى أن نفكر دائماً بالله في كل إحساسٍ بالقوة، وفي كل مظهر للنعمة؛ لنشكر الله على ذلك، ولنجعل من الشكر سبيلاً من

سُبُل إغناء تجربة الإنسان المؤمن في حركة الحياة.

* * *

هل هناك صراع بين الإنسان والطبيعة؟

ربما نستوحي من هذه الآية ما استوحاه بعض المفسرين ـ وهو سيد قطب ـ أن الله خلق الأرض في طاقاتها المتنوعة والإنسان في إمكاناته العقلية والجسدية وجعل بينهما نوعاً من العلاقة، بحيث سخّر الأرض في امتداداتها التحتية والفوقية وآفاقها الفضائية، للقدرة الإنسانية، وأعطى الإنسان الإمكانات الواسعة في عقله وجسده التي يستطيع بها ان يكشف عن أسرارها ويسيطر على مواقعها ويحرك طاقاتها، ليستفيد منها في إغناء حياته وليمنحها من فكره الكثير من حركة الإبداع الذي يطورها ويحولها إلى عنصر متحرك منتج صديق للإنسان لا عدو له، وعلى ضوء هذا تنطلق النظرية الإسلامية التي تتحدث عن التكامل بين الإنسان والطبيعة، خلافاً للنظرية الغربية المادية التي تتحدث عن صراع بينها وبينه، بحيث يتحول الإنسان الذي قد يسيطر على بعض أسرارها وطاقاتها إلى قاهر لها، وتتحول هي عند سقوطه أمامها إلى قاهرة له.

إنّ الإسلام من خلال هذا الحديث عن التمكين الإلهي والتسخير الربوبي يؤكد نظرية التنوع في الوجود، في الإنسان والطبيعة، بحيث يسير نحو التوحد مع حركية الخصائص المتنوعة في داخله أما الجهد والتعقيد في الوصول إلى فعلية التكامل، فإنه من لوازم السنة الإلهية في حاجة الإنسان، للوصول إلى ما يريد، إلى الكثير من الحركة والصعوبة التي تكلفه الكثير من الجهد والتضحيات، لأن الله أراد للأشياء أن لا تفصح عن دفائنها، وأن لا تعطي من طاقاتها إلا بذلك، تماماً كما هو خلق الإنسان في كبد، وكما هو برنامج المسؤولية الملقاة على عاتقه التي تمنحه نتائجها في الدنيا والآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

● □ ● □ ●

الآيات

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ
أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: الخلق: إحداث الشيء على تقدير تقتضيه الحكمة.

﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾: التصوير: جعل الشيء على صورة من الصور، والصورة بنية مقومة على هيئة ظاهرة.

﴿ ٱسۡجُدُواْ﴾: السجود أصله الانخفاض وحقيقته وضع الجبهة على الأرض.

﴿ فَٱهۡبِطۡ﴾: الهبوط: الانحدار والسقوط.

﴿ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: الصغار: الذلة والهوان؛ والصاغر: الذليل.

﴿ أَنظِرۡنِيٓ﴾: الإنظار والإمهال والتأخير نظائر.

﴿ يُبۡعَثُونَ﴾: البعث: الإطلاق في الأمر، والانبعاث: الانطلاق، والبعث والحشر والنشر والجمع نظائر.

﴿ أَغۡوَيۡتَنِي﴾: أضللتني.

﴿ مَذۡءُومًا﴾: ذأم الشيء: عابه؛ والذّام والذّيم، أشدّ العيب.

﴿ مَّدۡحُورٗاۖ﴾: مطروداً. والدّحر: الدفع على وجه الهوان والإذلال.

* * *

عنصرية إبليس وراء سقوطه

وتبدأ الآيات من جديد، لتضع الإنسان أمام بداية الخلق، ليعيش التصوّر الإسلامي عن تكريم الله له، وعن شخصية إبليس في خصائصه الذاتية، وفي طريقته في التفكير، وفي مخطّطاته من أجل إغواء الإنسان وإضلاله من خلال عقدة الكبرياء المتأصلة فيه، ثم في محاولاته الناجحة في البداية، في ما قام به من إثارة نقاط الضّعف في شخصية آدم، حتى أحرجه وزوجه من الجنه، ثم في عودة آدم إلى الله في عملية إنابة وتوبةٍ وانطلاقة تصحيحٍ، وموقف قوّة في حركة الصراع مع إبليس، وذلك من أجل أن يعيش الإنسان الوعي لدوره المتحرك في آفاق الصراع مع الشيطان في كل مجالات حياته... فكيف عالجت هذه الآيات القصة؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ بدأ الله خلق الإنسان من طين، ثم صوّره حتى تكامل خلقه إنساناً سوياً يملك الصورة الجميلة والجسم المعتدل، والأجهزة الدقيقة التي تتحرك في نظامٍ محكمٍ متوازن، فتُحَرِّك فيه العقل والإرادة، اللّذين يستطيع من خلالهما أن يحمل مسؤولية نفسه، ومسؤولية الكون من حوله. ولما كان خلقه بهذه الصورة الفريدة، كان ذلك مظهراً لقدرة الله وعظمته، فأراد الله أن يمنحه الكرامة، ويحمّله المسؤولية، ويظهر لملائكته ما في هذا المخلوق من عناصر الإبداع ومظاهر القدرة؛ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ تحية له، وتعظيماً لله الذي خلقه. ولم يكن ذلك سجود عبادةٍ له، لأن الله لا يرضى لخلقه أن يعبدوا غيره، فكيف يتعبّدهم بذلك؟! بل كان سجود عبادةٍ لله وتحيةٍ لآدم ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾. واستجاب الملائكة للأمر الإلهي، لأنهم عاشوا العبودية له كأفضل ما تكون، فليس بينهم وبين الانقياد إلا أن يصدر إليهم الأمر أو النهي، لأن ذلك هو شأن العبد مع مولاه، فلا تساؤل ولا اعتراض.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ وكان إبليس يعيش مع الملائكة، ولكنه لم يكن منهم، بل كان من الجن؛ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ورفض السجود، وتمرّد على الله.. وخاطبه الله بلهجة الإنكار، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟! هل هناك غموض في طبيعة الأمر، أو هناك تصور بعدم شمول الخطاب له؟ لا شيء من هذا وذاك، لأن الأمر واضح في شموله للمجتمع كله، ولكن إبليس كان يعيش في وادٍ آخر، فقد كانت عنصريته تمنعه من أن يتنازل لعنصر آخر، وكان هاجسه ذاته لا ربه، فهي كل شيء بالنسبة إليه؛ أما علاقته بالله، فإنها تخضع لعلاقته بأنانية نفسه، فإذا ابتعدت عن تأكيد ذلك منه، ابتعد عنه؛ وهكذا كان جوابه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فكيف يسجد الأعلى للأسفل، والأفضل للمفضول، فعنصري أقوى من عنصره وأرفع درجة؛ ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فأنا مخلوق من النار وهو مخلوق من الطين، والنار تفني الطين، فكيف أتواضع له؟!

وربما كان في ظن إبليس، أن هذا المنطق التحليلي لدوافع تمرده على السجود، يمكن أن ينفعه أو يشفع له عند الله، فيعفو عنه، ويقبل منه دفاعه... ولكن الله الذي ارتدى بالكبرياء رداءً لنفسه، ومنعه عن غيره، لأن كل من عداه هو مخلوق له محتقر في حاجته وفقره إليه... فمن أين يأتيهم الشعور بالكبر؟! لا سيما إذا كان التكبر على مخلوقٍ نال الكرامة من الله، مما يجعل من التكبُّر عليه تكبراً على طاعة الله وامتثال أوامره. ولهذا أصدر الله إليه الأمر بالهبوط من الجنة، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها لا تفسح مجالها لمن يتكبّر فيها، ويشعر بالعلو والرفعة والعصيان... ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وطرده الله من الجنة ليشعره بالسقوط والذل والصغار، لأن جو الجنة يلتقي بالعبودية المطلقة لله في كل شيء. وهكذا خرج إبليس من الجنة، ولكنه لم يستسلم لمصيره، بل ظل يعيش الحقد والانتقام في نفسه.. ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾وكان يبحث عن المنفذ الذي ينفذ منه لتحقيق غرضه. وربما عرف أنّ هناك مجالاً للحصول على بعض المطالب في ما يتعلق بالبقاء مع آدم في ظروفٍ معينةٍ وأمدٍ محدودٍ، فطلب من الله أن يمنحه الخلود في الدنيا إلى يوم القيامة، وأن يؤخر عقابه وموته.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وكان لله حكمةٌ في ذلك، فقد أراد للإنسان أن يعيش الإرادة الحرّة في عملية الاختيار من خلال الصراع الذي يخوضه في معركة الخير والشرّ. وكان لا بد للشرّ من عامل يثير نوازعه في نفس الإنسان في مقابل نوازع الخير في نفسه، وكان الشيطان العامل الذي يحقق ذلك، ليوسوس وليزيّن، وليخدع ويخادع... وهكذا التقت رغبة الشيطان بحكمة الله، فأنظره الله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ ـ ٣٨]. وهنا كان الشيطان قد أحرز لنفسه غرضها، وحصل على وعد الله ـ والله لا يخلف وعده ـ فبدأ بالإعلان عن العوامل الخبيثة الحاقدة في نفسه.

* * *

إبليس يثأر لنفسه من الإنسان

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ والغواية تختزن معنى الضلال في مقابل الرشد. ولعل المراد: فبسبب إلقائك لي في الضلال، بإخراجك إياي من رحمتك، وطردي من جنتك، مما جعلني أجد نفسي في الاتجاه الواحد الذي يبتعد عن الهدى، فسأثأر لنفسي بإدخال كل هؤلاء الذين ينتسبون إلى هذا الذي طردتني من أجل موقفي منه بكل ما ملّكتني من وسائل الإضلال والغواية... ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي لألتزمنّ صراطك المستقيم في ما يمثله من وحيك وشرائعك، فأجلس فيه وأرصد كل السائرين عليه لأحوّلهم عن السير فيه، فأنحرف بهم ذات اليمين وذات الشمال، وأثير فيهم كل نوازع الشر والجريمة من خلال نقاط الضعف الكامنة في داخلهم، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ فليست هناك جهة لا أملك حرية الدخول منها إلى أفكارهم ومشاعرهم وخطواتهم العملية، وعلاقاتهم البشرية، وكل أوضاعهم العامة والخاصة، لأنهم مكشوفون لي بكل آفاقهم الداخلية والخارجية؛ فلهم غرائز يمكن إثارتها، ولهم مطامع يمكن اللعب عليها، ولهم أهواء يمكن التحرك من خلالها. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لأن أكثريتهم لا يصبرون على الحرمان والمعاناة والبعد عن الشهوات، ولا يواجهون المواقف بروح المسؤولية الجادة التي تحسب حساب النتائج الإيجابية أو السلبية، لما يقومون به من أعمال، وما يقفونه من مواقف؛ بل يسيرون على أساس مشاعر اللحظة الحاضرة التي يعيش معها الإنسان توتّر الغريزة، وسعار الشهوة، ونزق الانفعالات... وذلك من خلال نقاط الضعف، وبذلك يفقدون الرؤية الواضحة التي يستجيبون من خلالها لنداء الله في ما يأمر به أو ينهى عنه، في ما يمثل حالة الشكر العملي للنعمة الإلهية الواسعة التي أغدقها الله على الإنسان في أصل وجوده، وفي تفاصيله المتحركة بالخير في أكثر من اتجاه.

* * *

حزب إبليس في جهنم

ولكن الله يوجه إليه الخطاب بقوةٍ وشدّةٍ واحتقار، ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ أي مذموماً، ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً بهوانٍ وإذلال ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وسار على خطاك ورفض شكر النعمة، واستجاب لوساوسك وإغراءاتك... ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاعملوا ما شئتم، واعمل أنت في إضلالهم وليتخبطوا في ضلالهم... فماذا بعد ذلك؟ هل تشفي غيظك، هل يحققون رغباتهم؟! إنها النار التي تجمعكم جميعاً لتذوقوا العذاب المهين.

* * *

إبليس والقياس

جاء في الدر المنثور: «أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن جده أن رسول الله ﷺ قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس»[١].

وجاء في الكافي بإسناده عن عيسى بن عبد الله القرشي «قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله ـ جعفر الصادق عليه السلام، فقال له: يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس، قال: نعم. قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين»[٢].

---

(١) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٣م، ١٤١٤هـ، ج: ٣، ص: ٤٢٥.

(٢) الكليني، الكافي، ج: ١، ص: ٥٨، رواية: ٢٠.

وجاء في كتاب علل الشرائع: «دخل أبو حنيفة على الإمام أبي عبد الله عليه السلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم، قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فضل ما بين النورين وصفاء أحدهما على الآخر»[1].

لقد وقف أئمة أهل البيت موقفاً حاسماً من القياس كدليل من أدلة الأحكام الشرعية، انطلاقاً من عدم وجود أساس يقيني له في مسألة الحجية، فالقياس هو عبارة عن تسرية حكم من موضوع إلى موضوع آخر بلحاظ وجود خصوصية مشتركة بينهما، على أساس اعتبار هذه الخصوصية هي العلة للحكم الشرعي في الموضوع الأول، مما يجعل الحكم في الموضوع الثاني خاضعاً لوجود علته، ولكن الملاحظة الدقيقة، هي أن استنباط العلة ـ في أغلب الموارد ـ لا يخضع لليقين بها، بل يحصل من حالةٍ ظنية تلتقي مع احتمال الخلاف، لأن من الممكن أن تكون هناك خصوصية أخرى في الموضوع الأول هي التي أنتجت الحكم، وربما يكون لاجتماع الخصوصيات الأخرى إلى جانب الخصوصية المشتركة دخلٌ في جعل الحكم، بل ربما تكون هناك خصوصية خفية لم يدركها الباحث هي الأساس في الحكم، فيكون إسراء الحكم من موضوع إلى موضوع آخر حاصلاً من الظنّ الذي «لا يغني من الحق شيئاً» ولا دليل على حجيته من ناحية خاصة. وربما يذكر البعض مثالاً لابتعاد القياس عن الصواب مثال «البول» و «العرق»، فقد حكم على بول الإنسان بالنجاسة وحكم على العرق بالطهارة مع أنهما متشابهان في خروج كلٍّ منهما من داخل جسم الإنسان، فهل يحكم على العرق بالنجاسة لأجل ذلك، في الوقت الذي يفترقان بأن أحدهما أرقّ والآخر أغلظ، وأن الاجتناب عن

---

(١) الكافي، ج: ١، ص: ٥٨، رواية: ٢٠.

أحدهما ـ وهو البول ـ أسهل، بينما الاجتناب عن العرق أصعب.

وإذا كان القياس متعارفاً عند الناس في بعض أمورهم، فإن السبب في ذلك هو اكتشافهم العلة الكامنة وراء الحكم العرفي، بلحاظ معرفتهم بالأسس العقلائية التي ارتكز عليها من خلال ما يعرفونه من مرتكزاتهم بشكل يقيني، ولكنهم يتوقفون في الحالات التي لا يحيطون بخصوصياتها الذاتية، وهذا ما قد نلاحظه في الأطباء الذين لا يبادرون إلى إعطاء دواء مريضٍ لمريضٍ آخر يشبهه في بعض المواصفات، لإمكان أن يكون مختلفاً عنه في صفات مرضية أخرى، مما يجعل من الدواء عنصراً ضاراً له بلحاظ تلك الخصوصية المنفردة.

وربّما كان الأساس في ذهاب أبي حنيفة للقياس هو قلة الأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي محمد ﷺ ـ كما نُقل عنه ـ مما يجعل من الواقع الفقهي واقعاً يشبه ما ذكره الأصوليون من علماء الشيعة في موضوع انسداد باب العلم والحجج الخاصة، الأمر الذي ذهب فيه بعضهم إلى حجّية الظنّ المطلق، ولكنه أمرٌ غير واقعي لورود الكثير من الأحاديث الواردة عن النبي محمد ﷺ وأئمة أهل البيت الذين يتحدثون عن النبي ﷺ في كل أحاديثهم، بالإضافة إلى نصوص القرآن، الأمر الذي لا يجعل هناك فراغاً فقهياً أو حاجة استنباطية يفرض اللجوء إلى القياس أو إلى الظنون الأخرى، في الوقت الذي يصعب فيه معرفة علل الأحكام الشرعية بشكل دقيق، مما يجعل من القياس وسيلةً من وسائل الابتعاد عن الحقيقة في الحكم الشرعي من خلال الظنون المتنوعة التي قد تختلف باختلاف الأشخاص.

وتبقى هناك حالةٌ واحدةٌ، وهي صورة «منصوص العلة» بأن يأتي ذكر العلة في الحديث نفسه الدالّ على الحكم الشرعي، كما إذا قال: لا تشرب الخمر لأنه مسكر، فإننا نستوحي من ظاهر الكلام علية الإسكار للحرمة، مما

يجعل عنوان المسكر هو عنوان الموضوع للحرمة، لأن العلة تؤدي إلى سعة الموضوع ليشمل كل مسكر، ففي هذه الحال لا مانع من إسراء حكم الخمر في الحرمة إلى كل مسكر.

وقد شدّد أهل البيت عليهم السلام على رفض القياس، كما شدد عليه ابن حزم الظاهري، لحماية الأحكام الشرعية من الانحراف عن خط الحقيقة التشريعية، وقد اتّبعوا جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حسب الرواية المتقدمة، باعتبار إبليس هو الذي بدأ القياس عندما اعتبر أن السبب في التكريم لا بد من أن ينطلق من قوّة العنصر، فهو الأساس في التفضيل، ولذلك اعترض على تفضيل الله لآدم قال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»، باعتبار أن النار أقوى من التراب لأنها تفنيه، ولكنه لم يلتفت إلى الخصوصيات الروحية والمعنوية المتناسبة مع الدور الذي أوكله الله لآدم، بالإضافة إلى خصائص التراب في عملية الإنتاج الزراعي وفي بناء الأبنية ونحو ذلك، وهكذا كانت غوايته منطلقة من عدم وعيه للخصائص الخفية الحقيقية التي تكمن وراء التفضيل الإلهي لآدم.

وبكلمة واحدةٍ، إن اليقين هو الأساس الوحيد للحجيّة ولا بد لكل حجةٍ من الانتهاء إلى اليقين، حتى لو كان ذلك بلحاظ تنصيص الشارع على حجيتها باعتبار أن الأمر يرجع إليه، وأما الظن فإنه «لا يغني من الحق شيئاً»، فكيف نعتمد عليه ـ بدون دليل ـ ليكون القياس حجة!

وقد حاول أصوليو السنّة أن يستدلوا على حجيّة القياس بأدلة متنوعة من الكتاب والسنة، ولكنها لا تثبت أمام النقد العلمي.

* * *

إبليس والتكبر

جاء في الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث: «وللمعاصي شعب، فأول ما عصى الله به الكبر معصية إبليس حين أبى واستكبر»[١].

إنّ قيمة هذا الحديث هي الإشارة إلى الأساس الذي دفع بإبليس إلى عصيان أمر الله في السجود لآدم، فلم تكن المسألة مسألة إخلاصٍ في توحيد الله بحيث يمنعه من السجود لغيره، لأن السجود ليس عبادةً لآدم وخضوعاً له، بل هو سجود لله في التعبير عن الإحساس بعظمته في خلقه، وتحية لآدم في العناصر المميزة في ذاته، بل كانت المسألة مسألة إحساسٍ بالكبرياء الذاتي أو التفوق العنصري الذي يجعله مستغرقاً في مشاعره المعقّدة، على أساس أنه يملك من عناصر الامتياز ما لا يملكه هذا المخلوق الجديد، وذلك بالتفكير في القضية من جانب واحد وهو جانب العنصر الناري، الذي هو أقوى من العنصر الترابي، والغفلة عن العناصر الأخرى المميزة التي تتمثل في خلق آدم، حتى أن الترابية إذا كانت أضعف من النارية من بعض الجهات، فإنها تتميز بخصائص كثيرة في إغناء الحياة في عملية الخصب والنموّ والعمران ونحو ذلك؛ وعدم الالتفات إلى أن الله لم يجمع في أيّ موجود كل الخصائص، بل جعل لكل موجود خصائص معيّنةً تختلف عما جعله في الموجود الآخر، لأن تنوع الموجودات في خصائصها وعناصرها هو الذي يمنح النظام الكوني توازنه وتكامله من خلال اجتماع العناصر المتنوّعة في داخله.

وفي ضوء ذلك، نعرف أن الأنانية لا تمثل حالة وعي في الإنسان بلحاظ استغراقه في أعماق الذات، بل تمثّل حالة غفلة إنسانية عن سرّ التنوّع في

---

(١) الكافي، ج: ٢، ص: ٣١٦، رواية: ٨.

عناصر الوجود، وعن اختلاف الجوانب في خصائص الذات، وعن البعد الفكري عن فهم الآخر في مميزاته الوجودية، تماماً كمن يقضي عمره في زاوية مغلقةٍ يستغرق فيها فيخيّل إليه أن العالم يتمثل في هذه الزاوية، لأنها هي التي عانت فيها تجربته الذاتية.

وهذه هي مشكلة الأنانيين الذين لا ينظرون إلى الناس الآخرين في فضائلهم المميزة، ولا ينظرون إلى أنفسهم في سلبياتهم الذاتية ولا يدخلون في مقارنةٍ واقعيةٍ إنسانيةٍ بين عناصرهم الشخصية وعناصر الآخرين، وبذلك تتحوّل الأنانية إلى كبرياء لتتحول الكبرياء إلى عقدةٍ في الذات توحي باتخاذ المواقف العدوانية ضد الآخر، لا سيّما إذا استطاع أن يبلغ الدرجات العليا في الحياة، وأن يتغلب عليه في الحصول على امتيازات واقعية في الواقع الإنساني.

وهذا هو الذي تمثله إبليس في موقفه من آدم وبنيه، فقد استفاد من حرية الحركة التي منحه الله إياها في التجوال في الجنة التي كان يقيم فيها آدم وزوجه، ومن نقاط الضعف البشري في شخصيته، ومن فقدانه للتجربة المتحركة في معرفة إبليس الذي لم يتيسّر لآدم التعرف عليه بخصائصه الشريرة عن قرب. . وهكذا عمل على أن يرسم خطته في إبعاده عن رضوان الله وقربه منه، وذلك بالعمل على استغلال نهي الله لآدم وزوجه عن أكلهما من الشجرة لحكمة منه في ذلك، مما لم يثر فيهما أيّ ردٍّ فعلٍ سلبيٍّ، فقد تقبلاه بكل رضى وطواعيةٍ وخضوعٍ وإذعان.

وبدأ إبليس خطّته، فقد أقسم لهما إنه من الناصحين، ليبعث الثقة به في وجدانهما، لأنه ليس من الطبيعي أن يقسم بالله كاذباً لا سيّما أنهما كانا لايعرفان الكذب في التجربة الواقعية، ثم أثار في داخلهما أحلام الخلود والتحوّل إلى الشخصية الملائكية التي ربما كانا يملكان صورة

جيّدة لها بحيث تنفتح عليها أحلامهما، وهكذا أخرجهما من الجنة إلى الأرض.

* * *

لماذا أمهل الله إبليس؟

وفكّر أن لا يقف عند هذا الحدّ، فإن هناك فرصةً جديدةً لآدم وذريته أن يدخلوا الجنة إذا اتبعوا هدى الله، ولذلك فقد طلب من الله مُهلةً انتظاريةً يجمّد الله فيها عقوبته له في نطاقها، ومنحه الله هذه الفرصة المنشودة، إمّا تكريماً لعبادته التاريخية عندما كان في مجتمع الملائكة كما لو كان أحدهم، وإما ابتلاءً للإنسان واختباراً لحركة عقله وإرادته في الطاعة الإرادية القائمة على وقوفه أمام خياري الخير والشر، ليكون لإبليس، الشيطان، دوره في الوسوسة الداخلية المحركة للغرائز في اتجاه قلق الشرّ، وحركته في الإيحاء في إثارة الأحلام الخيالية والشهوات الجامحة، وتزيين الصورة القبيحة، وتقبيح الصورة الحسنة، وإطلاق الوعود المعسولة، ونصب الحبائل الشيطانية في طريق الهدى من أجل أن يسقطوا فيها فلا يمتدوا في مسيرتهم الإيمانية.. وهكذا أعلن خطته الإضلالية في حصار الإنسان بشهواته وأمانيه وحبائله وخدعه، ليحيط به من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله، ليمنعه من شكر الله قولاً وعملاً ومن السير في الخط المستقيم، ليبعده عن الجنة ويدخله النار، ليرضي بذلك حقده وعداوته ضد هذا الذي كرّمه الله عليه، ليسقط هذه الكرامة من ذريته، ليقعوا تحت تأثير غضب الله باستسلامهم لغروره وخداعه. ولكن الله يحذّر بني آدم أن لا يتّبعوا خطوات الشيطان حتى لا يخرجهم من الجنة كما أخرج أبويهم من الجنة، ويؤكد له أن عباده الصالحين الذين يتحركون من موقع عقولهم ووعيهم الإيماني وإرادتهم التقية، ليس له سلطان عليهم إلا أولئك الذين لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها،

ولهم نقاط قوة لا يحركونها في حياتهم العملية، مما يترك تأثيره على أقوالهم وأفعالهم، فينحرفون عن الخط المستقيم، فهؤلاء لم يتحركوا في خط الانحراف من أجل سلطانه عليهم، بل من جهة أنهم أهملوا سلطان إنسانيتهم على حركتهم، واستضعفوا أنفسهم، وخضعوا لاستكباره في أجواء الغفلة، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وهكذا كان هذا التكبّر الشيطاني على الله بالتمرد على أوامره ونواهيه، عبر التكبر على آدم بامتناعه من السجود له، سبباً لكل هذه العدوانية على آدم وذريته، وكل هذه العقدة الحاقدة في شخصيته.

* * *

لا سبيل للشيطان إلى إرادة الإنسان

ولم تكن مشكلة البشر من خلال وجوده واستمراره وقدرته على الوسوسة والإثارة والتزيين والخداع، ممّا يقلب فيه المقاييس ويغير الصورة ويثير الأجواء القلقة في الإدراك الإنساني، بل المشكلة لديهم من خلال إهمالهم لقدراتهم الفكرية والعقلية وأصالتهم الإنسانية، وقاعدتهم الإيمانية، وإرادتهم القوية، لأن الشيطان لا يملك أن يشلّ إرادة الإنسان، وأن يعطّل قدرته فالإنسان الذي خلقه الله ضعيفاً لا يعيش الضعف قضاءً محتوماً، وقدراً حاسماً، بل يملك أن يحوّل الضعف إلى قوة ببركة الوسائل المادية والغيبية التي حرّكها الله في حياته، فإذا أهمل ذلك، فقد اختار لنفسه الهلاك بإرادته واختياره، لا بسبب ضغط الشيطان عليه، وهذا هو الذي عبّرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي

وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فنحن نلاحظ في هذه الآية أن الشيطان يتخفف من عبء المسؤولية التي يحمّلها الخاطئون له ليذكّرهم أن دوره ينتهي عند دعوته إليهم بوسائله المتنوعة، ولا يتعداه إلى السيطرة عليهم، فعليهم أن يتحملوا مسؤولية أنفسهم في الانحراف، لأن الله وعدهم وعد الحق، فلماذا لم يستجيبوا له ولم يثقوا به، وإنه وعدهم فأخلفهم، وقد عرفهم الله صفة الشيطان في ذلك، فلماذا استجابوا له؟!

وهكذا نجد الشيطان ـ في هذا الحوار النهائي بينه وبين الإنسان الخاطىء ـ في صورة المخلوق الذي يواجه مصيره من دون أن يجد أحداً ممن اتبعه في ضلاله ناصراً له، كما يواجه أولئك مصيرهم من دون أن يملك نصرتهم.. لينكمش في النهاية المهلكة في زاوية من زوايا جهنم في ساحة الذل والهوان، فيسقط كبرياؤه وتتمزق أنانيته، ويبقى آدم والصالحون من ذريته في عزة الإيمان والإخلاص والطاعة لله، بعد أن حرّكوا إنسانيتهم في اتجاه الخير المنفتح دائماً عليه ـ تعالى ـ.

* * *

لينتبه المتكبّرون في الأرض

وهذا ما ينبغي للمتكبرين أن يدرسوه ويعرفوه، وما يجدر بالأنانيين أن يواجهوه، ليصلوا إلى النتيجة الحاسمة، وهي أنّ التكبر قد يمنح المتكبّر فرصةً في ممارسة عقدة كبريائه في الضغط على المستضعفين، وأن الأنانية قد تفتح لصاحبها بعض النوافذ على مواقع العلوّ في الحياة، ولكن هذا وذاك سوف

يواجهان الحقيقة بالسقوط الإنساني في الدنيا وبالعذاب الأبدي في الآخرة، ولعل مصير المتكبر الأكبر والأناني الأعظم، إبليس، هو الشاهد الحي على ذلك كله، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

* * *

إبليس في إحاطته بالإنسان

ذكر صاحب تفسير الميزان في تفسير قوله تعالى في ما قصّة من كلام إبليس إن المراد من قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ «ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما تتعلق به الآمال والأماني من الأمور التي تهواها النفوس وتستلذها الطباع، ومما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله به، كالفقر يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله، أو ذم الناس ولومهم لو ورد سبيلاً من سبل الخير والثواب.

والمراد بخلفهم ناحية الأولاد والأعقاب، فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال وأمانٍ ومخاوف ومكاره، فانه يخيّل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسرّه ما يسرّهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم، ويعدّ لهم ما استطاع من قوة، فيهلك نفسه في سبيل حياتهم.

والمراد باليمين ـ وهو الجانب القوي الميمون من الإنسان ـ ناحية سعادتهم ـ وهو الدين ـ وإتيانه من جانب اليمين، أن يزيّن لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية، والتكلف بما لم يأمرهم به الله، وهو الذي يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

والمراد بالشمال خلاف اليمين، وإتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء والمنكر ويدعوهم إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب واتّباع الأهواء»[1].

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

وجاء في مجمع البيان حديث مروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم. وإنما دخلت (من) في القدّام والخلف، و (عن) في اليمين والشمال، لأن في القدّام والخلف معنى طلب النهاية، وفي اليمين والشمال الانحراف عن الجهة[1].

ونلاحظ على ذلك، أن الظاهر من الآية أنها واردة في مقام ضرب المثل بحال العدو الذي يحاصر عدوه من جميع الجهات، فلا يملك الهروب منه لإحاطته به من جميع جوانبه، وليست في مقام بيان تفاصيل الخطط الشيطانية وتحديد عمل الشيطان في كل جهة.

ولكن لا مانع من أن تكون هذه التفاصيل بمثابة المصاديق المتصورة في هذا الجانب أو ذاك، أو بمثابة الاستيحاء من الآية، لأن اعتبارها من المعنى لا يخلو من خفاء، فإنّ بعض الأمور المذكورة تمثّل نتائج العمل، لا العمل نفسه الذي يتدخل فيه إبليس، والله العالم.

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ بحرف الابتداء و ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ بحرف المجاورة؟ قلت: المفعول فيه عُدّي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط.

فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه، وعن شماله

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٢٣.

وعلى شماله، قلنا: معنى عن يمينه أنه تمكّن من جهة اليمين تمكّن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استُعمل في المتجافي وغيره، كما ذكرنا في (تعال) ونحوه عن المفعول به قولهم: رميت عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس، لأن السهم يبعد عنها، ويستعليها إذا وُضع على كبدها للرمي، ويُبتدأ الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه لأنهما ظرفان للفعل، ومن بين يديه ومن خلفه، لأن الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جئته من الليل، تريد بعض الليل»[١].

●□●□●

(١) تفسير الكشاف، ج: ٢، ص: ٧١.

الآيـــات

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا
مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ
أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا
ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾.

* * *

معاني المفردات

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسة: الصوت الخفي المكروه، وقد يراد بها هنا ما

يجده الإنسان في نفسه من الخواطر الضارّة.

﴿لِيُبْدِيَ﴾: الإبداء: الإظهار وهو جعل الشيء على صفة ما يصحّ أن يدرك، وضده: الإخفاء، وكل شيء أزيل عنه الساتر فقد أبدي.

﴿وُرِيَ﴾ الشيء: غُطّي وستر. والمواراة: جعل الشيء وراء ما يستره، ومثله المساترة وضده المكاشفة.

﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾: السوأة: ما يسوء الإنسان؛ والمراد بها هنا العورة، حيث يسوؤه ظهورها.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: المقاسمة لا تكون إلاّ بين اثنين، والقسم كان من إبليس لا من آدم. وإنما قال: وقاسمهما، كما يقال: عاقبت اللص وطارقت النعل وعافاه الله، وكذلك قاسمته، وقيل إن في جميع ذلك معنى المقابلة، كأنه قابله في المنازعة باليمين، والمعاقبة مقابلة بالجزاء، وكذلك المعافاة مقابلة المرض بالسلامة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: استنزلهما وجرأهما على الخطيئة، والتدلّي: الدنو والاسترسال، من دلوت الدلو أرسلتها، وأدليتها: أخرجتها، ومنه قولهم: فلان يتدلى إلى الشرّ لأن الشرّ سافلٌ والخير عالٍ.

﴿بِغُرُورٍ﴾: بباطل وخداع.

﴿وَطَفِقَا﴾: أخذا، شرعا.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: يلصقان ورقةً على ورقةٍ.

﴿ٱهْبِطُواْ﴾: انزلوا بسرعة، والهبوط: النزول بسرعة.

﴿عَدُوٌّ﴾: العدوّ ضد الولي، وقيل: العدوّ هو النائي بنصرته في وقت الحاجة إلى معونته، والولي هو الداني بنصرته في وقت الحاجة إلى معونته.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: هو موضع الاستقرار، وقيل: هو الاستقرار بعينه، لأن المصدر يجيء على وزن المفعول.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتاع: الانتفاع بما فيه عاجل استلذاذ، لأن المناظر الحسنة يستمتع بها لما فيها من عاجل اللذة.

﴿حِينٍ﴾: الحين: الوقت، قصيراً كان أو طويلاً، إلا أنه قد استعمل هنا على طول الوقت، وليس بأصل فيه، كقول القائل: ما لقيته منذ حين.

* * *

آدم وحواء يخضعان لخداع إبليس

. . . وأراد الله الإيحاء إلى آدم بكرامته عليه، في ما يمهد له من سبل رضوانه ونعمه، فقال له: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وخذا حريتكما في التمتع بأثمارها في ما تختاران منها ممّا تستلذّانه أو تشتهيانه. . . ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ لا يمنعكما منه مانع، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهي محرمةٌ عليكما. هذه هي إرادة الله التي انطلقت من موقع حكمته في توجيهكما إلى أن تواجها المسؤولية من موقع الالتزام والإرادة، في الامتناع عن بعض ما تشتهيانه من أجل إطاعته في ما يأمر به أو ينهى عنه؛ فلا بد من تجربةٍ أولى لحركة الإنسان في عملية الإرادة، فلتبدأ تجربتكما الأولى في هذه الأجواء الفسيحة التي منحكما الله فيها كل شيء، مما يجعل من النهي الصادر منه إليكما، تكليفاً ميسّراً لا صعوبة فيه ولا حرج، فبإمكانكما السير في نقطة البداية من أيسر طريق، فلا تقربا هذه الشجرة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الذين يظلمون أنفسهم، ويسيئون إليها بالانحراف عن خط المسؤولية في طاعة الله. ولم يكن لديهما أيُّ حافزٍ ذاتيّ يدفعهما إلى المعصية، لأنهما لا يشعران بالحاجة إلى

هذه الشجرة بالذات، ما دامت الشجرة لا تمثل شيئاً مميزاً في شكلها وثمرها.

* * *

التوهّم علّة الإنحراف

ولكنّ إبليس، الذي أخرجه الله من الجنة، ومنعه أن يسكنها، كان يملك الاقتراب منها، أو التردّد عليها، فعمل على أن يثير في داخلهما الأفكار التي تجعل من هذه الشجرة قضيّةً مهمةً ذات أبعادٍ كبيرةٍ في حياتهما، وأن يحوّل هذا السلام الداخلي والصفاء الروحي ـ اللذين يعيشانهما في علاقتهما بالله ـ إلى حالةٍ عنيفةٍ من الهمّ والقلق والتطلّع إلى آفاق موهومةٍ يفتحها الخيال الذي يريد إثارته في أحلامهما. وتلك هي قصّة الأحلام السعيدة في أكثر مظاهرها، فهي تتحرك من مواقع الخيال الذي يتحرك في النفس كما يتحرك الضباب، فيحسّ معه الإنسان بسحر الغموض الذي لا يطيق معه أن يخرج إلى مطالع النور، وكلّما زادت خيالات الإنسان، كلما ابتعدت الصورة الحقيقية عن وجدانه، لأنه يعطيها ضخامة لا تملكها، وسحراً لا تحتويه. وهذا ما يزيّن المعصية لدى الإنسان، عندما يتحرك للاعتداء على ما يملكه غيره، مما يملك مثله، على أساس الخيالات التي تصوّر له أنه يتميز عمّا لديه. وهذا ما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام عندما كان جالساً بين أصحابه ذات يوم، فمرّت امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم، فقال لهم: «إن أبصار هذه الفحول طوامح وإن ذلك سبب هبابها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأته»[١].

هذا ما يريد أن يثيره في أنفسهم.. ليس هناك فرقٌ بين الشهوة التي يحصل عليها من الاتصال بامرأته أو من الاتصال بامرأة أخرى، إلا في ما يثيره

(١) نهج البلاغة، ص: ٥٥٠، حكمة: ٤٢٠.

الخيال في نفس الإنسان من أوهام، بما تحدثه من أحاسيس ومشاعر حميمة لا أساس لها. وهذا ما بدأه إبليس في تجربته الأولى لإغواء آدم وحوّاء؛ فقد عاشا في الجنّة، ولا فكرة لهما عن المستقبل، ولا عن الحياة والموت، أو عن الخلود والفناء، ولا طموح لهما في مسألة الملك والرفعة؛ فهما هنا في الجنة في رضوان الله ونعيمه، يعيشان السعادة والطمأنينة والسلام الروحي دون مشكلة ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بطريقته الخاصة، وأثار في داخلهما الإحساس بفكرةٍ جديدةٍ لم تخطر لهما على بال؛ فهما هنا ــ في الجنة ــ يستمتعان بكل شيءٍ فيها، ما عدا هذه الشجرة، فلماذا المنع عن هذه الشجرة بالذات؟ لا بد أن هناك سراً خفياً وراء ذلك، فما هو هذا السر؟! وكانا يسيران عاريين لا يلتفتان إلى شيء يميز عضواً عن عضو في جسديهما مما يثير الحياء والخجل. وبدأت الأخيلة الجديدة تثير علامات الاستفهام أمامهما... ما هذا وما ذاك؟ وما دور هذا، وما دور ذاك... وتحوّلت الوسوسة الخفية الدائمة، إلى حالةٍ من القلق الخفيف الذي يزحف على المشاعر فيحرّكها في حالةٍ من التوتر والارتباك... واستمر إبليس في إثارة الوسوسة في داخلهما ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ليعيشا هذا الهاجس العضوي في جسديهما. ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وأثار في داخلهما طموح الملك والسيطرة والخلود، وربط ذلك بالشجرة، فهي تحمل في ثمرها سرّ الخلود والملك. فانطلقا إليها بكل شوقٍ ولهفةٍ، وأطبقت عليهما الغفلة عن مواقع أمر الله ونهيه، لأن الإنسان إذا استغرق في مشاعره وطموحاته الذاتية، واستسلم لأحلامه الخياليّة، نسي ربّه، ونسي موقعه منه، وأصبح يفكّر في الاتجاه الواحد الذي يقوده إليها بعيداً عن كل مسؤولية.

* * *

إبليس يستغلّ براءة آدم وحواء

وربما استشعرا بعض القلق في داخلهما، وعاشا بعض التردد في موقفهما. وحاول إبليس أن يزيل ذلك كله، فيؤكد الموقف لهما بالطريقة التي لا مجال فيها للتراجع، وذلك بالأيمان المغلظة التي يطلقها بحرارة المؤمن بما يقول، الواثق بما يعد ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، وحلف لهما أنه لا يدّخر جهداً في تقديم النصيحة لهما، فلا مصلحة له في أن يأكلا أو لا يأكلا، بل هي مصلحتهما أوّلاً وأخيراً. ولم يكن عندهما أيّة تجربةٍ سابقةٍ مع مخلوقٍ يحلف بالله ويكذب، أو يؤكد النصيحة ويخون أو يغشّ، فصدّقاه وأقبلا على تلك الشجرة المحرّمة يذوقان من ثمرها ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ أي أنزلهما عن درجتهما الرفيعة، فأوصلهما إلى مرحلة السقوط بسبب الغرور الذي أوقعهما فيه، في ما استعمله من أساليب الخداع. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وشعرا بالعري الذي بدأ يبعث في نفسيهما الشعور بالخزي والعار، في إحساسٍ جديد لم يكن لهما به عهدٌ من قبل. وقيل: إنهما كانا يلبسان لباس أهل الجنة، فسقط عنهما بسبب المعصية. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ ليسترا سوءاتهما في إحساس بالحاجة إلى ذلك، بطريقة غريزية، من خلال شعورهما بالدور الخجول للعورة، أو لأمرٍ آخر يعلمه الله، وسقطا في الامتحان وأخفقا في التجربة، وبدأ هناك شعورٌ خفيٌّ بالخيبة والمرارة نتيجة إحساسهما بأنهما ارتكبا ما لا يجب أن يرتكباه، وربّما تذكّرا نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة، وربما يكونان قد عاشا بعض الحيرة في ما يفعلانه في موقفهما هذا، فهذا أمر جديد لا يعرفان كيف يتصرفان فيه..

وهنا جاءهما النداء من الله مذكّراً ومؤنّباً ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؟! فكيف خالفتما هذا النهي وعصيتماني؛ ما حجتكما في ذلك؟ هل هي وسوسة الشيطان؟ وكيف لم تنتبها إلى وسوسته؛ ألم أحذركما منه

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يضمر لكما الحقد والعداوة والحسد، منذ رفض السجود مع الملائكة، وخالف أمر الله بذلك، ووقف وقفة التحدي للإنسان ليغويه ويضرّه ويقوده إلى عذاب السعير؟ وها أنتما تريان كيف قادكما إلى هذا الموقف المهين.

وتمثّلت لهما الجريمة في مستوى الكارثة؛ كيف نسيا تحذير الله لهما، كيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرَّمة وغفلا عن عداوة الشيطان لهما، وكيف خالفا أمر الله الذي خلقهما وأنعم عليهما؟؟ وبدآ يعيشان الندم كأعمق ما يكون، في إحساسٍ بالحسرة والمرارة والذعر... ولكنهما لم يستسلما لهذه المشاعر السلبية طويلاً، ولم يسقطا في وهدة اليأس، فلهما من الله أكثر من أملٍ، لأنه الرب الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم. فرجعا إليه، وعادا إلى كنف رحمته يتطلعان إلى مغفرته ورضوانه، في موقف الاعتراف الخاشع. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ بما أخطأنا وما خالفنا، لأننا لم نتصور أن هناك مخلوقاً يغش ويخدع، أو يكذب ويخون... فنحن لم نخض تجربةً مماثلة سابقة في حياتنا، أو في حياة مخلوقاتٍ أخرى، فاستسلمنا للخداع بطيبة قلبٍ، وغفلنا عن كل النتائج السلبية من جرّاء ذلك، وربما خيّل لنا أن مثل هذه الأفكار التي أثارها في أنفسنا قد تصلح مبرراً لتجاوز النّهي، لأننا لم نتعمق في معرفة مسؤولية الإنسان أمام الأمر والنهي بشكل دقيق. وها نحن أمامك نفتح لك قلوبنا وأفكارنا وحياتنا كلها لتكون بين يديك، في ما نستقبل من قضايا وأوضاع، وما تريده أو لا تريده منا. فأمُرْنا أو انهنا نطعك في ذلك كله..

وتلك هي روحيّة الإنسان المؤمن في حالة الاعتراف النادم بالذنب أمام الله، من أجل مواجهة الموقف بالتوبة للحصول على المغفرة والرحمة. فاغفر لنا بمغفرتك، وارحمنا برحمتك، ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم بفقدانهم لرحمة الله ومغفرته ورضوانه... وهذا ما لا

تقوم له السموات والأرض، فكيف بالإنسان الضعيف الذليل الفقير المسكين المستكين... وغفر الله لهما وتاب عليهما، ولكنه أمرهما بالخروج من الجنة، كما أمر إبليس بالخروج منها، لأنهما عصياه كما عصاه، وإن كان الفرق بينهما أنه ظل مصرّاً على المعصية ولم يتب فلم يغفر له الله، بينما وقف آدم وزوجته في موقف التوبة فغفر لهما.

* * *

هبوط آدم وحوّاء إلى مستقرّهما الأرضي

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ إلى الأرض فذلكم مكانكم الطبيعي الذي تعيشون فيه الصراع بين الحقّ الذي تمثله إرادة الله في وحيه وشريعته، وبين الباطل الذي تمثّله إرادة الشيطان في أضاليله ووسوسته، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فليس هناك قاعدةٌ مشتركة بين مصلحة الإنسان في السير في طريق الله الذي يؤدي به إلى الجنة، ومصلحة الشيطان في السير في طريق الضلال الذي يؤدي بالإنسان إلى النار ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فليس هناك خلودٌ واستقرار دائم، بل هو الاستقرار الذي يتهيأ الإنسان معه للرحيل ريثما يأخذ متاعه وزاده. ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، هي دار الحياة المسؤولة في ما يفعله الإنسان من خير أو شرّ، وهي دار الموت الذي تخمد فيه شعلة الحياة، وهي الدار التي يُبعَثُ فيها الإنسان من قبره ليواجه نتائج المسؤولية، في ما خلّفه وراءه من أعمالٍ وعلاقاتٍ ومواقف.

* * *

لماذا أسكن الله آدم وحواء الجنة؟

إننا نعرف من قصة بدء الخليقة في خلق آدم في سورة البقرة، أن الله ـ سبحانه ـ قد خلقه ليكون خليفة في الأرض، الأمر الذي قد يفرض وجوده في الأرض من البداية ليمارس دوره في الخلافة، فكيف أسكنه الله وزوجه الجنة كما لو كانت مستقراً لهما؟

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الجنة ليست الموعودة، بل هي جنةٌ أرضيةٌ من جنان الدنيا كما جاء في تفسير البرهان عن علي بن إبراهيم قال: «حدثني أبي، رفعه، قال: سُئل الصادق عليه السلام عن جنة آدم من جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً.

قال: فلما أسكنه الله تعالى الجنة وأباحها له إلا الشجرة لأنه خلق خلقة لا يبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيق، فجاءه إبليس فقال له: إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنة، وحلف لهما إنه لهما ناصحٌ، كما قال الله عز وجل ـ حكاية عنه ـ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. فقبل آدم قوله، فأكلا من الشجرة، فكان كما حكى الله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وسقط عنهما ما ألبسهما الله تعالى من لباس الجنة، وأقبلا يستتران من ورق الجنة، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فقالا: ـ كما حكى الله عنهما ـ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فقال الله لهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: إلى يوم

القيامة»[١].

ونلاحظ على هذه الرواية **أولاً**: أنها ضعيفة السند لأنها مرفوعة، فلم يتّصل السند بالإمام، **وثانياً**: أنها مخالفة لظاهر القرآن بأن الجنة التي أسكن الله آدم فيها هي الجنة الموعودة بلحاظ السياق القرآني من جهة، وتحذير بني آدم من الشيطان الذي أخرج أبويهم منها، حتى لا يخرجهم منها أيضاً بسبب وسوسته، من ناحية أخرى، مما يوحي بأن الجنة هي التي وعد المتقين بها، لأنها هي التي تتناسب مع التحذير لهم حتى لا تتكرر التجربة، ثم التعبير بقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ دليل على ذلك.

ولعل الأقرب إلى جوّ القصة القرآنية، أن الله سبحانه وتعالى أراد إقحام آدم عليه السلام في تجربة واقعية تحدد له المعالم والخطوط العريضة، لما يمكن أن يكون عليه من حياة هنيئة وسعيدة، ولما يمكن أن يصبح عليه من حياة تعيسة ونكدة، وذلك من خلال تجربة العلاقة مع إبليس الذي أريد له أن يرافق مسيرته وبنيه في الأرض في عملية وسواس وتزيين وإضلال، لما من شأن الاستجابة له، والوقوع في فخه، أن يشكلا السبب للوقوع في معصية الله، وولوج دائرة غضبه وسخطه، في حين أن عدم الاستجابة له يشكل سبباً لولوج دائرة رضوان الله تعالى ورحمته. وهكذا تصبح هذه التجربة درساً يستحضره آدم عليه السلام دائماً في حياته ليستقوي به في مواجهة إغواءات إبليس وسواه وبالتالي لنيل رضوان الله تعالى.

ثم ليتعرف بعض الأساليب المنحرفة التي لم يكن له عهد بها من قبل، وهو أسلوب الكذب، بطريقة القسم المغلّظ، من قبل إبليس، وهذا هو ما يوحي به الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية علي بن إبراهيم

---

(١) البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، ط:٤، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ج: ٢، ص: ٥ ـ ٦.

عنه، قال: «لما خرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل، فقال: يا آدم أليس خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وزوجك حوّاء أَمَتَهُ، وأسكنك الجنة وأباحها لك، ونهاك مشافهة أن تأكل من هذه الشجرة، فأكلت منها وعصيت الله؟ فقال آدم: يا جبرئيل إن إبليس حلف لي بالله إنه لي ناصح، فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً»(١).

* * *

قراءة (مَلِكين) بكسر اللاّم

جاء في مجمع البيان: «روي عن يحيى بن أبي كثير أنه قرأ «ملِكين» بكسر اللام، قال الزجاج: قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] يدل على (الملِكين)»(٢). والسؤال هل يكفي ذلك في الدلالة على صحة هذه القراءة؟

والجواب، إنّ ذلك لا يكفي في الدلالة، لاحتمال أن تكون تلك الآية واردة في تأكيد الخلد باعتبار اختزانه لقضية الموقع المميز في الملك بلحاظ أنه من توابعه، مع ملاحظة أخرى، وهي أن كلمة «مِلِكين» بكسر اللام تعني السلطة على مخلوقاتٍ حيّةٍ ومواقع محدّدةٍ، وهذا ليس وارداً في حسابات الجنة، أو في احتمالات آدم في أحلامه المستقبلية التي يحاول إبليس أن يداعب فيها خياله.

وقد ذكر صاحب الميزان أن كلمة «الملَك» ـ بالفتح ـ تختزن معنى المُلك ـ بالضم والسكون ـ مستدلاً بآية سورة طه(٣)، وهو غير واضح. وقد

---

(١) نقلاً عن: تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٦٢.

(٢) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٢٦.

(٣) انظر: تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٣٥.

ورد تأكيد قراءة (الملَكين) ـ بالفتح ـ في رواية ذكرها القمي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام وفي (عيون أخبار الرضا) عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «فجاء إبليس فقال: إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنة أبداً وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنة»[1].

* * *

آدم وحواء ـ معاً ـ في موقع المسؤولية السلبية والإيجابية

جاء في التوراة أن حواء هي أصل الإغواء، وهي التي أغرت آدم بالأكل من الشجرة، وأنها كانت وسيلة الشيطان لإقناع آدم، الأمر الذي يوحي بأن المرأة هي العنصر الإغرائي الذي يستخدمه الشيطان لإغواء الرجل فيكون ضحيةً لها في هذا الجانب.

أمّا القرآن، الذي هو الكتاب المعصوم من التحريف الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، فإنه لا يتحدث عن أيّة حالةٍ سلبيةٍ للمرأة ـ حواء ـ في إغواء الرجل ـ آدم ـ فليست هناك أيّة مشكلة في علاقتهما ببعضهما البعض في حياتهما المشتركة، بل يتحدث عن أن التكليف كان موجهاً إليهما معاً على أساس المسؤولية المستقلة لكل واحدٍ منهما، وإذا كان الخطاب الأول لآدم فقد أضاف إليه زوجه ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وأباح لهما الأكل من حيث شاءا وخاطبهما معاً بالنهي عن الأكل من الشجرة ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وكانت وسوسة الشيطان لهما معاً، فلم يخاطب حوّاء وحدها في

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج: ٢، ص: ١٣.

وسوسته، بل وسوس إليهما معاً ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ فكانا، معاً، ضحية وسوسته وخداعه، وقال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ وحلف لهما معاً بعد أن رأى ترددهما في الاستجابة له، أو هكذا توحي القصة، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾. وهكذا أسقطهما ودلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وشعرا بالخزي والعار أمام هذه المعصية معاً ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وكان النداء لهما معاً من خلال أنّ كل واحد منهما يتحمل المسؤولية في العصيان والاستسلام لخداع الشيطان بشكل مستقلٍّ من دون أيِّ ارتباط بالآخر أو أيّة علاقة له به، ولو كانت المسؤولية لأحدهما، حواء، دون الآخر، آدم، لأمكن له أن يعتذر بخضوعه لزوجه التي استعملت الضغط العاطفي عليه لإسقاطه، تماماً كما يحمّل التابعون المتبوعين تبعة ما فعلوه، ولما شعرا بالموقف الصعب أمام الله، تابا معاً وانقطعا إليه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

وهكذا نجد القرآن لا يحمّل المرأة المسؤولية عن سقوط آدم أمام التجربة، بل يحمِّل المسؤولية للرجل والمرأة على حدّ سواء، للإيحاء العميق بأن للرجل خياره في الطاعة أو المعصية، كما للمرأة خيارها، لأن الله خلق لكل منهما عقلاً يدرك الحسن والقبح، وإرادة تملك الصلابة في الموقف، فهما يقفان على قدم المساواة في خط المسؤولية.

وإذا كان الله قد تحدّث عن آدم في آية أخرى بلفظ المفرد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[طه: ١١٥] فليس ذلك إبعاداً لحوّاء عن المسؤولية، بل هو، بلحاظ بعض المناسبات، تذكير بموقف آدم من حيث هو مظهر الإنسان الذي يخضع لضعفه البشري لا بلحاظ شخصه، والله العالم.

وهكذا ينصف القرآن المرأة ليرتفع بموقعها إلى موقع الرجل ولا يحمّلها مسؤولية إغواء الرجل، كما هو الواقع الخارجي ،فنحن نرى أن الرجل قد يغوي المرأة في بعض الحالات كما أن المرأة تغويه في حالات أخرى.

* * *

إيحاءات كلمة «الشجرة»

ليس هناك برهان ثابت على نوعية هذه الشجرة، فالنصوص المأثورة تذهب في هذا المورد مذاهب شتى، فمنها من يرى أنها شجرة الحنطة أو التفاح، من خلال التفسير المادي لها، ومنها من يرى أنها شجرة الحسد الذي ربما عاشه آدم أمام بعض المخلوقات المقرّبة من الله بدرجة أرقى منه، ممّا جعله يختزن المشاعر المضادّة لها كأيّ حاسد تجاه أيّ محسود، ومنها من يرى أنها شجرة العلم والمعرفة وشجرة الحياة، كما تقول التوراة: إن آدم لم يكن عالماً ولا عارفاً قبل أكله من شجرة العلم والمعرفة، حتى أنه لم يعرف ولم يميّز عريه، وعندما أكل من تلك الشجرة، وصار إنساناً بمعنى الكلمة، طرد من الجنة خشية أن يأكل من شجرة الحياة فيخلد كما الآلهة... هذا في الجانب المعنوي من التفسير.

ولكننا نلاحظ أن قصة الحسد ليست واردة في حسابات آدم الذي لم ينفتح، في ما يبدو، على العنصر الذاتي في شخصيته تجاه الآخر ـ أيّاً كان ـ بل كانت المسألة، من خلال وحي القرآن، مسألة أحلامه الذاتية التي أثارها الشيطان في داخل ذاته مما يتصل بخلوده وارتفاعه إلى عالم الملائكة الذي اطلع عليه في تجربته في بداية خلقه، هذا مع ملاحظة أن الحسد لا يتحرك من الغريزة الذاتية المجردة، بل ينطلق من اصطدام الإنسان بالآخر من خلال

التجربة المعقّدة في الحياة وفي المواقع المميزة التي يملكها هذا الشخص أو ذاك، مما يعطل مصالح بعض من البعض الآخر، أو يتفوق عليه في رغباته الحسية والمعنوية، ولم تكن لآدم تجربة سابقة في ذلك، ولم يعش في أيّ مجتمع ينفتح على مثل هذه الحالة الواقعية التي تؤدي إلى تلك الحالة النفسية.

أما شجرة العلم والمعرفة، فقد حدثنا الله في القرآن أنه منحه علم الأشياء، وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، وربما نستوحي هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، حيث توحي بأن هناك عهداً من الله لآدم في مهمّاته ومسؤولياته مما يدخل في نطاق الوعي المعرفي الذي يطل به على آفاق الحياة، فلم يكن آدم جاهلاً بنفسه أو بموقعه أو بمسؤوليته، ولكنه غفل عن ذلك أو نسيه في غمرة الضعف البشري، ولذلك فقد يكون الأقرب إلى ظهور الآية حمل الكلمة على ظاهرها وهو الشجرة بالمعنى المادي الحسّي، من دون أن ندخل في تحديدها، لأنه ليس دخيلاً في الجانب التفسيري، لأن من الممكن أن يكون المنع متعلقاً بشجرة معينة، لا من جهة خصوصيتها بل من جهة أنها نموذج للممنوع الذي يمثل العنصر المحرّم الذي يواجه الإنسان أمامه مسؤولية الالتزام في قوّة الإرادة، باعتبار أنّ المنع قد يجتذب الرغبة، فيكون الموقف موقف امتحان واختبار لإرادة الالتزام.

* * *

رمزية الشجرة لكل حرام

وعلى ضوء ذلك، قد نستوحي أن الشجرة المحرمة ترمز إلى كل حرام أراد الله للإنسان أن يتركه، فقد أحل الله له الطيبات مما يأكل أو يشرب أو

يتلذذ أو يلبس، وحرّم عليه بعض الأشياء المتصلة بسلامته المادية المعنوية، ولكنه أكل، ولا يزال يأكل، من شجرة الحرام، في الحرام، في حاجاته المتنوعـة، الأمر الذي يعرضه للطرد من الجنة في الآخرة، ومن السعادة في الدنيا، وهذا مما لا بد للإنسان أن يعيه وعياً عميقاً واسعاً منفتحاً على المصالح والمفاسد التي تتصل بحياته من الناحية الإيجابية والسلبية على مستوى الدنيا والآخرة، لأن قضية الخضوع للحسّ في حاجاته ليست قيمةً إنسانيةً، بل القيمة هي حماية الإنسان في إنسانيته المنفتحة على رضوان الله ونعيمه في الدنيا والآخرة، مما يفرض عليه الدخول في عملية مقارنةٍ بين النتائج الإيجابية الحاصلة من الامتناع عن المحرمات والاكتفاء بالمحلّلات، والنتائج السلبية الحاصلة من الإقبال عليها، وهذا هو ما ترمز إليه قصة آدم الذي ترك أشجار الجنة التي تحفل بأفضل المشتهيات وألذّها وأحلاها، واستغرق، بوحي وسوسة إبليس، في هذه الشجرة المحرّمة التي قد لا يكون لها أية ميزة ذاتية.

* * *

إيحاءات ردود فعل آدم وحواء على ظهور سوآتهما

أما مسألة ظهور السوأة لهما، الذي كان هدف إبليس في إيقاظ الجانب الجنسي في إحساسهما من خلال ارتباط الأكل من الشجرة المحرّمة بالوقوع تحت تأثير الضعف الإنساني الغريزي الكامن في الجسد الذي استيقظ في حيويته الفعلية بالتجربة الجديدة، فإنه يوحي بأنّ السقوط في تجربة الاستغراق في الشهوة في جانب، قد يؤدي إلى الوقوع في تجربةٍ ثانيةٍ أو إلى الانفتاح على عالم الشهوات، مما قد يثير في النفس بعض المشاعر والأحاسيس الحميمة الخفية التي قد تعدّ الانسان للوقوع في الحرام.

وربما كان لهذه الحركة الفطرية في إلقاء ورق الجنة على عورتيهما ليخفياهما علاقة بالحس الفطري الذي يختزنه الإنسان في الرغبة في إخفاء العضو الجنسي الذي أراد الله للإنسان أن لا يبديه، وأن لا يمارس حركة حاجاته في العلن.

وقد يكون الرمز الإيحائي في هذه القضية هو أن الإنسان الذي يلجأ إلى تغطية نقاط ضعفه عندما تفرض عليه الظروف أو الأوضاع إظهارها، لأنه يحاول دائماً الظهور أمام الناس بمظهر القويّ الذي يملك عناصر القوة في شخصيته من دون أية حالة ضعف، في حين عليه أن لا يكتفي بإخفاء عناصر ضعفه، بل ينبغي له أو يجب عليه معالجتها وإلغاءها من كيانه وإبعادها عن حياته، لأن الله يريد للإنسان أن يأخذ بأسباب القوة الروحية، كما المادية، في شخصه، ليعيش القوة في وجوده، وليستعين بذلك على الاستقامة في التزاماته العملية من حيث علاقتها بقضية المصير المادي والمعنوي في الدنيا والآخرة.

ولقد كانت محاولة آدم وحواء في تغطية عورتيهما تستهدف إبعاد هذا الإحساس الجنسي عن الحركة الحرّة التي تتمثل في ظهورهما أمام الناظرين، الذي قد يتجه في نهاية المطاف إلى الانحراف، مما يعني بأن على الإنسان أن يقيّد بعض حرياته لمصلحة سلامة حياته في قضاياها القيمية الحيوية.

* * *

تأثير المعصية في آدم وحواء

لقد تحدث آدم وحواء، في ابتهالاتهما إلى الله، عن حالة ابتعادهما عن مصلحتهما في الانسجام مع تعليمات الله الصادرة إليهما، فقد اكتشفا مدى

الضرر الذي ألحقاه بنفسيهما من هذه الاندفاعة اللاشعورية نحو الأكل من الشجرة المحرمة بسبب وساوس الشيطان الذي أخبرهما الله عنه بأنه عدوّ مبين لهما منذ رفض السجود لآدم حسداً وتكبراً وطغياناً، وأعلنا أنهما ظلما نفسيهما وطلبا الرحمة والمغفرة من الله حتى لا تكون الخسارة خسارة الذات في امتدادها في الحياة، بل تكون خسارة الفرصة التي قد تتبدل بالربح في فرصة أخرى.

وقال لهما الله، ولإبليس: إن الأمر قد حُسم في قضاء الله وقدره في هبوط الجميع إلى الأرض، فقد تمت التجربة وأخذ الإنسان الدرس العملي في موقفه من إبليس وعرف كيف يخطط الطريق للعودة إلى الجنة بالفكر والعمل، من خلال نجاحه في الصراع المرير مع الشيطان الذي أعلن عداوته الحاقدة الحاسدة منذ البداية لإبعاده عن الله وعن الدخول في الجنة من جديد، فما دام الله قد حرمه منها بسبب آدم، فليكن الحرمان شاملاً لآدم وذريته بما يخطط من وسائل ومكائد ووساوس وخداع، وهكذا أراد الله لهم جميعاً أن يهبطوا إلى الأرض ليعيش الإنسان الصراع المرير مع عدوه إبليس الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وذلك بأن يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم إلا غروراً. وتبقى الأرض مستقرهم الطبيعي الذي خلقوا له وأريد لهم أن يتمتعوا فيها إلى يوم القيامة في رحلة الحياة والموت والبعث.

وقال لهم الله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

● □ ● □ ●

الآيـــات

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ
ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ
يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾
وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ
بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ
وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَنزَلۡنَا﴾: خلقنا، باعتبار أن الله سبحانه أنزل الأشياء بالخلق إلى عالم الشهادة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿لِبَاسًا﴾: اللِّباس: كل ما يصلح للبس من ثوبٍ أو غيره، من نحو الدرع، وما يغشى به البيت من نطعٍ أو كسوةٍ.

﴿وَرِيشًا﴾: الريش والأثاث: متاع البيت من فراشٍ أو دثارٍ. وقيل: الريش ما فيه الجمال ومنه ريش الطائر... قال الزجّاج: الريش كل ما يستر الرجل في جسمه ومعيشته، يقال: تريّش فلان أي صار له ما يعيش به، وتقول العرب: أعطيته رجلاً بريشه أي بكسوته، وقال أبو عبيدة: الريش والرياش ما ظهر من اللباس(١).

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: اللباس المعنوي الذي يستر العيوب والأخطاء ونقاط الضعف الإنساني، الذي يمثل الحالة الروحية والفكرية التي يشعر معها الإنسان بضبط حركة غرائزه وشهواته ومطامحه ومطامعه، وجعلت التقوى لباساً من طريق التمثيل والتشبيه لأنها تقي الإنسان وتعصمه.

﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: الفتنة: الابتلاء والاختبار والامتحان. يقال: فَتَنْتُ الذهب بالنار إذا امتحنته.

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: القبيل: الجماعة من قبائل شتّى، فإذا كانوا من أب واحد وأم واحدة فهم قبيلة.

﴿فَٰحِشَةً﴾: معصية كبيرة، وفعلة متناهية في القبح.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أصل القسط العدل؛ فإذا كان إلى جهة الحقّ فهو عدل؛ وإذا كان إلى جهة الباطل فهو جور.

* * *

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٣١.

القرآن يحذر بني آدم ويوجّههم

انتهت قصة إبليس مع آدم، واستطاع آدم بعد نزوله إلى الأرض أن يعي تماماً معنى الدور الشيطاني لإبليس في الإضلال والإغواء، من موقع العقدة المستحكمة في نفسه ضدّه، وأن يحفظ نفسه منه، فلم يحدّثنا الله عن خطأٍ آخر في مخالفة أوامره ونواهيه، بل الظاهر أنه استمر في الخط المستقيم الذي ترتبط فيه كل ممارسات حياته وتطلعاتها بالله، بعيداً عن وساوس الشيطان وأضاليله... وجاء دور إبليس مع بني آدم، فقد عاش من أجل أن يضلّهم ويغويَهم ويقودهم إلى عذاب السعير، ولم يكن لهم معه تجربةٌ حسيةٌ، كتجربة آدم الذي كان قد رآه وشاهد كيف تحركت عقدة الكبرياء في نفسه ضدّه، في موقفٍ استعلائي حاقدٍ، رافضٍ لإرادة الله في ما يختلف عن مزاجه في هذا السبيل؛ وليس لهم مجال ليشاهدوه وجهاً لوجهٍ، ليعرفوا كيف يتحرك في حياتهم من موقع التجربة الحسية الواضحة، فأراد الله لهم أن يأخذوا من تجربة أبيهم آدم درساً للمستقبل، وخطّاً للسير في طريقة تعاملهم معه، وحذرهم منه، ودعاهم إلى محاربته، من أجل تحقيق الحماية لأنفسهم من ضلاله وكفره.... فكانت الآيات القرآنية التي تشرح لهم كيف يتصرفون معه، وكيف يواجهون مخطّطاته، ليكونوا على وعيٍ دائمٍ، ليحفظوا أنفسهم من المصير المحتوم الذي يريد أن يقودهم إليه في عذاب الله وعقابه...

* * *

لباس التقوى خيرٌ

وجاءت هذه الآيات التي تبدأ النداءات بكلمة ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للإيحاء إليهم بالتجربة الحيّة التي عاشها آدم مع إبليس، لئلاّ يكون التفكير في المسألة في المطلق، بل يكون من موقع التاريخ الحي. وقد استوحت الآيات قصة العري الذي شعر به آدم بسبب معصيته، في حالةٍ من الإحساس بالخزي

والعار، لتوجه بنيه إلى النعمة التي أنعم الله بها عليهم، في ما خلق لهم من اللبّاس الذي يصنعونه من أصواف الأنعام وأوبارها وشعورها، وفي ما رزقهم من الريش الذي يمثّل ما كان فاخراً من اللباس والأثاث ليتزينوا به أو يلبسوا منه، ليشكروا الله على ذلك، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾. ولكن الله يريد أن يوجههم إلى أن القضية التي ينبغي أن تُلحّ عليهم ليست اللباس الذي يستر عوراتهم، لأن ذلك لا يمثل إلا جانباً محدوداً من جوانب حياتهم التي تتعلق بحماية ما يريد الإنسان أن يحمي منه جسده، بحيث لا يريد للناس أن ينظروا إليه، بل ينبغي لهم أن يوجِّهوا اهتمامهم إلى اللباس المعنوي الذي يستر عيوبهم وأخطاءهم، وهو لباس التقوى الذي يمثل الحالة الروحية والفكرية التي يشعر الإنسان معها بالحاجة إلى أن يضبط حركة غرائزه وشهواته، ومطامحه ومطامعه، في الاتجاه السليم الذي ينسجم مع إرادة الله في أوامره ونواهيه... على أساس محبة الله وخوفه، اللذين تخضع لهما هذه الحالة الداخلية. وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ لأن قيمة هذا اللباس، أنه يرتبط بمسألة المصير في الدنيا والآخرة في ما يواجهه الإنسان من نتائج إيجابية في حركة حياته، في التزاماته الشخصية أو العائلية أو الاجتماعية أو السياسية، أو في الخط الفكري الذي يحكم مسيرة حياته... وبذلك يكون فقدانه فقداناً لذلك كله، كما يكون سبباً للشعور العميق الساحق بالخزي والعار أمام الله، عندما يقف الإنسان بين يديه، عارياً لا تستره أيّة فضيلةٍ، ولا يحميه من عقابه أيّ شيء... ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي ينبغي للناس أن يتأملوا فيها ويدرسوها، ليعرفوا من خلالها عظمة الخلق وقيمة النعمة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، فتقودهم الذكرى إلى الوقوف الواعي أمام أوامر الله ونواهيه بكل قوةٍ وإيمان، كما تقودهم إلى الابتعاد عن حبائل الشيطان وخداعه وغروره...

* * *

تحذير عام لبني آدم من إبليس

وفي النداء الثاني تذكيرٌ وتحذيرٌ لبني آدم، فإنّ عليهم أن يتذكّروا أن إبليس قد أخرج أبويهم من الجنة، وأن يتعرّفوا كيف توصّل إلى ذلك، وماذا أوحى إليهما من أفكار، وما هي أساليب الوسوسة التي أثارت في داخلهما المشاعر الّتي هيّأتهما للتحرك في اتجاه تحقيق ما أراده منهما... كما أنّ عليهم أن يحذروا من فتنته الشيطانية التي يحاول من خلالها أن يثير فيهم الأفكار والأجواء المنحرفة عن خط الله، ويوسوس لهم في همساتٍ حميمةٍ خفية، ليزين لهم معصية الله، كما لو كانت حلماً من الأحلام، أو لوناً من ألوان السحر، ليعيش الإنسان معها في أجواء سحرية ضبابية غامضةٍ، ليسهل انجذابه إلى النار التي يحترق فيها إيمانه وفكره، تماماً كما هي الفراشة التي تجذبها أشواق اللهيب إلى النار.

وبذلك لا تكون الذكرى شيئاً من التاريخ، بل حركة وعي، ودرس إيمان، وسبيل حرية... يفهم الناس من خلالها دورهم في الحياة، ومسؤوليتهم في بناء كيانها على أساس إرادة الله، ويعرفون كيف ينتبهون إلى إيمانهم ليعمّقوه في داخلهم، ليحرّك فيهم اليقظة الدائمة التي ترصد كل حركة داخليّة محمومةٍ في مشاعرهم، وكل فكرةٍ خارجيةٍ منحرفةٍ تتسرب إلى أفكارهم، لتبتعد بهم عن الله، ويواجهون ـ في مواجهتهم للشيطان ـ قضية التحرر منه، كما لو كانت قضيةً من قضايا الحرية في الحياة. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيقودكم إلى السبل التي تفتنكم وتقودكم إلى السير في طرق الكفر والضلال والعصيان... ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، بما أوحى إليهما من وسائل خداعه وغروره وفتنته.

﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الذي يستر عورتيهما في ما ألقى الله عليهما من ألوان الستر، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ وليعيشا الإحساس بالخزي والعار. ولا بد

لكم من اليقظة الروحية الدائمة، والوعي المنفتح المستمر، والرصد المتتابع المتحرّك لكل كلمةٍ، أو همسةٍ، أو فكرةٍ، أو عاطفةٍ، أو علاقةٍ، أو عملٍ، أو شهوة، أو طموح... لأنه يحاول الاختباء في كل واحدةٍ من هذه ليشوّه فيها جمال الطهر، ونقاء الروح، واستقامة الطريق... لا بد من التحرك على كل الصعد، وبكل الوسائل التي وهبها الله للإنسان من عقلٍ وإرادة وإيمان... لأنكم تخوضون المعركة في داخل نفوسكم وخارجها ضد عدوٍّ لا تعرفونه بالحسّ، ولا تعرفون أعوانه وجنوده، إلا بما يعرّفكم الله من وسائله ومخططاته، بينما يراكم هو وقبيله، بكل ما تعيشونه من أفكار ومشاعر، وبكل ما يحيط بكم من قضايا وأوضاع...

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فأنتم مكشوفون أمامهم، أما هم فليسوا مكشوفين لكم. ولكنّ الله يحفظ المؤمنين من الشياطين، من خلال ما يلهمهم من أسباب الخير ويوفقهم إليه من وسائل الهداية، إذ يرعى برعايته عباده المؤمنين الذين يتحركون في الحياة تبعاً لمرضاته، فهو وليهم الذي يؤيدهم ويرعاهم... أما الذين لا يؤمنون به ولا يسيرون في طريقه، فإن الشياطين هم أولياؤهم. ولا معنى لولاية الشيطان إلا الإمعان بعيداً في الخداع والغرور الذي يقود الإنسان إلى الهلاك المحتوم... ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وليس معنى نسبة الجعل إلى الله أنه أمر جبرٍ يفقدون معه الإرادة في ما كوّنه الله فيهم من هذه الولاية التي تربطهم بالشيطان أو تربطه بهم؛ بل هو أمرٌ اختياريٌّ، أوكله الله للإنسان الذي يختار لنفسه طريق السير مع الشيطان، فتكون النتيجة الطبيعية حصول هذه الولاية بينه وبينه، انطلاقاً من ارتباط المسبّب بالسبب، فالله خلق السببيّة في طبيعة الأشياء، أمّا الأسباب فهي بيد الإنسان، وبذلك يمكن نسبة الفعل إلى الله من جهةٍ، كما يمكن نسبته إلى الإنسان من جهةٍ أخرى، كما فصّلنا ذلك في أكثر من موضع في هذا التفسير.

* * *

لا يأمر الله إلا بالقسط

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ أي معصيةً، في ما تمثله من تجاوز الحدود المعقولة الشرعية التي فرضها الله للأشياء، وقد غلبت على الأفعال المتعلقة بالجنس أو القريبة منه، ولكن الظاهر شمولها في هذه الآية لكل عملٍ يخالف فيه الإنسان ربّه، مما تدفعه إليه وسوسة الشيطان، سواءٌ منه ما يتعلق بانحراف في المنهج، أو في الممارسة. ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وهذا هو المنهج الخطأ الذي قد يوجّه الشيطانُ الإنسان إليه، ليربطه بالخط الفكري أو العملي الذي سار عليه الآباء، في ما يدينون به من دينٍ، وما يحملونه من فكر، وما يرتبطون به من علاقاتٍ، وما يقومون به من أعمال... على أساس الحالة العاطفية التي تدفع الإنسان إلى احترام كل ما يتصل بآبائه وأجداده، وإلى التنكر لكل ما يبعده عن ذلك... وفي هذا الجو، كان هؤلاء الذين عاشوا ولاية الشيطان في حياتهم، يبرّرون فعلهم للفاحشة بأن ذلك هو عادة الآباء، كما لو كان ذلك شيئاً مقدّساً لا مجال للاعتراض عليه.

وربما كانوا يشعرون بأن ذلك غير مقنعٍ لدى بعض الناس الذين يرون أن الأمر الإلهي هو الذي يمكن أن يبرر للإنسان ما يعمله، فحاولوا أن يربطوا أعمالهم بالله فقالوا: ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ولكن الله يردّ على هذا الزعم، بأنه لا يمكن أن يأمر بالفحشاء، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فكيف تنسبون إليه ذلك، من دون حجةٍ؟! ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟! وتلك جريمة كبيرة، في ما تؤدي إليه من تزييف الحقيقة الإلهية، في العقيدة أو التشريع، مما يقود إلى الاجتراء على الله من جهةٍ، وإلى تزييف الصورة الحقيقية للمسار الإنساني في خط الايمان من جهةٍ أخرى.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذه هي الصورة المشرقة لأجواء الأوامر الإلهية، التي يمكن للإنسان أن يأخذ منها الفكرة الصحيحة، في التمييز بين ما أمر الله

به وما لم يأمر به، مما قد ينسبه إليه بعض المنحرفين الكاذبين. إن الله يأمر بالعدل الذي يمثّل خط التوازن في الحياة، سواءٌ منه ما يتعلق بحقوق الناس، أو بقضايا الحياة الأخرى... في ما يقوله الإنسان أو يفعله، مما نستطيع من خلاله أن نميز الحق من الباطل في مختلف مفردات حياتنا ووجودنا.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وهذا هو الخط الذي يريد الله للإنسان أن يسير عليه، ليتوازن في خط الإيمان بالله.. أن يقيم الإنسان وجهه لله، في ما عبر عنه بقوله: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ بكل ما يمثله المسجد من أجواء العبادة، فيتجه إليه في كل أموره، فهو مقصده وغايته في جميع المجالات، فمنه ومن وحيه تبدأ كل انطلاقاته، وإليه وإلى غاياته تنتهي كل خطواته... فلا يتصور الوجود إلا من خلاله، إذ لا وجود إلا له، وكل مظاهر الوجود ظلال لحقيقة وجوده... وذلك هو معنى الإيمان الرحب المنفتح على الله في كل الآفاق، المتحرك معه في كل السُّبل.

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا تدعوا غيره، ولا تشركوا به أحداً، فله الدعاء وإليه المشتكى وعليه المعوّل في الشدّة والرخاء... فالجأوا إليه في كل أموركم وتعبّدوا له بإخلاص الدين له، حتى يكون الدين كله له في فكركم وشعوركم وخطوات حياتكم... في الخط والمنهج والممارسة... فليس لكم أن تتّبعوا غير منهجه، أو تسيروا في غير طريقه، أو تتّخذوا وليّاً غيره... وذلك هو خط التوحيد وخط الإخلاص، ومعنى الدين الحق.

* * *

كما بدأكم تعودون

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فليست الحياة التي تعيشونها مجرد ذرّة ضائعةٍ في

الفراغ، أو فقّاعةٍ تنتفخ ثم تنفجر لتتحول إلى لا شيء، ولكنها البداية التي تعتبر النقطة الأولى في حركة المسؤولية التي تنطلق وتتوهّج لتنتظر نتائجها، بعد هدأةٍ قصيرة تغفو فيها الحياة على ذراع الموت، لتعود من جديد في مواجهة النتائج بين يدي الله... فلا تعتبروا الموت نهاية الحياة، بل انتظروا ـ من خلاله ـ رحلة العودة إلى الحياة من جديد، في أجواء متنوعة الألوان والأشكال والآفاق، تبعاً لتنوع الأفكار والمواقف والأعمال... إنها اللمحة الموحية التي تريد للإنسان أن لا يستسلم للخدر الذي توحي به الغفلة المطبقة على فكره وشعوره، لتبعده عن التفكير الواعي في ما يجب أن يواجهه في مستقبله الأخروي من نتائج المسؤولية في إيجابياتها وسلبياتها، على أساس حركة الحياة في هذا الاتجاه المسؤول، في انفتاح رحلة البداية على رحلة العودة. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فكيف تتصرفون في ذلك؟ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ في ما أعطاه الله من وسائل الهداية من عقلٍ ووحيٍ وإرادةٍ، وحسٍّ يتصل بالعالم من خلاله، ليستمدَّ من ذلك المواد الخام للمعرفة... فاستفاد منها في تعميق إيمانه بالله، وهدايته لدينه، وتلك هي الأسباب الطبيعية التي جعلها الله سبحانه أساساً لهداية الإنسان على طريق الاختيار، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي ثبت عليهم هذا الخط وتأكّد في ما اختاروه لأنفسهم من وسائل تبعدهم عن أجواء الهدى، وتقربهم من أجواء الضلال. فان الإنسان إذا انطلق في هذا الاتجاه كانت الضلالة أمراً طبيعياً في حياته. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ فساروا معهم في ما شقوه لهم من طريق، وانجذبوا إليهم في ما زينوه لهم من أعمال، وانتصروا بهم في ما واجهوه من مواقف... وخرجوا من ولاية الله، وتحركوا بعيداً عن طاعته ومنهجه في الحياة، فضلّوا وضاعوا في متاهات الطريق. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، لأنهم لم يتعرفوا الخط الفاصل بين الهدى والضلال، ليحدّدوا لأنفسهم الهوية الحقيقيّة للمسار وللمصير.

* * *

كلمة في التقوى

لقد عبّر الله عن التقوى أنها «لباس»، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، لأن هذا المفهوم القرآني لا يمثّل حالة نفسية في حالة الخوف الذي يصيب الإنسان مما يخافه ويحذره، بل هو حالةٌ عقليةٌ وشعوريةٌ وحركية تشمل الكيان الإنساني بكله في مواجهته لكل الأشياء المؤذية المضرّة له في مواقع مصيره في الدنيا والآخرة، ليخطط بفكره، ولينفتح بإحساسه، وليتحرك بوسائله الجسدية وغيرها، من أجل حماية نفسه من ذلك، تماماً كما هي مسألة حماية الحياة مما يضرّها أو يقضي عليها.

وهذا هو الذي تحدّث عنه علماء اللغة، فقد جاء في مفردات الراغب قال: «التقوى جعل النفس في وقايةٍ مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمّى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه، والمقتضي بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور»[(١)].

وعلى ضوء هذا، فإن التقوى تمثل فعلاً إنسانياً في حماية الخط الإيماني من عوامل الانحراف، ووقاية المصير من أسباب الهلاك، وبذلك فإن التقوى تمثل حماية الإنسان نفسه من غضب الله بالابتعاد عن مواقع سخطه وبالانفتاح على مواقع رضاه، لأن الإيمان بالله في مقام ربوبيته وآفاق عظمته وموارد نعمته، تفرض عليه الإحساس بمسؤوليته عن الأخذ بطاعة ربه والبعد عن معصيته، والقيام بحق الله في ما ينبغي له من ذلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بحيث يعيش الإنسان حقيقة التقوى في خطوطها الفكرية

---

(١) مفردات الراغب، ص: ٥٦٨.

والعملية من خلال إرادته واختياره؛ فإن الفكر لا يمكن ان يخضع لضغط يحدد له كيف يفكر، ولكنه ينفتح، في دائرة إحساسه بالمسؤولية على أفق يوحي إليه بذلك كله.

* * *

التقوى حالةٌ شاملةٌ لكلّ الأوضاع الإنسانية

وهكذا تنطلق التقوى لتتنوّع في أبعاد حياة الإنسان ليكون تقياً في طعامه وشرابه، فلا يأكل ولا يشرب إلا حلالاً، وفي شهواته ولهوه ولعبه، فلا يأخذ بالحرام من ذلك، وفي علاقاته الاجتماعية، فلا يتحرك بالفتنة والفساد والانحراف الذي يمزق المجتمع ويفسده وينحرف به عن خط السلامة العامة في أوضاعه وروابطه واتجاهاته، وفي حركته السياسية، فلا يتحرك إلاّ بما يقوي العدل ويؤكد الحق، ويدعم الحرية الإنسانية، ويحمي المصير.

وهكذا تتحول التقوى من حالة خوفٍ سلبيٍّ إلى عمل وقائي إيجابيّ، ومن حركةٍ في الشكل إلى حركة في المضمون.

* * *

التقوى عمقٌ فكريٌ وروحيٌ في الإنسان

وهذا ما جاءت الرواية به عن مفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فذكرنا الأعمال فقلت أنا: ما أضعف عملي، فقال مَهْ، استغفر الله، ثم قال لي: إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير العمل بلا تقوى. قلت: كيف يكون كثير بلا تقوى؟ قال: نعم، مثل الرجل يطعم طعامه ويرفق جيرانه ويوطىء رحله، فإذا ارتفع له الباب من الحرام دخل فيه، فهذا العمل

تقوى، ويكون الآخر ليس عنده فإذا ارتفع له الباب من الحرام لم يدخل فيه(١).

فهذا الحديث يوحي بأن مسألة التقوى ليست مسألة استهلاك للعمل من دون وعيٍ وعمقٍ في القاعدة الفكرية الروحية للإنسان، بل هي مسألة عمق فكري روحيّ يكمن في الذات ليملك الإنسان نفسه أمام عناصر الانحراف التي تجتذب عناصر الضعف فيه لتنحرف به عن الخط المستقيم، الأمر الذي يجعل القضية مرتبطة بالنوعية لا بالكمية. وقد جاء في حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: لا يقلّ عملٌ مع تقوى، وكيف يقلّ ما يتقبل(٢). وهكذا نفهم كيف تعطي التقوى للعمل حجمه وحيويته وحركته في رضوان الله، فيتقبله الله فيكون كثيراً في نتائجه، وهو القليل في حجم العدد.

وتبقى مسألة التقوى في مسؤولية الإنسان خاضعة لقدرته ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ لأن الله يريد للإنسان جهده، فلا يكلفه ما لا يطيق، فعليه أن يحرك التقوى في مدى استطاعته في إيحاء خفيٍّ بأن الاستطاعة معنى متحرّك في تنمية الإنسان لقدرته تبعاً لطموحاته الفكرية والروحية والعملية في التنمية الذاتية، في وجوده في العرض والطول، والكمية والنوعية.

وتتحول التقوى في وجدان الإنسان إلى وعي الكلمات الرسالية التي إذا سمعها المتقون، المفتوحة قلوبهم على كلمات الله، كانت هدى لهم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢] وإذا اكتست مضموناً وعظياً يحرك مشاعر الإحساس ونبضات القلوب كانت موعظة لهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٦٤] وإذا انطلقت لتخرج الإنسان من غفلته كانت ذكراً لهم ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

---

(١) الكافي، ج:٢، ص: ٧٦، رواية: ٧.
(٢) (م.ن)، ج: ٢، ص: ٧٥، رواية: ٥.

[الأنبياء: ٢١] أما غير المتقين، فقد أغلقت قلوبهم عن الوعي والشعور والإحساس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

* * *

سمات المتقين

وينطلق القرآن، في اتجاه الحديث عن ملامح المتّقين في حركة الالتزام العمليّ، فهم لا يطوفون مع الشيطان إذا طاف بهم، بل يبتعدون عنه ليتذكّروا ربهم ومصيرهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]، فيبصرون بالعيون الروحية المفتوحة النور النازل عليهم من وحي الله.

وهم الذين يعيشون العطاء كقيمةٍ ممتدة في جوانب حياتهم في السرّاء والضرّاء، لا كحالةٍ سريعةٍ خاضعةٍ لظروفٍ طارئةٍ، وهم الذين يحبسون غيظهم بالروح الرضيّة التي لا ترى في تفجير الغيظ متنفساً للعقدة الحادة الكامنة في نفوسهم، لأنهم لا يعتبرون العلاقة بالإنسان الآخر في سلبياته الموجهة إليهم عقدةً تفصلهم عنه، بل يعتبرونها مشكلة تدفع العقل إلى التفكير بحل، وهم الذين يتابعون التفكير في أشد حالات الغيظ ليفكروا بالله الذي يقول لهم ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٧] وليدققوا في نتائج الموقف، فيصلوا إلى النتيجة الأخلاقية الحاسمة، وهي المبادرة بالعفو، لأنه الشكر العملي لله في القدرة على هذا الإنسان المسيء، وهم الذين يبدلون السيئة بالحسنة، لأن ذلك هو مظهر القيمة الاخلاقية بالإحسان إلى من أساء إليك، المعبّرة عن عمق القيمة الروحية في الذات التي لا تبحث عن ردة الفعل على فعل الآخر، بل تبحث عن رضوان الله، وهذا هو قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وهم الذين يبادرون إلى الاستغفار من الذنب إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بالانحراف عن خطّ الطاعة لله، لأنهم يعرفون أن الله يغفر الذنوب كلها إذا عرف من عباده صدق النية في التوبة والإخلاص له وعدم الإصرار على الذنب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، فلم يتركوا أيّة مفردةٍ من مفردات الإيمان إلا وآمنوا بها والتزموها في وجدانهم العقيدي. وهم الذين يؤتون المال، سواء حباً لله تعالى، أو على حبهم له ـ أي للمال ـ بحيث يكون بذله تضحية بهذا الحب، وذلك لكل الذين يمثلون مصاديق حب الله تعالى في الإنفاق من الفئات المحرومة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وفي تحرير الرقاب من العبودية. وهم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهودهم في التزاماتهم التعاقدية، وعهودهم الاجتماعية. وهم الصابرون في حالة الشدة والرخاء وفي حالة الحرب. وهم الصادقون في إيمانهم، وفي نياتهم، وفي كلماتهم، وفي مواقفهم، وكل أوضاعهم مع أنفسهم، ومع الله، ومع الناس، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ

بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وتبقى للتقوى نتائجها في السماع للموعظة والإنذار من خلال حسّ المسؤولية في ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾[المائدة: ١٠٨]، وفي إصلاح ذات البين وإطاعة الله ورسوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. وفي الوقوف مع الصادقين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩]، لأن مسألة التقوى تفرض على المؤمن أن يتخذ الموقف المنسجم مع المجتمع الإيماني المتميّز بالصدق في حركة الصادقين مع الله ومع أنفسهم ومع الناس، فإن ذلك هو الذي يعبّر عن إخلاص المؤمن لقيمة الصدق في الحياة، وفي القول السديد الذي يمثل الكلام الذي يتميز بالمضمون الحق المتوازن في معناه، وفي حركة الإنسان المرتكزة على الصواب الذي لا باطل فيه ولا خطأ في واقعه، ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٧٠]. وفي إطاعة القيادة الشرعية واتباعها في الاستجابة لله وللرسول، والامتناع عن إطاعة غيرها ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء ١٠٧ ـ ١٠٨]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥١]، وفي العفو عن المسيء ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وفي العدل مع الأعداء ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وفي تعظيم شعائر الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]، وفي التناجي بالبر والتقوى ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[المجادلة: ٩]، وفي ابتغاء الوسيلة إلى الله للحصول على رضوانه بالاقتراب من طاعته بالوسائل التي يحبها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

* * *

القلق الإيجابي رفيق التقوى

إن روحيّة التقوى في الإنسان تفرض عليه أن يكون في حالة قلقٍ دائمٍ لاكتشاف كل الوسائل التي تؤدي به إلى الله في مسؤولياته العامة والخاصة، لأن حركة الإنسان نحو أهدافه مرتبطة ـ في توازنها ـ بالوسائل المنسجمة مع الأهداف، وفي الانفتاح على حساب الأعمال التي يقدمها الإنسان بين يديه يوم القيامة في الموقف بين يدي الله، وعلى الاستعداد لما يستقبل من أيامه في تأكيد أعماله المستقبلية في خطّ التقوى ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، وفي الموقف الذي يرفض الاستعلاء على الآخرين في إحساس مَرَضِيٍّ بالعلو الذاتي والكبرياء الشخصي عليهم، كما يرفض الفساد، فإن ذلك هو المظهر الحي للتقوى، الذي يمنح المتقين العاقبة الحسنة في الدار الآخرة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وفي امتداد الصداقة القائمة على التقوى من الدنيا إلى الآخرة، بينما تتحول الصداقات إلى عداوات في العلاقات القائمة على المصالح الذاتية والأطماع الخاصة، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

* * *

خير الزاد التقوى

وتبقى التقوى خير الزاد للآخرين ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وهي خير لباس للإنسان الذي لا بد له أن يفاضل بين لباس الجسد ولباس العقل والروح والسلوك، لأن لباس الجسد قد يتّصل بحمايته من الحرّ والبرد، ولكن لباس القيمة الروحية يمثّل الحماية من كلّ ما يؤذي قضيّة المصير، ومن كل ما يسيء إلى أصالة إنسانية الإنسان ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وتبرز التقوى في القرآن كأساسٍ للكرامة وللقيمة عند الله، فالناس متساوون في الخلق مختلفون في الخصائص التي أرادها الله وسيلة للتعارف من خلال تفاعل الخصائص وتبادل الخبرات من دون تفاضل، ولكنّ التفاضل عند الله هو في التقوى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

الحصاد الإلهي للتقوى

وأمّا نتائج التقوى للمتقين ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٢] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥]، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وهكذا نجد أن التقوى تختصر الدين كله، لأن الدين يمثل تقوى الفكر والعاطفة والحركة والموقف والموقع والعلاقات والتطلّعات والوسائل والغايات، وهذا هو الذي يجمع معنى الدين في عقيدته وشريعته ومنهجه، ولذلك كانت عنوان دعوات الأنبياء، بحيث اختصرت الدعوات بكلمة «اتقوا الله»، وهذا ما عبرت عنه الآيات التالية كنموذج متنوع للأنبياء في دعوتهم الناس إلى الله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧].

* * *

التقوى انفتاح عقلي وروحي وعملي على الله تعالى

وتبقى التقوى عقلاً وروحاً وقلباً وحركة وحياة تتجه إلى الله في خوف من الحساب على أساس العدل، وفي حبٍّ له على أساس الربوبية الخالقة المنعمة الراحمة في كل آفاق العظمة اللامحدودة، ولهذا فإنها لا تمثّل انسحاقاً إنسانياً يسقط الإنسان معها تحت تأثير الخوف المذعور، بل ارتفاعاً بالإنسانية نحو العقل المسؤول، والحركة المسؤولة التي تنطلق من خلال الإرادة الواعية القوية التي تقي صاحبها من السقوط تحت تأثير نقاط الضعف الإنساني في سلبياته التي تتحدّى سلامة المصير.

* * *

الآيات والتفسير الروائي، عرضٌ ومناقشة

ورد في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ* فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ قال: «خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً، وكذلك يعودون يوم القيامة مهتدياً وضالاً»[(١)].

قال علي بن إبراهيم: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الشقي من شقِيَ في بطن أمّه، والسعيد من سعد في بطن أمّه»[(٢)].

وقد ذكروا أن أبا الجارود مطعونٌ فيه، ولكنهم قبلوا ما رواه عن أبي جعفر حال استقامته قبل انحرافه عنه إلى الزيدية.

ونلاحظ أن هذا اللّون من الروايات مما لا يمكن الأخذ بظاهره، لأنه يوحي بأن إيمان الإنسان وكفره أو سعادته وشقاوته ناشئان من طبيعة الخلق، مما يجعل النهاية كالبداية، باعتبار توقف مختلف هذه الموارد على طبيعة عنصر الخلق، فيكون الفعل مظهراً لما في الذات، لا منطلقاً من الاختيار الناتج عن التربية، ممّا يجعل مسألة التعليم والتربية وحركة الرسالات في الهداية والإنذار والتبشير لا معنى لها، وهذا ممّا لا يتفق مع العقل في حركته الفكرية وفي بناء العقلاء، في أمورهم الجارية على واقعية الإرادة الإنسانية والتوجيه العام، في بناء الشخصية في عناصرها الإيجابية والسلبية.

لذلك لا بد من توجيه أمثال هذه الرواية، على تقدير صدورها، بأن المراد منها الحديث عن التنوّع الإنساني في النتائج العملية لحركة الإنسان في

(١) نقلاً عن: تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) (م.ن)، ج: ٨، ص: ٩٧.

مواجهة الرسالات، فهناك الإنسان الذي هداه الله بهدايته من خلال أخذه بأسبابها التي وضعها بين يديه وزاده هدى بعد أن اختار ذلك، وهناك الإنسان الذي رفض السير في خط الهداية، واندفع في متاهات الضلال فثبتت عليه الضلالة من خلال توفر أسبابها الإرادية الطبيعية، مما يجعل التعبير جارياً على مستوى النتائج لا على مستوى المقدمات، بمعنى أنه ليس المراد منه أن الله خلقه مهدياً، أو فُرضت عليه الضلالة بالتكوين، بل إن المراد منه، على الظاهر السياقي، هو أن الناس فريقان، فهناك الذي هداه الله، على النسق الذي تنتسب فيه الأفعال إليه، فلا يمنع أن يكون ذلك بأسبابه الاختيارية، ولعل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يوحي بذلك، باعتبار دلالته على ارتباط الضلالة بإرادتهم، أما قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فالظّاهر أنّ المراد منها الحديث عن البعث الذي تلتقي فيه النهاية بالبداية على أسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وليس المراد منها ـ والله العالم ـ مصيرهم في مسألة الإيجاد والبعث، فلا بد لهم من التفكير بالموقف عند العودة إليه للحساب، ليستعدوا له بإقامة وجوههم عند كل مسجد والابتهال إليه بالدعاء بإخلاص الدين له، والله العالم.

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن
تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

* * *

معاني المفردات

﴿زِينَتَكُمۡ﴾: ما يُتَزيَّن به من اللباس والطِّيب ووسائل التجمُّل، للظهور بالمنظر الجميل الطيّب الذي يمثّل لوناً من ألوان الشكل الحضاري للإنسان المسلم.

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: لا تتجاوزوا الحدّ في الإنفاق.

﴿حَرَّمَ﴾: التحريم: هو المنع من الفعل بإقامة الدليل على وجوب تجنّبه؛ وضدّه التحليل، وهو الإطلاق في الفعل بالبيان على جواز تناوله.

وأصل التحريم المنع، من قولهم: حرَّم فلانٌ الرزق حرماناً فهو محروم، وأحرم بالحج، وحرمة الرجل زوجته، والحرمات الجنايات، والمحرم القرابة التي لا يحل تزوجها، وحريم الدار ما كان من حقوقها.

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾: ما يستمتع به الناس من ألوان الزينة التي لا تسيء إلى طبيعة الإنسان.

﴿خَالِصَةً﴾: قال الراغب في المفردات: الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه... ويقال: هذا خالص وخالصة نحو داهية وراوية[١].

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: واحدها فاحشة، وهي الخصلة التي يقبح فعلها لدى أرباب الفِطَر السليمة والعقول الراجحة، ويطلقونها أحياناً على الزنى والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهي في القبح.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾: في الأصل القبيح الضّار، وهو شاملٌ لجميع المعاصي، كبائرها كالفواحش، وصغائرها كالنظر بالشهوة لغير الحليلة، وكلّ ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وسقوط منزلته ويمنعه من الوصول إلى الثواب والأجر الحسن، وقال الراغب: الإثم والآثام: اسم للأفعال المبطِئة عن الثواب، وجمعه آثام، ولتضمّنه معنى البطء قال الشاعر:

جُمـاليّـة تغتلـي بـالـرَّوادفِ إذا كَـذَبَ الآثمـاتُ الهجيـرا

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أيّ في تناولهما إبطاءٌ عن الخيرات[٢]. وفي ضوء ذلك، يتضمّن الإثم معنى الضرر الذي يبطىء بالإنسان عن الخير وهو المنفعة لحياته، ولعلّ هذا هو الأساس في إطلاق كلمة الإثم على الخمر للمفاسد الناتجة عنه، وربما غلب عليه ذلك بلحاظ استعماله فيه

---

(١) مفردات الراغب، ص: ١٥٥.

(٢) (م.ن)، ص: ٥.

بهذه المناسبة.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾: تجاوز الحد، بالاستطالة على الناس، وحدّه، كما في مجمع البيان، طلب الترؤس بالقهر من غير حق، وأصله: الطلب[١].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: السلطان: الحجّة. قال في المجمع: السلطان والبرهان والبيان والفرقان نظائر، وحدودها تختلف، فالبيان إظهار المعنى للنفس كإظهار نقيضه، والبرهان إظهار صحة المعنى وإفساد نقيضه، والفرقان إظهار تميز المعنى مما التبس به، والسلطان: إظهار ما يتسلّط به على نقيض المعنى بالإبطال[٢].

* * *

مناسبة النزول

جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ بإسناده عن ابن عباس «قال: كان ناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراةً، حتى أن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة، فتعلّق على سفلاها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجوه الحمر من الذباب وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه ... وما بدا منه فلا أحلّه

فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأمروا بلبس الثياب»[٣].

* * *

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٣٩.

(٢) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦٤٠.

(٣) الواحدي، أبو الحسن، علي بن أحمد، أسباب النزول، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م، ص: ١٢٥.

مع العلامة الطباطبائي حول مناسبة النزول

وقد علّق العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان على هذه الرواية وأمثالها قال: «لكنك قد عرفت أن الآيات المصدّرة بقوله: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أحكام وشرائع عامة لجميع بني آدم من غير أن يختصَّ بأمّة دون أمّة، فهذه الآحاد من الأخبار لا تزيد على اجتهاد من المنقول عنهم لا حجية فيها. وأعدل الروايات في هذا المعنى الروايتان الآتيتان»(١).

فقد جاء في الدر المنثور: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ قال: «كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيّد البزّ والمتاع»(٢).

وفيه: «أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون أشياء أحلّها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ [يونس: ٥٩]، وهو هذا، فأنزل الله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا، فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء»(٣).

من ثم يعلّق صاحب الميزان بقوله: «أقول: والروايتان، كما ترى، ظاهرتان في التطبيق دون سبب النزول والمعوّل على ذلك»(٤).

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٨٨.
(٢) الدر المنثور، ج: ٣، ص: ٤٣٩.
(٣) (م.ن)، ج: ٣، ص: ٤٤٦ ـ ٤٤٧.
(٤) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٨٩.

ونحن، في الوقت الذي نتفق فيه مع العلاّمة الطباطبائي في تحفّظاته على رواية سبب النزول، وفي موافقته على الروايتين المذكورتين أعلاه واعتبارهما من روايات التطبيق على الآية، لا نتفق معه في تفسير ذلك بأن الآية المصدّرة بقوله: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لا تختص بأمة دون أمّة، لأن ذلك لا يتنافى مع انطلاق الآية الشاملة من مناسبةٍ خاصة لتكون المنطلق للخطاب الشامل، كما هو الحال في كل روايات أسباب النزول، ولكننا في الوقت نفسه، لا نجد أيّة مناسبة بين القصة المذكورة وسياق الآية الواردة في الحديث عن البرنامج العملي للإنسان في المظهر الاجتماعي، في حياتهم في المساجد، فيأخذون بزينتهم التي تمثل المظهر اللائق بهم من حيث التمييز بين ما يكون زينة وما لا يكون كذلك، من دون أن يظهر منها الحديث عن الثوب في مقابل العري، فلا علاقة لها، حسب ظاهر السياق، بالحادثة المذكورة، لا سيما إذا كانت الآية لا تقتصر على ذلك بل تمتد إلى نظام الأكل والشرب، لتتحدث بعد ذلك الآية التالية لها عن القاعدة العامة التي أراد الله للإنسان المؤمن أن يتحرك فيها في حياته في الأخذ بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ليجعلها الله خالصة له يوم القيامة، ممّا يجعل الأمر متنوعاً في عناصره وليس وارداً في أمثال حالةٍ معينةٍ في خط الروايات الواردة في سبب النزول، وهذا هو الذي يؤيّد الرأي القائل إن الكثير من مواردها جارٍ على سبيل الاجتهاد لا الرواية.

* * *

المنهج الإلهي في توجيه حياة الإنسان

هذا هو النداء الثالث الذي يريد الله أن يوجه به الإنسان إلى منهجه ليمارس ـ من خلاله ـ حياته، في ما يحتاجه جسده من أكل وشرب ولباسٍ وزينةٍ... ليقف من ذلك كله في نقطة التوازن، فلا يتعقد من حاجات الحياة

الطبيعية، فيعتبرها قذراً وخباثةً وحراماً... من موقع الفكرة التي ترفض ماديات الحياة جملةً وتفصيلاً، وتدعو إلى السموّ نحو روحياتها... ولا ينجذب إلى هذه الحاجات فيعتبرها قيمةً وطموحاً وهدفاً، بل يقف بين هذا وذاك، فيراها حاجةً طبيعية يحفظ بها جسده، ويصون بها حياته، فيمارسها في نطاق الحدود التي فرضها الله ورسمها لعباده، فيميز بين ما يفسد الحياة من حوله فيتركه، وبين ما يصلحها أو لا يسيء إليها فيفعله، وذلك هو خط هذه الآيات.

* * *

الله جميل يحب الجمال

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ إنّ الله جميل يحبّ الجمال والتجمُّل، ويبغض البؤس والتباؤس، وإن الله إذا أنعم على عبد بنعمةٍ أحب أن يرى أثر نعمته عنده. هكذا جاء في الكلمات المأثورة عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام، وروي عن «خيثمة بن أبي خيثمة قال: كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا بن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله تعالى جميل يحبّ الجمال فأتجمَّل لربي، وهو يقول: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، فأحب أن ألبس أجود ثيابي»[١] استيحاءً من هذه الآية التي توجه الناس إلى أن يأخذوا زينتهم من اللباس والطيب ووسائل التجمُّل... في كل مسجد، وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس للصلاة، حيث يمثل الاجتماع فيه مظهراً من مظاهر حياة المسلمين الاجتماعية؛ لذا أراد الله لهم أن يخرجوا إليه بزينتهم، وبشكل جميل طيب يعكس المظهر الحضاري للإنسان المسلم مقابل مظاهر التخلف التي كانت

---

(١) تفسير البرهان، ج: ٢، ص: ١٠.

سائدة لدى المجتمع الجاهلي من العري والقذارة والرائحة غير الطيّبة، وما إلى ذلك مما يريد الإسلام إبعاد الإنسان عنه، لا سيما داخل الحياة الاجتماعية التي لا يكون مظهره شأناً شخصياً له، بل شأناً عاماً يمس ذوق الآخرين في ما يحبونه ويألفونه وفي ما لا يحبونه ولا يألفونه، فيكون في ذلك إحسانٌ لهم في مجالٍ، أو إساءةٌ لهم في مجال آخر. وفي ضوء ذلك، نستطيع اعتبار أن المسألة تتعدى الاجتماع في المسجد إلى كل مكانٍ يجتمع فيه الناس، على أساس أن الخصوصية ليست للمكان، بل هي للأجواء التي تهيمن على المكان.

وقد وردت الروايات المتعددة التي تتحدث عن تطبيق مضمون الآية على العيدين والجمعة ويوم عرفة، كما وردت في الحديث عن التمشط والاغتسال والتطيب.

وقد امتدّ الاستيحاء للآية في معنى الجمال والتجمّل إلى ما يشمل النظافة والطيب وجمال البناء ونحو ذلك، فقد جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إن الله يحب الجمال والتجمل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإن الله إذا أنعم على عبده بنعمةٍ أحبّ أن يرى عليه أثرها، قال: قيل: كيف ذلك؟ قال: ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصص داره، ويكنس أفنيته، حتى أن السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق»[1].

«وفي حديث آخر عنه قال: أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً شعثاً شعر رأسه وسخة ثيابه، سيئة حاله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من الدين المتعة»[2].

وهكذا نفهم من هذه الأحاديث أن مسألة التزيّن هي مسألة تتصل

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط: ٦، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م، ج: ٣، ص: ٣٤١، باب: ١، رواية: ٩.

(٢) الكافي، ج: ٦، ص: ٤٣٩، رواية: ٥.

بالجانب الجمالي للمظهر الإنساني في إظهار نفسه وبيته بالطريقة التي تمثّل الجمال في الثياب والطيب والشكل الهندسي للبيت، وللشارع، خلافاً للفكرة التي توحي بأن التدين يفرض على الإنسان الخروج بالخلق من الثياب والفوضى في الشكل والهيئة كمظهر من مظاهر الزهد الخارجي، فإن الزهد ليس في الشكل وإنما في المضمون النفسي الذي يرفض الارتباط بالدنيا بالمستوى الذي تضغط فيه على مبادئه ومواقفه في الحياة لتقدم التنازل من دينه لمصلحة دنياه.

* * *

التوازن في الإسلام قانون الحياة

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾.. فالله أراد للإنسان أن يأكل لأن الأكل حاجة طبيعية للجسد ليستمر في قوّته التي تمده بالحياة، وأراد له أن يشرب للسبب نفسه. وإذا كان الأكل والشرب مطلوبين من موقع الحاجة، فمن الطبيعي أن تتقدر الحاجة بالمقدار الذي يحقق الاكتفاء للجسد، لأن الزيادة عنه تثقل الجسد بما لا يحتاجه فيسيء إلى توازنه وقوّته. ولهذا جاء النهي عن الإسراف في الأكل والشرب مراعاةً لجانب السلامة في حياة الإنسان، وللحصول على رضا الله ومحبّته، لأن الله لا يحب للإنسان أن يتجاوز الحدود الطبيعية لحاجاته في الحياة، بل يريد له أن يكون متوازناً في كل شيء، مما يجعل من الالتزام بذلك عملاً دينياً يقربه إلى الله، والعكس صحيح، لأن الإنسان ملك الله، فلا يحب أن يتصرف أحد في ملكه بما يسيء إليه، سواءٌ في ذلك ما يتعلق بنفسه أو بالآخرين. وهنا يكمن الفرق بين المبادىء الوضعية وبين التشريع الديني، فإن تلك المبادىء تترك للإنسان الحرية في ممارسة حياته الخاصة بقطع النظر عن نوعيّة الممارسة، بينما يؤكّد التشريع الديني على ضرورة تقييد هذه الحرية، لمصلحة حياة الإنسان وحمايته من نفسه.

* * *

القصد أمرٌ يحبه الله

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهذه قاعدةٌ عامةٌ تتجاوز مورد الآية إلى غيرها من التصرفات المالية والعملية التي تعرّض الإنسان للإسراف، وتضعه وجهاً لوجه أمام التزامه بالاعتدال من أجل الحصول على رضا الله، بينما يكون الإسراف سبباً في فقدانه لمحبة الله سبحانه. وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس في ما أصلح البدن إسراف، إنما الإسراف في ما أفسد المال وأضرّ بالبدن»[(١)].

وفي حديثٍ آخر ـ مما رواه سليمان بن صالح ـ قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أدنى ما نهي عن حد الإسراف؟ فقال: إبذالك ثوب صونك، وإهراقك فضل إنائك، وأكلك التمر، ورميك النوى ههنا وههنا»[(٢)].

وروي عنه أنه قال: «إن القصد أمر يحبه الله وإن السرف أمرٌ يبغضه الله، حتى طرحك النواة، فإنها تصلح للشيء، وحتى صبّك فضل شرابك[(٣)].

ونستوحي من ذلك توجيه الفرد المسلم والمجتمع المسلم إلى أن لا يطرح شيئاً مما يمكن الانتفاع به، بل يعمل على الاحتفاظ به من أجل الانتفاع به على المستوى الفردي والاجتماعي، فليس للإنسان أن يهرق المال من دون حاجة، أو يطرح النواة من دون منفعة، فلا بد له من الاحتفاظ بكل الأشياء النافعة في ذاتها من أجل تحويلها إلى طاقةٍ مفيدة في إنتاج عناصرها الكامنة فيها لمصلحة الحاجات العامة والخاصة.

وقد روي، تعليقاً على الآية ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ «أن الرشيد كان له طبيب نصرانيٌّ حاذقٌ، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في

---

(١) تفسير البرهان، ج: ٢، ص: ١٠.
(٢) الكافي، ج: ٤، ص: ٥٢، رواية: ٢.
(٣) (م.ن)، ج: ٢، ص: ١٠.

كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان! فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، وهو قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وجمع نبينا ﷺ الطب في قوله: المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، وأعطِ كل بدن ما عوّدته، فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبّاً»[١].

* * *

الزهد في كلمتين

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ في ما يستمتع به الناس من ألوان الزينة التي لا تسيء إلى طبيعة الاعتدال لدى الإنسان... ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ في ما يستلّذونه ويشتهونه مما يؤكل ويُشرب. وينطلق التساؤل هنا في معرض الإنكار على هؤلاء الذين أرادوا للإنسان أن يترك زينة الحياة وطيّباتها تحت تأثير الفكرة التي ترفض الإقبال على الماديات من الأطعمة والأشربة وغيرها، على أساس الفهم الخاطىء لمعنى الزهد دينياً، فهو الذي يتمثل لديهم في السلوك السلبي للإنسان ضد الطيّبات من الرزق، والتزين في اللباس، وذلك لأن الزهد لا ينطلق من هذا المعنى، بل من الحالة النفسية التي تحسّ بالاكتفاء، وتشعر بالحرية أمام كل حالات الإلحاح الذاتي على ممارسة الإنسان لمطامعه وشهواته، كما ورد في كلمة الإمام علي عليه السلام: الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[٢] [الحديد: ٢٣].

وقد جاء بإسناده عن ابن القداح الكافي، قال: «كان أبو عبد الله، جعفر

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٣٨.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم/ ٤٣٩، ص: ٤١٦.

الصادق عليه السلام ، متكئاً عليّ ـ أو قال على أبي ـ فلقيه عبّاد بن كثير البصري وعليه ثياب مرويّة حسان، فقال: يا أبا عبد الله، إنك من أهل بيت النبوّة وكان أبوك وكان، فما هذه الثياب المرويّة عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب. فقال له أبو عبد الله عليه السلام : ويلك يا عبّاد، من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، إن الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه»[1].

وجاء فيه عن العباس بن هلال الشامي مولى أبي الحسن «علي الرضا عليه السلام » قال: «قلت له: جعلت فداك ما أعجب إلى الناس من يأكل الجشب ويلبس الخشن ويتخشع؟ فقال: أما علمت أن يوسف عليه السلام نبيّ ابن نبيّ كان يلبس أقبية الديباج مزرورةً بالذهب ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه، وإنما يحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق وإذا وعد أنجز وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرم طعاماً ولا شراباً من حلال، وإنما حرّم الحرام قل أو كثر، وقد قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾»[2].

* * *

القيمة للروح لا للشكل

وهكذا نفهم من أجواء الآية التي استوحاها الأئمة من أهل البيت عليهم السلام أن الإسلام لا يقتصر في نظرته إلى الحياة على الجانب العبادي من سلوك الإنسان فيها، بل يمتدّ إلى الجانب الحسّي الذي يتمثل في الزينة الظاهرة، مما يلبسه ويتجمل فيه ويظهر به للناس من الثياب الجيّدة، وفي الأكل الطيّب والشراب الطيب، بحيث يمارس الحياة بشكل طبيعي في حاجاته بعيداً عن

---

(١) الكافي، ج: ٦، ص: ٤٤٣، رواية: ١٣.

(٢) (م.ن)، ج: ٦، ص: ٤٥٣، رواية: ٥.

الرفض العملي، لأن القيمة ليست في الممارسة، بل في الروح التي يختزنها الإنسان المؤمن في نظرته إلى الدنيا، بحيث لا يسقط روحياً أمام حاجاته الضاغطة عليه لمصلحة مواقعه وامتيازاته فيها.

وفي هذا الجو، ينطلق المسؤولون في مسؤولياتهم العامة، من دون خداع الناس بالجانب المظهري الذي يتمظهرون فيه بالزهد الشكلي ليجتذبوا الناس إليهم من خلال الشفقة التي يحصلون عليها من خلال ذلك، لأن التوجيه الاسلامي يربط الناس بالمسؤولين من خلال صدقهم في الكلمة وفي الوعد والعهد وعدلهم في الحكم وإخلاصهم لله في حركة المسؤولية، كما جاء في حديث الإمام الرضا عليه السلام. وربما كانت إيحاءات هذه الآية في الإنكار على من حرّم زينه الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، أنها تنفتح على المزيد من التخطيط للشكل الحضاري والتطور الإنساني في الحياة المدنية، التي تضع في حساباتها تطوير الواقع المدني للإنسان والحاجات الحيوية الحسية له من دون أية عقدة دينية في هذا الجانب ،فيمكن للقائمين على شؤون الإسلام والمسلمين أن يعملوا في خطة تصاعديةٍ للسير بالواقع الإسلامي في حركة التطور في جميع الأوضاع المتحركة في الحاجات العامة.

* * *

المؤمن أولى بنعم الله

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأطاعوا الله، وحصلوا على رضاه ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم من الكافرين، كما شاركوهم بها في الدنيا. وربما كان المراد أنها للمؤمنين في حياتهم الدنيا، قد منّ الله عليهم بها ليستمتعوا، فليس لهم أن يمنعوا أنفسهم منها تحت تأثير أية فكرة توحي لهم بالتحريم، فإن الله لم يبحها للكافرين ليحرّمها على المؤمنين، بل هم أحق

بها لأنهم أولياء الله وأحباؤه، أمّا في يوم القيامة فهي خالصة لهم، لأن نعيم الآخرة هو نعيم الثواب الذي لا يستحقّه إلا المؤمنون، وبهذا تكون كلمة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من متعلقات الفعل المقدر بعد كلمة «هي»، أي كائنة في الحياة الدنيا، لا من متعلقات كلمة ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ والله العالم.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ليعرفهم الخط العملي في الحياة، حتى لا تختلط عليهم الأمور، وتشتبه لديهم المفاهيم، في ما يقبلونه ويرفضونه، على أساس الفلسفات المنحرفة التي تأتيهم من هنا وهناك.

* * *

الأشياء التي حرمها الله

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فالله لم يحرم حاجات الحياة الطبيعية التي تبني الجسد وتريحه، بل حرّم الأشياء التي تسيء إلى سلامة الروح، وصفاء الفطرة، ونظام الحياة... فليست المسألة عنده أنه يريد أن يحرم عباده من متع الحياة ولذاتها، بل كل ما يريده، أن يمنع عنهم ما يكدّر هذه المتع ويشوّه جمالاتها... فما الأشياء التي حرّمها؟ لننظر إلى هذه الأمور التي ذكرها في الآية كنموذج. فقد ﴿حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، وهي المعاصي التي تبلغ الحد الكبير من القبح والإنكار في حياة الناس، كالزنى واللواط ونحوهما... ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي ما أعلن، كما في نصب الرايات التي كانت ترفعها اللواتي يؤتين الفاحشة في الجاهلية، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وهي العلاقات المحرمة التي كانت تأخذ طابع السرية، أو التي كانت تأخذ صفة الشرعية دون أساس، كنكاح الأبناء زوجات آبائهم من غير أمهاتهم... فقد اعتبره الله فاحشةً محرّمة، مما بطن من الفواحش. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ وهو الفعل الذي يكتسب الإنسان به الانحطاط في أخلاقه، والهوان والسقوط في حياته، كشرب الخمر

الذي يسيء إلى عقله وماله وجاهه وعرضه. . . و ﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ وهو العدوان على الآخرين في الممارسات التي لا حقّ للإنسان بها، كما في ألوان الظلم والتعدي على الناس في الاستيلاء على أموالهم وأعراضهم وحياتهم. . . ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأن التصرّفات المماثلة لتلك التصرفات إذا كانت على أساس الحق كالمعاملة بالمثل في ما يجوز فيه ذلك لا تكون بغياً، ولا تُعتبر حراماً.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ وهذا من محرّمات العقيدة، على أساس أنها من الأفكار التي لا ترتكز على حجةٍ، وهذا هو المراد من قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾، لأن الله لا يحاسب الإنسان على الأفكار التي يملك حجة عليها، بل يحاسبه على الأفكار التي لا يملك أساساً فكرياً لها، كما في الشرك الذي لم ينطلق من قاعدةٍ فكريةٍ، بل من خيالات وأوهام لا ترتكز على أساسٍ معقول. . . ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فتنسبون إليه ما لم يقله ولم يشرعه من أفعالٍ وأوضاع، في ما تتحدثون عنه من تحريم هذا أو تحليل ذاك، من غير علم في ما جعله الله من مصادر العلم من وحيٍ أو كلام نبي أو نحو ذلك. . .

هذه بعض نماذج الأفعال التي حرمها الله، وهي لا تتضمن تقييداً لطموحات الإنسان وتضييقاً لحياته، بل كل ما هنالك أنها تحدد له المسار الفكري والعملي في ما يصلح أمره ويرفع مستواه. وفي ضوء ذلك، يمكن للإنسان أن يعرف طبيعة التحليل والتحريم في الإسلام، ليميز بذلك حق التحريم والتحليل من باطله.

* * *

المقصود بالظاهر والباطن من الفواحش

جاء في الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن

سعيد عن أبي وهب، عن محمد بن منصور قال: «سألت عبداً صالحاً، عن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال: فقال: إن القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرّم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحلّ الله تعالى في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق[١].

وقد فسّر ذلك صاحب الميزان بقوله: «أقول: انطباق المعاصي والمحرّمات على أولئك، والمحلّلات على هؤلاء، لكون كل واحدٍ من الطائفتين سبباً للتقرب من الله أو البعد عنه، أو لكون اتباع كلٍّ سبباً لما يناسبه من الأعمال»[٢].

ولنا ملاحظة على ذلك، أن الحديث ليس وارداً في مقام تطبيق الآية بحسب معناها الظاهر على أئمة الجور وأئمة الحق، بل هو وارد في مجال بيان وجود معنى باطني للقرآن، بحيث يكون مراداً منه على النحو الذي يراد منه المعنى الظاهر، فلا ينسجم مع ما ذكره العلاّمة الطباطبائي قدس سره.

ثم نتساءل بعد ذلك، أولاً: عن المراد من المعنى الباطن، هل هو المعنى الذي يستبطنه اللفظ في عمقه، وهذا غير مفهوم، لأن اللفظ لا يستبطن إلا معناه اللغوي الموضوع له أو المنقول إليه، فليس له معنيان في الأصل ظاهر وباطن.

أو هو المعنى الإيحائي الذي يستوحيه القارىء من الأفعال التي يحبها الله من الحلال أو يبغضها من الحرام، فينتقل من ذلك إلى الأشخاص الذين يحبهم الله، لأنهم يقودون الناس إلى حلاله ويبعدونهم عن حرامه، وإلى الأشخاص الذين يبغضهم الله، لأنهم يقودون الناس إلى الحرام ويبعدونهم عن

(١) الكافي: ج: ١، ص: ٣٧٤، رواية: ١٠.
(٢) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٩٦.

الحلال، وذلك من خلال أن الله عندما يتحدث عن الحلال والحرام في كتابه فإنه يريد للحلال أن يتحول إلى واقع في حياة الإنسان، وللحرام أن يبتعد عن الواقع الإنساني، ولا بد لهذا وذاك من قيادة شرعية أو غير شرعية، لتنال رضا الله ـ في هذا الموقع ـ من خلال التزامها بما يرضاه، أو لتنال غضب الله ـ في ذلك الموقع ـ من خلال حركتها نحو ما يغضبه، ولعل هذا هو الأقرب إلى الجوّ العام للحديث وللآية.

وثانياً: ما هي علاقة الآية بأن للقرآن ظهراً وبطناً ـ كما في الرواية الموافقة لهذه الرواية التي ورد فيها أن القرآن ظهر وبطن؟ فإن الآية تتحدث عن الفواحش الظاهرة والباطنة من الأفعال الإنسانية، وقد فسّرت الباطنة ـ في روايات أخرى ـ بأن المراد مما بطن «ما نكح من أزواج الآباء، لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمّه، فحرّم الله عز وجل ذلك»[(١)]. وجاء في الدر المنثور: «أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، وابن مردويه عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أَغْيَرُ من سعد، والله أَغْيَرُ مني، ومن أجله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله»[(٢)]، فان الظاهر من هذه الرواية وأمثالها أن المراد من قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الأفعال المحرّمة غير المعروفة لدى الناس في سلوكهم العام، لا المعنى الباطني على خلاف ظاهر الآية، فلا بد من رد علمها إلى أهلها.

●□●□●

(١) تفسير البرهان، ج: ٢ ص: ١٣.
(٢) الدر المنثور، م: ٣، ص: ٤٤٧.

الآيـــة

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أُمَّةٍ﴾: الأمة الجماعة التي يعمّها معنى، وأصلها من أمّه يؤمه إذا قصده، فالأمّة الجماعة التي على مقصد واحد.

﴿أَجَلٌ﴾: وقت مضروب لانقضاء المهل، لأن بين العقد الأول الذي يضرب لنفس الأجل وبين الوقت الآخر مهلاً، مثل أجل الدين وأجل الرزق وأجل الوعد وأجل العمر.

* * *

لكل أمة أجل

لقد حدّد الله للجماعات الإنسانية، التي تتخذ لنفسها صفاتٍ معينةً تستمدها من النسب والأرض وغيرهما، أجلاً لا تعدوه، فليس هناك خلودٌ لأحد، ليأخذ امتداده وحريته في ما يريد أو لا يريد، بعيداً عن إرادة الله في ما يأمر به أو ينهى عنه... ولهذا الأجل أسبابه الطبيعية، في ما أودعه الله في الإنسان من إمكانات محدودة لاستمرار الحياة، وما خلقه في الكون المحيط به، من أوضاع وأسباب تقف بالحياة عند حدٍّ معيّن. وتلك هي سنّة الله في الحياة التي لا تجد لها تحويلاً أو تبديلاً. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ محدود، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الذي حدّده الله من خلال تحديد الأسباب الطبيعيّة لذلك، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عما أجّل الله لهم، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ساعة عن ذلك، وقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قال: هو الذي يسمّى ملك الموت[١].

وهكذا ينبغي لكل أمةٍ أن لا تعتبر نفسها كل الحياة، بل هي مرحلة من مراحلها في عملية النمو والتطور، فليس لها أن تأخذ كل الأدوار، لأنها لا تستطيع ذلك، بل تأخذ لنفسها الدور الذي يعيش في نطاق المرحلة المحدودة، لتأخذ الحياة حركتها الطبيعية في سلّم التدرّج والتنامي والامتداد.

* * *

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٩٦.

عمر الأمة الحضاري

وقد نستوحي من هذه الآية كيف تتمثل الحياة في عمر الأمّة الحضاري، من خلال ما تمثّله المجموعة من العناصر المشتركة في الثقافة والاجتماع والسياسة والعلاقات الإنسانية والأمن والاقتصاد، مما يدخل في عملية التوازن الإنساني الذي يتكامل فيه الأفراد ليعطي كل واحد منها شيئاً من طاقته المميزة لتلتقي الطاقات في حركة تكامل وتعارف وتمازج، ليدخل ذلك كله في جسم الأمّة في المعنى التوحيدي الذي يوحد بين أفرادها، لأن الأمة في معنى الجماعة، ليست وجوداً مميزاً عن الأفراد لتكون شخصية معينة متميزة، بل هي الأفراد الذين ينضمّون إلى بعضهم البعض في مشروعٍ واحدٍ وخطة موحّدة، وطاقاتٍ متفاعلةٍ متداخلةٍ تنتج طاقة واحدة للأمة.

ويبقى هذا العمر قوياً شاباً منفتحاً حيويّاً حتى تتغير الخصائص الحية، لتموت في عملية تحلّلٍ وانكفاءٍ وابتعادٍ عن الخط المتوازن، وهذا هو الذي أثارته الآية القرآنية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات المتحدثة عن عملية الموت الحضاري للأمة من خلال التغير الفكري والسلوك المنحرف والفساد المتنوع والبعد عن خط التقوى، مما يجعل الإنسان صانع التغيير في الجانب الإيجابي والسلبي، بحيث يمثل ذلك السّنة التاريخية التي أودعها الله في الواقع الإنساني الاجتماعي من موقع إرادته واختياره لا من موقع الحتمية التاريخية الخارجة

عن قدرة الإنسان الحركية. وبعبارة موجزة، إن السنّة التاريخية لا تخضع دائماً للعناصر الخارجة عن قدرة الإنسان، بل إنها قد تخضع للإرادة الإنسانية في حركة الفكر والعمل، فالاختيار الإنساني جزء من السنة وليس نتيجة لها، فإذا أحسن الاختيار كان للأمة شبابها وحيويتها وامتدادها في العمر الحضاري، وإذا أساء ذلك، كان سبباً للمرض الروحي والمعنوي والمادي الذي يعجل في الموت ويبلغ بها نهاية الأجل.

إن نهاية الأجل للأمة كنهاية الأجل للفرد، خاضعة للعوامل الداخلية والخارجية المتحركة في عناصر الضعف والقوّة في الذات، إنها حركة منفتحة على المستقبل متصلة بالماضي والحاضر في عملية مراوحةٍ بين الظروف التي يصنعها الإنسان والظروف المحيطة به من الخارج.

وليس من الضروري أن يكون الموت الذي يمثل عملية سقوط حضاري للأمة حتمياً، بل هو إراديّ في خط الوعي السلبي والإيجابي للفكر وللحركة والامتداد، وهذا هو الذي يلتقي بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فإنها تعني التجدد والحركة من خلال الأسباب الطبيعية الإنسانية وليست شيئاً لا مفر منه من خلال نظرية حتمية السقوط. وهذا هو الذي تلتقي فيه الآية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بالآية الأخرى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن عملية التداول لا تبتعد عن مواقع الاختيار، بل تتحرك معها ومع العناصر الأخرى المتصلة بالنظام الكوني؛ والله العالم.

● □ ● □ ●

الآيتـــان

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

* * *

النداء الأخير للناس لاتباع الرسل

وهذا هو النداء الرابع الحاسم في دعوة الناس إلى اتّباع الرسل الذين يبعثهم الله ليقصّوا عليهم آياته، بما تدلُّ عليه من عظمة الإبداع في خلقه، لتقودهم إلى التأمل بها والتفكير فيها، وبما تذكرهم به من نعم الله التي تتصل بوجودهم وبامتداده، بالمستوى الذي يجعل منها رحلةً طيبةً رائعةً في مسيرة الكون، وبما تخطط لهم من المنهج الفكري والعملي الذي يقودهم إلى الخط السليم في التفكير والصراط المستقيم في العمل، وبما توجّههم إليه من أساليب وأهداف في نطاق الحياة كلها، كموقع ينطلق فيه الإنسان إلى الآخرة عبر مسيرته المسؤولة في الدنيا. وعلى ضوء هذا، فإن هؤلاء الرسل جاؤوا ليقصّوا علينا هذه الآيات الإلّهية، من أجل وعيٍ إيمانيٍّ منفتحٍ، وعملٍ تقوائيٍّ

صالحٍ متحرّكٍ، لنواجه النتائج الإيجابية في أجواء التقوى، والنتائج السلبية في أجواءٍ الكفر والاستكبار... وتلك هي قصة الرسالات مع الناس في حركة البداية والنهاية.

* * *

وجوب اتباع الرسل والتقيد بتعاليمهم

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من عند ربكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ التي تهديكم سواء السبيل، وتقودكم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وتنذركم عذاب النار، وتبشركم بنعيم الجنة، تبعاً لأعمالكم الخيّرة أو الشريرة... فاتّبعوها وسيروا على الخط الذي تقودكم إليه، أو واجهوا النتائج السلبيّة. ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ ووعى موقفه من الله، خائفاً مقام ربه، وناهياً النفس عن الهوى، مصلحاً أمره في فكره وعمله، ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من عذاب الله في جهنم، لأن الله قد أعطى المؤمنين الصالحين الأمن من كل خوف ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ في ما يواجه الناس من أهوال يوم القيامة؛ فإن الله قد منحهم الفرح الكبير في ما يستقبلهم من لطفه ومغفرته ورضوانه في جنات النعيم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد أن أقام الله عليهم الحجة، بما قدمه لهم من براهين، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ فلم يخضعوا للحقيقة الإلّهية التي تمثلها آياته، كما هو شأن الكثيرين من الناس الذين يمتنعون عن الخضوع للحقائق الفكرية والعملية، لا لوجود شبهةٍ تمنعهم من الرؤية الواضحة، بل لعقدة الكبرياء الذاتي الذي يمنع الإنسان من إجراء أية عملية تغييرية لأسلوبه في التفكير أو طريقته في العمل، أو لقناعاته المتوارثة، تماماً ككل المستكبرين على أكثر من مستوى عندما يستسلمون للعقدة الاستعلائية المرضيّة المستحكمة فيهم، من أجل الحصول على امتيازاتٍ لا يستحقونها، أو الوصول إلى مواقع لا

يملكونها، ولا حجّة لهم في ما يحاولون، ولا عذر لهم في ما يستكبرون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فذلك هو جزاء الطغيان والاستكبار والتمرد على الله وعلى رسالاته ورسله.

* * *

ملاحظتان حول الآيتين

الملاحظة الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ فقد حاول البعض أن يستوحي منها نفي خاتمية الرسالة، لأنها تتحدث عن المستقبل الذي يأتي فيه ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ ممّا يدل على أن هناك رسلاً بعد النبي يحملون رسالة الله، ولكن هذا ظاهر البطلان، فإن الخطاب لبني آدم، وليس للمؤمنين، فهو شامل للناس جميعاً على نطاق الخطاب الذي وجهه لآدم وزوجته عند إنزالهما إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]. وهو خطاب يعم جميع المكلفين من بني آدم، من جاءه الرسول منهم ومن جاز أن يأتيه الرسول ـ كما في مجمع البيان[١].

الملاحظة الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فقد جاء في مجمع البيان في تفسيره: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ في الآخرة[٢].

وقد لاحظ بعض المفسرين أن الخوف والحزن المنفيين هما في الدنيا لا في الآخرة، ولذلك فإن المؤمنين يعيشون الطمأنينة والاستقرار النفسي والأمن

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٤١.

(٢) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦٤١.

الروحي، فلا خوف من المستقبل ولا حزن على ما مضى.

ونلاحظ على هذا الرأي، أن تأثير الإيمان بالله والثقة به في ابتعاد المؤمن عن أجواء الخوف والحزن في الدنيا يمثل الحقيقة الإيمانية، وذلك من خلال الإحساس بالحضور الإلّهي في حياته بالدرجة التي يتحسس فيها رعايته وحمايته وإشرافه عليه، كما جاء في قول الله تعالى، ممّا قصه من حكاية النبي محمد ﷺ ليلة الهجرة: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] فقد كان النبي يعيش السكينة الروحية في قلبه، وأراد لصاحبه أن لا يشعر بالحزن في الموقف الصعب، وممّا قصّه الله على المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥]، فقد أراد الله للمؤمنين أن لا يخافوا من الشيطان في الدنيا، لأنه ـ تعالى ـ هو الذي يمنحهم الأمن الروحي الذي يشعرون معه بالسكينة النفسية.

إننا لا نمانع من هذا التأثير الروحي للإيمان على النفس المؤمنة بما يفيضه الله عليها من ذلك، ولكن سياق الآية وأمثالها وارد في الحديث عن موقف المؤمن في الآخرة، بقرينة مقابلتها بالآية الأخرى المتحدثة عن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها بأن جزاءهم النار، كما هو الحال في آية البقرة المتقدمة، مما يوحي بأن الآيتين معاً واردتان في سياق الحديث عن جزاء الإيمان والكفر في يوم القيامة؛ والله العالم.

● □ ● □ ●

الآيـــات

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ
نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ
أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ
فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ
ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى
صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يَنَالُهُمْ﴾: النيل: وصول النفع إلى الإنسان إذا أطلق، فإن قيّد وقع على الضرر، لأن أصله الوصول إلى الشيء، من: نلت أنال نيلاً.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: التوفّي: قبض الشيء بتمامه، يقال: توفيته واستوفيته، والمراد به هنا الموت.

﴿خَلَتْ﴾: الخلوّ: انتفاء الشيء عن مكانه، يقال: خلا عن البيت، وكذلك خلت بمعنى مضت، لأنها إذا مضت بالهلاك فقد خلا مكانها منها.

﴿الْجِنِّ﴾: قال في مجمع البيان: الجن جنس من الحيوان مستترون عن أعين الناس لرقّتهم، يغلب عليهم التمرّد في أفعالهم كما يغلب على الملك أفعال الخير[١].

﴿ادَّارَكُوا﴾: أصله: تداركوا، ومعناه تلاحقوا واجتمعوا وأدرك بعضهم بعضاً.

﴿أُخْرَاهُمْ﴾: اللاحقون مرتبةً أو زماناً من التابعين.

﴿لِأُولَاهُمْ﴾: المتّبعون من رؤسائهم وأئمتهم أو من الأجيال السابقة عليهم الذي مهدوا لهم طريق الضلال.

﴿ضِعْفًا﴾: الضعف المثل الزائد على مثله، فإذا قال القائل: أضعف هذا الدرهم، فمعناه اجعل معه درهماً آخر لا ديناراً، وكذلك إذا قال: أُضْعُف الاثنين، فمعناه اجعلهما أربعة. وحكي أن المضعّف في كلام العرب ما كان ضعفين والمضاعف ما كان أكثر من ذلك.

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٤٣.

﴿ سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾: ثقب الإبرة. والسَمّ ـ بفتح السين وضمها ـ الثقب، ومنه السمّ القاتل لأنه ينفذ بلطف في مسام البدن حتى يصل إلى القلب فينقض بنيته. وكل ثقب في البدن لطيف فهو سُم وسَمّ وجمعه: سموم. والخياط والمخيط: الإبرة.

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم من أسماء النار. واشتقاقها من الجهومة، وهي الغلظ، وقيل: أخذ من قولهم: بئر جهنّام أي بعيدٌ قعرها.

﴿مِهَادٌ﴾: المهاد: الوطاء الذي يفترش. ومنه مهد الصبي، وقد مهّدت له هذا الأمر أي وطأته له.

﴿غَوَاشٍ﴾: جمع غاشية، وهو كل ما يغشاك أي يسترك، ومنه غاشية السرج، وفلان يغشى فلاناً أي يأتيه ويلابسه.

﴿صُدُورِهِم﴾: الصدر ما يصدر من جهته التدبير والرأي، ومنه قيل للرئيس: صدر.

﴿غِلٍّ﴾: الغل: الحقد الذي ينغل بلطفه إلى صميم القلب، ومنه الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى دقيق الخيانة، ومنه الغُلّ الذي يجمع اليدين والعنق بانغلاله فيهما.

﴿تَجْرِي﴾: الجريان انحدار المائع، فالماء يجري والدم يجري وكل ما يصح أن يجري فهو مائع.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: النهر: الواسع من مجاري المياه، ومنه النهار لاتساع ضيائه.

﴿وَنُودُوٓا۟﴾: النداء: الدعاء بطريقة يا فلان.

﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: قال الراغب في المفردات: الوراثة والإرث: انتقال قنْيَةٍ

إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المُنْتَقِلُ عن الميِّت: يقال للقِنْيَة الموروثة: ميراثٌ. وإرثٌ وتراثٌ أصله وراث، فقلبت الواو ألفاً وتاءً، قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾، وقال (عليه الصلاة والسلام) اثبتوا على مشاعركم فإنكم على إرث أبيكم، أي أصله وبقيته. قال الشاعر:

فينظر في صُحُفٍ كالرِّبا   طِ فيهنَّ إرثُ كتابٍ مُحِي

. . . ويقال لكل من حصل له شيءٌ من غير تعب: قد ورث كذا، ويقال لمن خُوّل شيئاً مهنّئاً: أُورِث، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾[1] [المؤمنون: ١٠ ـ ١١].

وذكر صاحب تفسير الميزان وجهاً آخر قال: «وقد جعلت الجنة إرثاً لهم في قبال عملهم، وإنما يتحقق الإرث فيما إذا كان هناك مال أو نحوه مما ينتفع به وهو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره. يقال: ورث فلان أباه أي مات وترك مالاً بقي له، والعلماء ورثة الأنبياء أي مختصون بما تركوا لهم من العلم، ويرث الله الأرض أي أنه كان خوّلهم ما بها من مال ونحوه، وسوف يموتون فيبقى له ما خوّلهم.

وعلى هذا، فكون الجنة إرثاً لهم أورثوها، معناه كونها خلقت معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن والكافر جميعاً، غير أن الكافر زال عنها بشركه ومعاصيه فتركها فبقيت للمؤمن، فهو الوارث لها بعمله، ولولا عمله لم يرثها قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١]، وقال تعالى ـ حكاية عن أهل الجنة ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وهذا أوضح مما ذكره الراغب في المفردات»[2]. وبعد أن يذكر ما

---

(١) مفردات الراغب، ص: ٥٥٥ ـ ٥٥٦.
(٢) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ١١٨.

أوردنا عن المفردات يعلّق بقوله: «وإنما كان ما قدمناه أوضح ممّا ذكره، لصعوبة إرجاع ما ذكره من المعاني إلى أصل واحد هو معنى المادّة»[١].

وقد جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ ـ بطرق الشيعة والسنّة ـ حيث يقول: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فيرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافرَ منزله من الجنة، فذلك قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[٢].

ونلاحظ على ما ذكره العلاّمة الطباطبائي بالحديث عن مناسبة التعبير بالإرث عن الجنّة التي ورثها المؤمنون، بأنها «معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن والكافر جميعاً، غير أن الكافر زال عنها بشركه ومعاصيه فتركها فبقيت للمؤمن، فهو الوارث لها بعمله»، إن ما ذكره من تعريف الإرث بأنه «مال أو نحوه مما ينتفع به وهو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره» ليس عليه دليل من اللغة، لأن الظاهر من معناه أن يكون المال مملوكاً للشخص أو مختصاً به، فينتقل إلى غيره، فليس الانتفاع به ملحوظاً إلا من حيث تعيّنه للملك.

أمّا صعوبة إرجاع ما ذكره الراغب من المعاني إلى أصل واحد، وهو المادة، فقد يكفي في ذلك في المناسبة أن تكون شبيهة بالإرث باعتبار أنه خوّل له شيء يهنأ به، سواء كان ذلك نتيجة عمله أو كان ذلك بالتفضل عليه به، ولعل ذلك هو معنى الرواية، لأن ظاهرها ليس مراداً من حيث فعلية اختصاص المؤمن بمنزل في النار ليرثه الكافر، واختصاص الكافر بمنزل في

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ١١٩.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، ج: ٢، ص: ٣١، وتفسير القرطبي، دار الفكر، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، ج: ٤، ص: ١٨٨، وتفسير الأمثل، مؤسسة البعثة، ط: ١، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م، ج: ٥، ص: ٤٧.

الجنة ليرثه المؤمن، لأن النار منزل الكافر بكفره، فهو يختص به بالأصالة لا بالوراثة، كما أنّ الجنّة منزل المؤمن بإيمانه، فهو يحصل عليه بالأصالة لا بالوراثة، بل المراد، على تقدير صحة الرواية، أن الجنة والنار معدّتان لمن يعمل بما يؤدي إليهما، فليست الجنة مكتوبة لشخص معين من ناحية ذاتية، كما أن النار غير مختصة بفردٍ معينٍ من ناحية ذاتية، بل القضية تابعة للاختيار بإرادة الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيىء، فهناك إمكانية الوصول لكل منهما، فإذا حدثت الفعلية كان كل واحد منهما بمنزلة الوارث لمكان الآخر، باعتبار أنه في معرض الصيرورة منه، ولكن يبقى في المناسبة، في حديث الرواية، خفاء مما تردّ به إلى أهلها.

* * *

صورة المكذِّبين بآيات الله

توضح الآيات الكريمة صورة المكذِّبين بآيات الله، أو الذين افتروا كذباً على الله، انطلاقاً من الأجواء المضلِّلة التي خلقوها وعاشوا فيها، لإبعاد الناس عن صفاء الفطرة ووضوح الرؤية للأشياء، في ما يخلطونه بالباطل من قضايا الحق، وما يثيرونه في أفكارهم من شكوكٍ وشبهات، وما يوحون إليهم به من أوهامٍ وتعقيداتٍ، فتتضخّم شخصياتهم، وتؤدّي بهم إلى الانحراف عن الحقيقة، في زهوٍ وخيلاء، وتقودهم إلى متاهات الكبرياء... وهكذا تتجسَّد الصورة، وتتعاظم في مدلولاتها؛ فإذا بالموقف من هؤلاء يمثل أفظع الظلم، لأنه يسيء إلى خالق الحقيقة من جهة، وإلى الحقيقة من جهة أخرى... ولكنها ـ مع ذلك ـ الصورة التي تضيع معها أحلام الإنسان وطموحاته في الهواء، لتتحول إلى ورقةٍ تهرب منه كلما عصفت الرياح، وكلما امتد به الطريق أو تعقّدت في داخله الحيرة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه ما لم يشرّعه وما لم يقله، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ وجحد رسالاته وتمرد على رسله... فقد ظلم الله ربه حقّه في الإيمان والطاعة، وظلم الحقيقة حقّها في الوضوح والإذعان. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في ما قضاه الله وقدّره لعباده في الأرض من أرزاقٍ ومعايش في ما يأكلون ويشربون ويلبسون ويتلذذون... كغيرهم من عباد الله، لأن الله لا يخص بنعمته عباده المؤمنين، بل يفيض ما يشاء منها على جميع العباد. وتستمر بهم النعم، وتمتد بهم الحياة... ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ـ وهم ملائكة الموت ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويقبضون أرواحهم ليواجهوا حساب الله في ما قدموه من أعمال سيئةٍ، ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من شركاء مما تصنعون من أصنام، أو تخضعون لهم من بشر... ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ وابتعدوا وتركونا ـ وحدنا ـ نواجه المسؤولية، في حيرةٍ وضياعٍ وذهول... فكيف كنا نكفر بالله وبآياته؟ وكيف سرنا في خط الضلال الذي قادونا إليه؟ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ﴾ في شعور عميق بالحسرة والتمزق والسقوط...

* * *

مشهد المكذّبين الأوّل

إنه المشهد الأول من المشهدين اللذين عالجتهما الآية. إنهم الكافرون في الدنيا، وقد جاءت رسل الله بمهمة إماتتهم؛ ولكنهم وجهوا إليهم سؤالاً قبل القيام بمهمتهم، في صيغةٍ هي أقرب إلى التبكيت والتوبيخ منها إلى الاستفهام؛ أين هؤلاء الذين كنتم تدعونهم من دون الله، فليأتوا إليكم في هذا الموقف الحرج الذي يتحدّى أصل وجودكم واغتراركم به ليخلصوكم إذا كانوا يملكون بعض قوة الألوهية أو سلطتها؟ ويحمل الجواب مشاعر الخيبة القاتلة

التي تجسد الضياع بكل معانيه: لقد ضلوا عنا وابتعدوا وضاعوا فلا أثر لهم، تماماً كمن يمسك الريح وعندما يفتح يده فلا يرى شيئاً. وانكشفت الحقيقة، فلا مجال للنجاة أو الإنكار، وشهدوا على أنفسهم بالكفر بالله، ووقفوا ليواجهوا نتائج ذلك كله... وينتهي هذا الحوار، ويسدل الستار، ونعرف من خلال الجو أن المهمة قد انتهت وأنّهم انتقلوا إلى الدار الآخرة.

* * *

المشهد الثاني

أما المشهد الثاني، فهو صوتٌ ينطلق من الله، ليوجّه الأمر الحاسم بإدخال هؤلاء الكافرين في النار مع كل الأمم التي سبقتهم من الجن والإنس. ويدخل هؤلاء إلى النار، فنسمع ـ في قلب هذا المشهد ـ اللعنات تتوالى وتتصاعد وتتشابك، فكل أمّةٍ تلعن أختها التي سبقتها. اللعنات هي تحيات الداخلين من جديد للسابقين إلى النار؛ ولكنّها تحيّات الغضب والغيظ والمرارة التي تجيش في الصدور التي وحّد أفكارها الكفر، ولم يستطع أن يوحّد مشاعرها وعلاقاتها، أو يربط بينها برابطة التعاطف والتكاتف والاستسلام للمصير المشترك بدون سلبياتٍ في علاقاتها المشتركة...

إنها وقفات الغيظ المتفجر، التي تريد أن تصب النقمة والسخط واللعنة على الآخرين الذين تعتبرهم مسؤولين ـ حقاً أو باطلاً ـ عن هذا المصير، لتخفّف من وقع الصدمة على النفس بالإيحاء بمسؤولية الآخرين عن ذلك.

وهنا ينفتح نوعٌ من الحوار بينهم، لا يخاطبون فيه بعضهم البعض وجهاً لوجهٍ، بل تتوجه الجماعة الأخيرة أمام الجماعة الأولى بالدعاء إلى الله في أن يضاعف عذابه لمن سبقهم، لأنهم أساس الضلال؛ فكأنهم يريدون إفهامهم

هذه القضية بهذا الأسلوب، ليختصروا الحوارين في حوارٍ واحدٍ.

وينطلق عن الله صوتٌ جديدٌ، ليقول لهم: إن لكلٍّ منكم ضعفاً من العذاب؛ أما الأولون منكم، فإنهم ضلوا الطريق وأعانوكم على الضلال، وأما أنتم، فإنكم ضللتم وأعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم وإجابة دعوة الرؤساء منهم وتكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، لأنكم لا تعرفون طبيعة العذاب، لتعرفوا كيف يكون العذاب ضعفاً. وتجيب الجماعة الأولى بأسلوب يقرب إلى التهكم والتشفّي: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ إننا سواءٌ في المسؤولية وفي نتائجها... التي هي جزاء ما كسبناه من انحرافٍ وإجرام.

ويُسدل الستار على القصة، ليبدأ فصلٌ جديد، يأخذ فيه الإنسان درساً عملياً لمستقبل حياته، كي لا يواجه يوم القيامة ما واجهه هؤلاء من الذلّ والخزي والعذاب.

* * *

المعطيات العملية للقصة

أما كيف نستوحي هذا الدرس من هذا الموقف الذي يريد الله فيه أن يستبق موعد حدوث النهاية، فيخبرنا عنها ليجنّبنا تجربة الوقوع فيها دون وعيٍ وانتباه... أمّا كيف نستوحي هذا كله، فهذا يتجلّى بنقاط عدة.

١ ـ التأكيد على رفض التبعية في العقيدة، وفي الممارسة، وفي الموقف، وضرورة الاستقلال الذاتي في تحصيل القناعة بما تعتقده النفس، وما تمارسه وما تتخذه من مواقف، لأن أي تبرير للتبعية في أيّة زاويةٍ من زوايا

العلاقات العامّة والخاصّة، لا يمنع من تحمّل المسؤولية ومواجهة نتائجها في الدنيا والآخرة.

* * *

العقيدة المنحرفة لا تصنع الوحدة الروحية

٢ ـ إن الارتباط بين الأفراد والجماعات، على أساس العقيدة المنحرفة أو السلوك المنحرف، لا يصنع الوحدة الروحية أو الرابطة المصيرية التي تجمع بينهم، لتدفعهم إلى التضامن والمشاركة في نتائج المسؤولية دون تأفّف أو تذمرٍ. . . . ولعل السبب في ذلك هو أن الانحراف لا يخضع للفكر والصدق، بل يخضع ـ غالباً ـ للمصلحة الذاتية وللعلاقات العاطفية، مما يدفع الإنسان إلى التخلّي عن صاحبه عند أيّة إشارةٍ للخطر الكبير، أو أيّة صدمةٍ بالمصير السيّىء، فتكون النتيجة مزيداً من الملاعنة، أو المزايدة، في إلقاء كل طرفٍ المسؤولية على الطرف الآخر.

* * *

تحليل الدعاة للمواقف العامّة للناس

٣ ـ أن يعمل الدعاة إلى الله ـ سبحانه ـ على التوسّع في التحليل للمواقف الكثيرة التي تندفع فيها التيارات الإلحادية أو الانحرافية إلى بعض مجتمعاتنا المسلمة، ليتقبلها الناس بقوة، بفعل القوة السياسية التي يمثلها دعاتها أو القوة الاقتصادية التي تدعمهم، أو تحت تأثير القوة العسكرية التي تقاتل من أجل فرضها، أو بفعل الإغراءات المادية والعاطفية، أو القوة

العددية، أو غير ذلك من القوى التي تمثل دوافع تشد الناس إلى تقبل هذا التيّار أو ذاك، بغض النظر عن فساده أو صلاحه، فتلك أمور لا يبحث الناس فيها عادة إلا بعد تحصيل القناعة، لتبرير ما اتّخذوه من موقف وما مارسوه من عمل، للإيحاء إلى الذات بصوابية ما قاموا به.

ولعلّنا نشعر بقيمة هذا التحليل، عندما نتعرّف إلى الواقع الذي يفرض نفسه على المواقف الفكرية والعملية، من خلال الدوافع والمؤثرات البعيدة عن التأمل والتفكير والحق والباطل... فنبدأ بعد ذلك في رسم الخطة العملية التي تسعى لوضع الناس وجهاً لوجه أمام دوافعهم اللاواعية ـ كما يعبّر علماء النفس ـ ثم يُربط الموقف بقضية الحرية والكرامة والاستقلالية في الرأي، أو برواسب الإيمان العميقة، لاستثارة تلك المشاعر فيهم في حركة التفافٍ بارعةٍ على فكر الإنسان. ثم الاتجاه إلى استباق المراحل، بقطع الطريق على تلك التيارات، وعدم إفساح المجال أمام ما يمكن أن تستفيد منه عمليات الإضلال من أوضاعٍ شاذة، وذلك بخلق مناعةٍ ذاتيةٍ لدى المجتمع ضدها.

وقد يفيدنا في هذا المجال أن نثير، أمام الناس، الواقع الذي يعيشونه في ظل الازدواجيّة الفكرية والأخلاقية، بين ما يعتقدون وما يقلدون، والتأكيد على الآثار السيِّئة المترتبة على ذلك؛ مما يجعل الإنسان في قلقٍ أو حيرةٍ إزاء انقسام الشخصية وتوزّعها بين دافعين، يشدها أحدهما إلى الأمام، ويجرّها الثاني إلى الوراء. وقد نجد في هذه الآيات الكريمة بعض الدروس الرائعة التي تجعل من الموقف موضوعاً يرتبط بقضية المصير في الدنيا والآخرة، لتوحي للإنسان بالابتعاد عن المواقف السريعة وعن السطحية والارتجاليّة والانفعال الذاتي، لأن مثل هذه المؤثرات قد تكون مقبولة في الحالات الطارئة المحدودة، ولكنها لن تكون مقبولةً في قضايا المصير الذي يهدّد وجود الإنسان في الدنيا والآخرة.

* * *

أبواب السماء مغلقة في وجه المستكبرين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي كنايةٌ عن أبواب رحمة الله ورضوانه، وقد جاء في مجمع البيان حديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى منادٍ: اهبطوا به إلى سجين»[1]، و﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وهو أمر مستحيلٌ، إذ كيف يمكن أن يدخل الجمل في ثقب إبرة الخياطة؟!... لأنهم لا يملكون الأساس الذي يمكن أن يحقق لهم ذلك. وقد ورد مثل هذا المعنى في إنجيل لوقا الباب ١٨ الجملة ٢٥ و٣٦ أن عيسى عليه السلام قال: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[2]. ومن الطبيعي أن المراد به الكناية عن صعوبة انضباط الغني في خط الإيمان والتقوى الذي يدخل به إلى ملكوت الله في الجنة، لأن الغنى يفتح للإنسان أبواب الانحراف على وسعها. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا في حق أنفسهم وفي حقّ ربهم، ولم يستجيبوا لنداء الحق في الفكر والعمل، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ مهّدته ذنوبهم فراشاً من النار، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ تحجب عنهم الرؤية في ما تثيره من دخان يغشي العيون ويمنعها من الإبصار المفتوح. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا الحياة من حولهم، لما أثاروه فيها من كفرٍ وضلال...

* * *

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٤٦.

(٢) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا ١٨، ص: ١٢٩، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

المؤمنون أصحاب الجنة

أمّا المؤمنون فلهم شأنٌ آخر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بحسب طاقتهم وقدرتهم، لأنهم لم يستطيعوا أكثر من ذلك، كما أن الله لا يمكن أن يكلّفهم شيئاً فوق ذلك، فهو يقول سبحانه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [المؤمنون: ٦٢] أي ما تتسع له قدرتها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. فقد جعل الله الجنة داراً للنعيم لينعم فيها أولياؤه بنعمته ورضوانه.

* * *

لا غلّ في الجنة

ثم ما مشاعر أهل الجنة، وما طبيعة العلاقات التي تحكمهم، وكيف يواجهون هذا الجوّ، وكيف يفكرون فيه، وكيف تكون عملية الاستقبال؟؟؟ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي حقد. وقد لا يكون المقصود بالنزع أنها كانت مملوءةً بالحقد ثم نزعه الله منها، بل ربما تكون كنايةً عن عدم وجوده فيها، كما هو أسلوب التعبير في نسبة الفعل إلى الله، على أساس أن أدواته منه، وإن كان اختياره بيد الإنسان. وفي ضوء ذلك، يمكن أن يكون المراد هو أنهم عاشوا الإيمان الذي يثير مشاعر الطهر والحبّ والرحمة في نفوس المؤمنين، فلم يبق في نفوسهم أيُّ أثرٍ للحقد على مستوى علاقاتهم الأخوية، فها هم يعيشون في الجنة إخواناً في مرحٍ وغبطةٍ وسرور وشعورٍ بالفرح الروحي، في ما يواجههم من نعيم يتمثل في هذه المشاهد الطبيعية الحلوة، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. وبدأوا يشعرون بالحاجة إلى التعبير عن شكرهم لله وحمدهم إياه، لأنه هو الذي فتح لهم باب الهداية، في ما أودعه

فيهم من وسائل الهداية، وما أرسله إليهم من رسل، أو أنزله عليهم من وحي ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ فهو الذي أرشدنا إلى الجنة ودلنا على السبيل إليها. . . ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ بدينه وشريعته. ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فقد وعدونا بالجنة إذا سرنا في طريق الخير والطاعة، وها نحن نرى ذلك في هذا الجوّ الرائع الذي يتحرك بالحق ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم تحصلوا عليها بالاسترخاء والكسل والتمنيات، بل حصلتم عليها بالجهد والتعب والعناء. . . وذلك هو سبيل الحصول على جنّة الله ورضوانه ولطفه. .

● □ ● □ ●

الآيـــات

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا
فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ
يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا
خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ
عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم
بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ
يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن

﴿شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾

* * *

معاني المفردات

﴿عِوَجًا﴾: العَوَج: العطف عن حال الانتصاب، وهو يقال في ما يدرك بالبصر سهلاً كالخشب المنتصب ونحوه، والعِوَج يقال في ما يدرك بالفكر والبصيرة كما يكون في أرض بسيطٍ يُعرف تفاوته بالبصيرة، وكالدين والمعاش[(١)].

﴿حِجَابٌۚ﴾: الحجاب: الحاجز المانع من الإدراك، ومنه قيل للضرير: محجوب، وحاجب الأمير وحاجب العين.

﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾: الأمكنة المرتفعة، أخذ من عرف الفرس، ومنه عُرْف الديك، وكل مرتفع من الأرض عُرْف لأنّه بظهوره أعرف مما انخفض.

﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾: أي بعلاماتهم. والسِّيما العلامة، وهي فعلى، من: سام إبله يسومها إذا أرسلها في المرعى معلّمة، وهي السائمة، وقيل: إن وزنه عفلى من وسمت فقلبت، كما قالوا: له جاهٌ في الناس وأصله وجه... وفيه ثلاث لغات: سيما وسيماء بالقصر والمد وسيمياء على وزن كبرياء[(٢)].

﴿تِلْقَآءَ﴾: التلقاء: جهة اللقاء وهي جهة المقابلة، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان، تقول: هو تلقاؤك نحو هو حذاؤك.

﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾: جمع بصر، وهو الحاسّة التي يدرك بها المبصر، وقد

---

(١) مفردات الراغب، ص: ٣٦٣.

(٢) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٥٢.

يستعمل بمعنى المصدر، ويقال: له بصر بالأشياء أي علم بها، وهو بصير بالأمور أي عالم.

﴿وَنَادَىٰٓ﴾: النداء امتداد الصوت ورفعه، ونادى نظير دعا، إلاَّ أن الدعاء قد يكون بعلامة من غير صوت ولا كلام ولكن بإشارةٍ تنبىء عن معنى يقال، ولا يكون النداء إلا برفع الصوت.

﴿خَوۡفٌ﴾: الخوف: توقّع المكروه، وهو ضد الأمن الذي هو الثقة بانتفاء المكروه.

﴿أَفِيضُواْ﴾: صبّوا. والإفاضة ـ كما يقول صاحب المجمع ـ إجراء المائع من علوّ[١]. قال الراغب: فاض الماء إذا سال منصبّاً[٢]. وفي التعبير إيحاءٌ إلى علوّ مكانة أهل الجنة بالنسبة إلى مكانة أهل النار.

﴿لَهۡوٗا﴾: اللهو: طلب صرف الهمّ بما لا يحسن أن يطلب به.

﴿وَلَعِبٗا﴾: اللعب: طلب المرح بما لا يحسن أن يطلب به.

﴿نَنسَىٰهُمۡ﴾: نتركهم ونهملهم ولا نبالي بهم، وذلك على سبيل الكناية لاستحالة نسبة النسيان إليه تعالى على سبيل الحقيقة. والمعنى: نعاملهم معاملة المنسي في النار. والجزاء من جنس العمل ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

والنسيان ـ كما يقول الراغب ـ ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه أو عن غفلة[٣].

﴿يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون. والانتظار: هو الإقبال على ما يأتي بالتوقع له،

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٥٥.

(٢) مفردات الراغب، ص: ٤٠٣.

(٣) (م.ن)، ص: ٥١٢.

وأصله الإقبال على الشيء بوجهٍ من الوجوه.

﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾: التأويل: ما يؤول إليه حال الشيء، وهو «من الأول، أي الرجوع إلى الأصل»، ـ كما يقول الراغب[1].

﴿شُفَعَآءَ﴾: الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبة إلى من هو أدنى. ومنه الشفاعة في القيامة.

* * *

تحاور أصحاب الجنة وأصحاب النار

وهناك حوارٌ آخر يدور بين أهل الجنة وأهل النار، يتدخّل فيه أهلُ الأعراف ليحاوروا أهل النار بطريقةٍ إنكاريةٍ تأنيبيّةٍ. وتنطلق الآيات في هذا الجوّ لتثير أمام الإنسان بعض المفاهيم والمواقف، وتوضح بعض المظاهر الاستعراضية التي لا زال البعض يمارسونها في الحياة الدنيا، فينخدع بها بعض البسطاء في أجواء الغفلة والنسيان.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾. الآية توحي أن هناك منطقةً يشرف فيها أهل الجنة على أهل النار، فيرون بعضهم بعضاً، ويسمع أحدهم الآخر... وربما كان بين هؤلاء وأولئك علاقة معرفةٍ أو قرابةٍ أو جوار في الدنيا، وربما كان بينهم هناك حوارٌ في قضايا الإيمان والكفر وما يؤدّيان إليه من جنة أو نار. وكان الكفّار ينكرون ذلك كله ويسخرون باليوم الآخر، بينما كان المؤمنون يؤكدون ذلك ويخوفونهم ويحذرونهم من نتائج أعمالهم... ومرّت الأيام،

---

(١) مفردات الراغب، ص: ٢٧.

وها هم يلتقون في الدار الآخرة، ولكلٍّ موقعه في الجنة أو النار، ويطَّلع أهل الجنّة على أهل النار ويسألونهم ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ فها نحن نتقلب في نعيم الجنة ورضوان الله، كما وعدنا الله من خلال رسله؛ ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ في ما توعّدكم به من عذاب النار جزاءَ كفركم؛ فها أنتم تجدون أنفسكم في النار كما وعدكم رسل الله. وهو سؤال للإنكار أو للتقرير، لا للاستفهام. ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ في خشوع وذلةٍ واستكانةٍ، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقد لا يكون للحديث عن هذا المؤمن باسمه أثر كبيرٌ في الأجواء التي تثيرها الآية، فلا نريد أن ندخل في ما دخل فيه المفسّرون من خلاف حول ذلك، لأن الظاهر هو التركيز على الفكرة الموحية بإبعاد الله لهؤلاء الظالمين عن رحمته في ما تمثله اللعنة من هذا المعنى.

وتأتي الآية الثانية لتوضح المقصود من هذه الكلمة: ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ فليس المراد بها الظلم في الاعتداء على حقوق الناس، بل المراد بها الاعتداء على حقوق الله في العقيدة الحقة والنهج المستقيم، مما يعتبر ظلماً للنفس من جهة، وظلماً لله من جهةٍ أخرى.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بوسائل الخداع والضغط، فيبعدونهم عن سبيل الله في العقيدة والعمل، ويمنعونهم عن السير في هذا الاتجاه، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويريدونها منحرفةً تتحرك في اعوجاجٍ وانحرافٍ في ما يثيرونه من شكوك وشبهات، وما يحركونه من غرائز وشبهاتٍ. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾. وهذا هو السرّ في الانحراف الفكري والعملي، لأن الكفر بالآخرة يبعد الإنسان عن الشعور بالمسؤولية الذي يدفعه إلى تركيز البحث في العقيدة على أساسٍ متين، ويدفع العمل في اتجاه الصراط المستقيم، بينما يثير الإيمان بها الحركة الفكرية في اتجاه تصحيح المنهج والمسار والهدف...

* * *

أهل الأعراف

ويهدأ الحوار ريثما يتدخل جماعةٌ آخرون، وهم أهل الأعراف الذين اختلفت أقوال المفسرين فيهم، وأبرز ما ورد فيهم قولان؛ القول الأول: إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تترجح حسناتهم حتى يدخلوا الجنة، ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النار؛ فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجةً متوسطة بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الجنة برحمته... القول الثاني: إنهم رجال من أهل المنزلة والكرامة مع اختلاف في تحديد شخصيتهم، بين من يقول: إنهم الأنبياء، ومن يقول: إنهم الشهداء على الأعمال، أو العلماء والفقهاء... واختلفوا في تحديد الأعراف على أقوال منها إنه شيءٌ مشرفٌ على الفريقين، ومنها إنه تلٌّ بين الجنة والنار جلس عليه ناس من أهل الذنوب.

وقد يكون في الكثير من هذا الاختلاف لونٌ من ألوان الاجتهاد الذاتي في التفسير، وربما استند بعضهم إلى بعض الروايات الواردة عن الصحابة والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ولكنّنا لا نجد كبير فائدةٍ في تحقيق هذا الأمر، لأن ذلك لا يتعلق بالأجواء العامة للآيات. وربما قادنا التفسير إلى بعض اللمحات الموحية في هذا الاتجاه. ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ فليست الأجواء مكشوفةً تماماً بين أهل الجنة وأهل والنار، فهناك ستارٌ يفصل بينهما، أو سورٌ يحجز أحدهما عن الآخر.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم المميزة التي تتمثل فيها أوضاعهم في خط الإيمان أو الكفر، في ما يفكرون ويعملون... فيستطيعون ـ من خلال ذلك ـ تمييزهم ومعرفتهم، ليتحدثوا إليهم حديث المعرفة. ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، فتلك هي التحية التي توجّه إلى أهل الجنة، في ما توحي به الجنة من معنى السلام الروحي، على مستوى الأجواء

النفسية الداخلية للإنسان تجاه ربه، وتجاه كل ما حوله ومن حوله... وعلى مستوى الأجواء العامة التي تسود آفاق الجنة على مستوى الطبيعة أو الناس...

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حاول بعض المفسرين أن يجعل الضمير في هذه الفقرة عائداً إلى أصحاب الجنة الذين كانوا ـ حين النداء ـ خارج الجنة، فلم يكونوا قد دخلوها بعد ولكنهم يطمعون في دخولها لما يعرفونه من تاريخهم في الدنيا في ما قدّموه أمامهم من أعمالٍ وحسناتٍ... وفسرها الكثيرون بأنّ المقصود بهؤلاء أصحاب الأعراف، لأنهم يتحدّثون مع أهل الجنة كفريقٍ مستقلٍّ لا يشاركهم في الصفة، وإلا لكانوا منهم... أما طمعهم في دخول الجنّة، فلأنهم ليسوا بمستوى السوء الذي يمنعهم من دخولها، لأنّهم ممن استوت حسناتهم وسيّئاتهم، كما يقولون.

وربما كان هذا القول أقرب إلى سياق الآية، لا سيّما بلحاظ الآية الثانية ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فشاهدوهم واطّلعوا على هول العذاب الذي يلاقونه، فشعروا بالخوف والرعب فدفعهم ذلك إلى الابتهال والدعاء إلى الله ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتمرد والعصيان... يلاحظ أنّ مثل هذا الدعاء، قد يصدر من أهل المنزلة والكرامة في الدنيا، حيث يعبّرون عن عظمة الله وخشيتهم منه بذلك.. أما في يوم القيامة، فلا نجد ما يوحي بذلك، لأن مجال الأعمال التي يخاف الإنسان من مسؤوليتها السلبية ـ حتى بطريق الافتراض ـ قد انتهى بالنسبة إليهم، فعرفوا أنهم مصدر كرامة الله؛ بينما يعتبر ذلك أمراً طبيعياً بالنسبة إلى الذين استوت حسناتهم وسيّئاتهم، الذين لا يزالون في خوفٍ من مصيرهم... ولذلك فهم يعملون على إظهار إخلاصهم لله، بإخلاصهم لعباده المؤمنين من أهل الجنة، بإلقاء التحية عليهم؛ كما يعملون على إبراز خضوعهم له وخوفهم منه والإنكار على أهل النار في حوارٍ مختصرٍ معهم... مما يؤكد موقفهم القلق الذي يحاول البحث عن أساسٍ للثقة والاطمئنان في أكثر من اتجاه... إن ذلك كله

يقرِّب الوجه الأول في شخصية أصحاب الأعراف، وتفسير الفقرة المتقدمة في الآية السابقة. . .

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ في ما كانوا يكفرون بالله وكانوا بآياته يجحدون؛ ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ الذي جمعتموه من مالٍ وجاهٍ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على أساس المال الذي تملكونه، أو الجاه الذي تتقلبون فيه، في ما يدفعكم إليه الاستكبار من إنكار الحق وظلم أهله، والتطلع إليهم من موقع العلوّ والرفعة، كما لو كانوا كمِّياتٍ مهملةً لا توحي بشيء من الاحترام والاهتمام، لأن مقياس المستكبرين في تقييمهم للأفكار وللأشخاص، هو القيم المادية التي تحكم الساحة، من مالٍ وجاهٍ وامتيازات، ولكنّ ذلك هو شأن الدنيا من خلال ما تتحرّك به المادّيات في التأثير على حركة الإنسان والحياة. . . أمّا شأن الآخرة، فله مجال آخر، في ما قدّمه الناس من أعمالٍ صالحة، وما عاشوه من إيمانٍ وتقوى وصلاح، ولذلك فإنّ كلّ ما يتركه الإنسان من مالٍ وجاه خلفه في الدنيا، لا يعني شيئاً في عملية التقييم لدى الله، ولا يغني عنهم شيئاً في ما يستحقونه من عذاب وعقاب، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، لأنكم تعتبرون رحمة الله خاضعةً لِقيَمِ الدنيا في امتيازاتها التي تصنف الناس تبعاً لإمكاناتهم المادّية ومواقعهم الاجتماعية. إن هؤلاء هم الذين يملكون الدرجة العليا في الآخرة، وهم أهل الكرامة والمنزلة عند الله، الذين أفاض الله عليهم رحمته، وأسبغ عليهم نعمته. . .

* * *

أصحاب النار يتوسلون أصحاب الجنة

ثم يلتفتون إلى أهل الجنة، ليقولوا لهم، بكل محبةٍ وتقدير وتبريك: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وهنا يعود الحديث إلى حوار أهل

الجنة والنار، فنرى أهل النار وهم يعيشون الجوع والحرمان والعطش والذل والمسكنة... فيتوسلون إلى أهل الجنة أن يعطوهم شيئاً مما رزقهم الله من الماء والطعام وغير ذلك مما يحتاجه الإنسان في استمرار حياته... ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، لأنه قضى عليهم بالعذاب في الدار الآخرة، وحرمهم من كل نعيمها، ونحن لا نملك التصرف في ذلك إلا بأمر الله، ولم يأذن لنا الله بذلك، لأنكم من الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾، فاعتبرتم الحياة فرصة للّهو وللّعب، وأخضعتم لهما كل برامج الفكر والعمل، وأطلقتم ـ معهما ـ كل آمالكم ومطامحكم، حتى تحول اللعب واللهو إلى دين تدينون به وتسيرون عليه... ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بزخارفها ومباهجها ولذائذها وشهواتها... فأنستهم ذكر الله واليوم الآخر، وإذا نسي الإنسان ربه ونسي لقاءه في اليوم الآخر، فإن الله سينساه في ذلك اليوم، في ما تعبر عنه كلمة «النسيان» بالنسبة إلى الله، من إهمال كليٍّ له، وذلك على سبيل الكناية، لاستحالة هذه النسبة إليه تعالى على نحو الحقيقة. فإن النسيان يستتبع الإهمال لما ينساه الشخص، فناسب أن يقوم مقامه في التعبير...

* * *

الجزاء بالمثل

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ ونهملهم ولا نبالي بهم ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، فنسوا مسؤوليتهم أمام الله، وتركوا العمل الجدي في اتجاه المسؤولية، وعاشوا أجواء اللامبالاة، وحياة اللهو واللعب، فذلك جزاؤهم على ما فعلوه ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾. ولم يكن لهم في جحودهم لها من حجة أو برهان، بل كانت الحجة لله عليهم في ما أرسله من رسله، وما

أنزله من كتبه، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وبيّنّا فيه تفاصيل كل شيء على أساس من العلم القائم على الدليل والحجة، لا على الشكّ والريبة، وجعلناه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد أراده الله كتاب هدى يهتدي به التائهون الذين لا يملكون الوسائل الكافية للحصول على وضوح الرؤية للأشياء أو على تفاصيلها الدقيقة، فيرون فيه الأشياء على حقيقتها، فيهتدون إلى أهدافهم الكبيرة بكل سهولة... وأراده الله كتاب رحمة، في ما تمثله هذه الكلمة من أجواء ومعانٍ وآفاق، تثير في نفوس الناس المشاعر الطاهرة الصافية، وترعى حياتهم بكل الأساليب التي تتحرك من أجل السعادة في الدنيا والآخرة. ولن يحصل على ذلك إلا المؤمنون الذين يحركون كل خطواتهم على الطريق الذي يفتحه الكتاب للناس جميعاً ليلتقوا فيه بالله في خط البداية وفي نقطة النهاية.

* * *

التأويل هو الحقيقة الواضحة

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي الكتاب، في ما تعنيه كلمة «التأويل» من الحقيقة الواضحة التي تكشف عنها الألفاظ في ما ترجع إليه معانيها، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ وهو يوم القيامة الذي تظهر فيه القضايا على حقيقتها بشكل لا يسمح بأي التباسٍ أو اختلاف، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ وأهملوه، ولم يتعمقوا في معانيه، ولم يتحركوا في اتجاه تحويلها إلى برنامج عملي لحياتهم وحياة الناس من حولهم... وحاولوا ـ بدلاً من ذلك ـ أن يثيروا الغبار من حوله، ويشكّكوا فيه، وينسبوا آياته إلى البشر، ويعطوه صفة الأسطورة والخرافة، ويتهجّموا على الرسل الذين حملوه كرسالةٍ إلَهيةٍ إلى الحياة من أجل تنظيمها، جهلاً منهم أو تجاهلاً واستكباراً... وها هم اليوم أمام الحقيقة البارزة، التي تهدّم كلّ ما بنوه من أضاليل، وما أثاروه من أوهام، يتراجعون عن تكذيبهم وعن

جوّ اللامبالاة الذي كانوا يواجهون به موقف الرسول والرسالة. ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكيف انحرفنا عنه؟ ولكن ماذا نفعل الآن، وكيف نحصل على الأمن، وما طريقة الخروج من المأزق الذي أوقعنا أنفسنا فيه؟

* * *

هل من شفعاء للذين نسوا الله في الدنيا؟

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ كما كنا نفعل في الدنيا إذا أخطأنا وواجهنا حساب المسؤولية، كنا نلجأ إلى الوسطاء الذين تربطنا بهم قرابة أو صداقة أو مصلحة، فيشفعون لنا لدى أولي الأمر، ونتخلص بذلك من النتائج السلبية لأعمالنا. فهل هناك وسطاء وشفعاء في الآخرة ليشفعوا لنا، ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيعطينا الله فرصةً ثانية للعمل، من أجل أن نصحّح هذا الخطأ، ونقوّم هذا الانحراف، ونغيّر المنهج والبرنامج كله، لتكون حياتنا وفقاً لأمر الله ونهيه، لنحصل من خلال ذلك على رضاه، فيدخلنا في رحمته ورضوانه؟! ولكن الله يرفض هذه التمنيات، لأن الشفعاء لا يملكون ذاتيّة التصرف في هذه الأمور، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فكيف يشفعون لهؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسله؟ أما قصة العودة إلى الدنيا، فقد عالجها القرآن أكثر من مرّةٍ، وأكّد أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه، لأن مثل هذا التمنّي يخضع لمشاعر اللحظة، فإذا انفصلوا عنها رجعوا إلى أوضاعهم السابقة. وهذا ما جعل الآية تختم الموقف بالإعلان عن خسارتهم لأنفسهم: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ لأنهم لم يحصلوا من كل حياتهم على شيء ـ أيّ شيء ـ ولم تنفعهم افتراءاتهم شيئاً من قريب أو من بعيد.

● □ ● □ ●

الآيـــات

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ
مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ
تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَيَّامٍ﴾: جمع يوم، قال الراغب في المفردات: اليوم يعبَّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبَّر به عن مدة من الزمان أيّ مدةٍ كانت[1].

(١) مفردات الراغب، ص: ٥٧٨.

وربما كانت الاستعمالات القرآنية لكلمةٍ «اليوم» تنطلق من المعنى الثاني، وذلك كما في كلمة «يوم القيامة» الذي يستغرق خمسين ألف سنة كما جاء في (سورة المعارج الآية ٤). وقد أطلق اليوم على المدة الطويلة من الزمن التي تتّصف بعنوان سلبي أو إيجابي في حياة الإنسان. جاء في نهج البلاغة: «الدهر يومان يوم لك ويوم عليك»[١]، مما يعبر عن الدورة الزمنية التي تستغرق واقع الإنسان في هذه الحالة أو تلك.

وعلى ضوء ذلك، انطلقت الكلمات التي تعبّر باليوم عن عهد دولة معينة في سيطرتها على الواقع بعد أن تخلفها دولة أخرى في ذلك، فيقال: لقد سيطرت الجماعة الفلانية يوماً وسيطرت الأخرى يوماً آخر.

وفي هذا الاتجاه، يمكن توجيه الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام ـ كما جاء في هذه الآية ـ أمام النظرية العلمية ـ غير القطعية ـ التي تقول: بأن تكوّن الأرض والسماء قد استغرق مليارات السنين على النحو التالي ـ كما ذكره صاحب تفسير الأمثل ـ:

١ ـ يوم كان الكون في شكل كتلة غازية الشكل، نتج أن انفصلت منها أجزاء بسبب دورانها حول نفسها، وتشكّلت من المواد المنفصلة الكرات والأنجم.

٢ ـ هذه الكرات قد تحوّلت ـ تدريجياً ـ إلى كتلةٍ من المواد الذائبة المشعّة أو الباردة القابلة للسكنى.

٣ ـ في دورةٍ أخرى تألفت المنظومة الشمسية وانفصلت الأرض عن الشمس.

---

(١) نهج البلاغة، والمعجم المفهرس لألفاظه، دار التعارف للمطبوعات، ص: ٣٤٨، الكتاب: ٧٢.

٤ ـ في الدورة الرابعة بردت الأرض وأصبحت قابلة للحياة.

٥ ـ ثم ظهرت النباتات والأشجار على الأرض.

٦ ـ وبالتالي ظهرت الحيوانات والإنسان فوق سطح الأرض[١].

إنّ من الممكن إطلاق كلمة اليوم على الدورات الستة التي تمثلها النظرية العلمية، ولكننا ـ مع هذا كله ـ لا نستطيع أن نفرض هذا الرأي على الآية القرآنية وأمثالها، لأنه لم يصل إلى الحقيقة العلمية الحاسمة، باعتبار انطلاقها من بعض المقدّمات الظنية الاستنتاجية التي يمكن أن تخطىء أو تصيب، مما لا يمكن إخضاع القرآن له، لأنه الذي يمثّل الكلمة الإلّهية الفاصلة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: الاستواء ـ لغةً ـ استقامة الشيء واعتداله، والمراد به هنا السيطرة والاستيلاء والملك، كما يقال: جلس فلان على العرش، أي سيطر على الملك، وثل عرشه أي خرجت السيطرة من يده وسقط ملكه، وهو عبارة عن إحاطة الله الكاملة وسيطرته على الكون وتدبيره له من موقع القدرة المطلقة على جميع مقدّراته ومواقعه.

﴿ٱلْعَرْشِ﴾: ـ في اللغة ـ كل شيء له سقف وربما يطلق على السقف نفسه، كما في قوله تعالى ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقد يطلق على سرير الملك وكرسيّه في مجلس الحكم والتدبير، كما في قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨].

أمّا استعماله في «عرش الله»، فالظاهر أنه كناية عن الكون كله في عالم الوجود الذي يمثل الملك المطلق لله في كل شيء موجود.

---

(١) تفسير الأمثل، ج: ٥، ص: ٦٧.

وعلى ضوء ذلك، فإن التعبير وارد على نحو الكناية لا على نحو الاستعمال الحقيقي بالمعنى المادي للكلمة ليكون حجّة للجسمانيين الذي حاولوا الأخذ بحرفية الكلمات القرآنية، فتصوروا الله ـ من خلال ذلك ـ جسماً مادياً كبقية الأجسام الأخرى في حاجتها إلى العوارض المختصة بالجسم، وغفلوا عن أن القرآن انطلق في أسلوبه الفني من القمة البلاغية التي تعتمد على الاستعارة والكناية كما تعتمد على الحقيقة حسب الحاجة الفنية للتعبير.

﴿يُغْشِى﴾: يغطي، يقال: غشّى الشيءُ الشيءَ: ستره وغطاه، وأغشاه إياه: جعله يغشاه أي يغطيه ويستره، ومنه إغشاء الليل النهار لا إغشاء النهار الليل، لأن الغطاء يناسب الظلمة فقط ولا يناسب النور والضوء.

﴿حَثِيثًا﴾: مسرعاً. والحثيث: السير السريع بالسوق، من قولهم: فرس حثيث السير أي سريعه.

﴿مُسَخَّرَاتٍۭ﴾: أي مذلّلات خاضعات لتصرفه، منقادات لمشيئته.

﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: أي بتدبيره وتصرّفه.

﴿ٱلْخَلْقُ﴾: الإيجاد الأوّل المتحرك في نطاق التقدير الإلهي في تنوعاته وشروطه وخصائصه في البسائط والمركب.

﴿وَٱلْأَمْرُ﴾: هو السنن والقوانين المتحركة في نظام الوجود في إيصاله إلى غاياته التي أرادها الله، سواء في عالم الظواهر الكونية أو الواقع الإنساني، في السنن التاريخية الحاكمة على مسيرته في أوضاعه العامة والخاصة الصادرة عن الله من خلال أمره التكويني الذي يقول للشيء، في وجوده ونظامه وسننه، كن فيكون، من خلال شأنه وموقعه الربوبي في خالقيّته وتدبيره.

وفي هذا إيحاء بالإبداع الإلّهي للوجود، وبالربوبية المهيمنة المنفتحة

على كل حركته، بحيث تشرف عليه في بقائه واستمراره، فلا تهمله ـ بعد إيجاده ـ ليعيش في فوضى الصدف الضائعة في الفراغ.

﴿تَبَارَكَ﴾: مأخوذة من البركة وأصلها الثبات، والمراد منه الخير الكثير الثابت، وأما مناسبته لله، فهو في وجوده المبارك الأزلي الأبدي الذي هو منشأ الخيرات والبركات ومنبع الخير المستمرّ.

﴿تَضَرُّعًا﴾: تذلّلاً. والتضرّع: التذلّل، وهو إظهار الذلّ الذي في النفس، ومثله التخشع، ومنه التطلب لأمر من الأمور، وأصل التضرع الميل في الجهات ذلاً من قولهم: ضرع الرجل يضرع ضرعاً إذا مال بإصبعه يميناً وشمالاً ذلاً وخوفاً ومنه ضرع الشاة لأن اللبن يميل إليه، ومنه المضارعة للمشابهة لأنها تميل إلى شبه، والضريع نبت لا يسمن لأنه يميل مع كل داء.

﴿وَخُفْيَةً﴾: الخفية خلاف العلانية، من: أخفيت الشيء إذا سترته.

﴿لَا يُحِبُّ﴾: محبة الله للعمل ثوابه عليه ومحبته للعامل رضاه عنه.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: المتجاوزين للحدود، والاعتداء: تجاوز الحدود.

﴿وَطَمَعًا﴾: الطمع: توقع محبوب يحصل.

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾: جمع ريح، وهو الهواء المتحرك، قال الراغب: كل موضع ذكر الله إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة[1].

﴿رَحْمَتِهِۦ﴾: المراد بها هنا المطر.

﴿أَقَلَّتْ﴾: أي رفعت، والإقلال: حمل الشيء بأسره حتى يقلّ في طاقة الحامل له بقوّة جسمه، يقال: استقل بحمله استقلالاً وأقله إقلالاً.

---

(١) راجع: مفردات الراغب، ص: ٢١١.

﴿سَحَابًا﴾: السحاب: الغيم الجاري في السماء، واحده سحابة.

﴿سُقْنَٰهُ﴾: سيّرناه. السَّوْق: حث الشيء في السير حتى يقع الإسراع فيه.

﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: البلد الميت هو الأرض التي لا نبات فيها ولا مرعى.

﴿نَكِدًا﴾: النكد: كل شيء خرج إلى طالبه بتعسّر، يقال: رجل نكد بفتح الكاف وكسرها، وهو البخيل الممسك الذي يتعذر أخذ شيء منه بسهولة. وناقة نكداء: خفيفة الدَّرّ صعبة الحلب.

﴿نُصَرِّفُ﴾: التصريف: تبديل الشيء من حال إلى حال، ومنه تصريف الرياح.

* * *

القرآن وتحريك الإيمان في قلب الحياة

في هذه الآيات صورةٌ حيّةٌ كونيةٌ رائعةٌ، توحي للإنسان بعظمة الله من خلال عظمة خلقه، ليستشعر الإنسان ـ وهو يتأمّل ذلك كله ـ إيمانه بالله في رحاب الكون؛ في النهار عندما تتوهّج الحياة بيقظة النور، وفي الشمس عندما تنشر الدفء والإشراق في كل زاويةٍ من زوايا الكون، وفي القمر عندما ينساب نوره هادئاً ناعماً وديعاً في أجواء الليل الهادئة الموحية بالخدر اللذيذ في إغماضة الجفون على الأحلام الجميلة، وفي النجوم التي تتجمّع في ظلام الكون كحبّات نور متناثرةٍ في الفضاء... وهكذا تتكامل الصورة كلّما امتدّت آفاق المعرفة في وعي الإنسان في ما يشاهده ويلمسه ويعيه من خلق الله... ثم تتعاظم الفكرة من خلال الصورة في عقله وشعوره، فيحسّ بالخضوع لله الذي

أبدع ذلك كله، فيتضرع له ويخاف منه، ويطمع به، وتتحرك أحلامه الكبيرة في اتجاه القرب منه... وذلك هو أسلوب القرآن في تحريك الإيمان في قلب الحياة، ليتنامى ويتصاعد وينساب في حياة الإنسان اليومية، كما لو كان شيئاً مرئياً تلمع به العيون، أو مظهراً كونياً تتلاقى حوله العقول. وبذلك تلتقي الفطرة بالإيمان من أقرب طريق.

* * *

العرش مظهر السلطة الإلهية الأعلى

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وهو القادر على أن يخلقها في لحظة، ولكنه أراد للحياة أن تتدرّج في الوجود من خلال ارتباط بعضها ببعضٍ في طريقة تكامليةٍ. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في ما يرمز إليه الاستواء من الهيمنة والسيطرة والسلطة، وما توحي به كلمة ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ من مركز الملك والحكم، بعيداً عن أي معنى يتصل بالتجسيد لله، أو بالشكل المادي للعرش... ولا ينافي ذلك ما ورد في الأحاديث المتنوعة عن منطقة في السماء تسمى بالعرش، أو ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] لأنّ من الممكن أن يكون المراد به المنطقة الأعلى في الكون، باعتبار أنّ ذلك هو مظهر السلطة والسيطرة على الكون على سبيل الكناية؛ والله العالم.

* * *

الليل يلاحق النهار

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾. وهذا من مظاهر قدرة الله، حيث نرى الليل يلاحق النهار بظلامه فيستره، ويطلبه طلباً سريعاً فيدركه؛ تماماً كمن

يلاحق شخصاً آخر في عملية ملاحقةٍ سريعة. وربما كان في هذا إشارةٌ إلى أن الليل هو الأصل والنهار طارىء، فلم يكن هناك قبل الشمس ضياءٌ، فكأن النهار في مجيئه وإشراقه قد أخذ من الليل سلطانه، فبدأ الليل في محاولة دائمة وطلب حثيث لاسترجاع بعض ما فقده من ذلك..

* * *

كل ما في الكون طوع أمر الله تعالى

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فقد خلقها الله وحركها بإرادته وقدرته، وسخّرها بأمره، ليؤدي كل واحد منها دوره في حركة الحياة وفقاً للقوانين الحكيمة التي أودعها الله فيها، في نظام دقيق حكيم لا تختلف أوضاعه ولا ترتبك مسيرته، وأراد للإنسان أن ينتفع بذلك كله، في ما وهبه من عقلٍ وما مكّنه من وسائل القدرة... ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ فلا خالق غيره، ولا يملك الخلق إلا هو، ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ فلا أمر إلا أمره، لا أمر لأحدٍ مع أمره. فإذا أراد شيئاً، فإنه يقول له كن فيكون. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فله البركة التي تمتد بكل البركات على كل العالمين، فهو الرب لكل شيءٍ لا رب غيره، ولا إلّه سواه..

* * *

من أحبّ الله أحبّ عباده

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ بكل خشوعٍ وذلّةٍ ومسكنةٍ، وافتحوا قلوبكم إليه، وأَشهدوه على أنفسكم أنكم عباده الخاضعون المستكينون، وارفعوا إليه أكفَّ الضراعة، ليعطيكم ما تحتاجون إليه من كل شيء، لأنه القادر على كل شيء... ﴿وَخُفْيَةً﴾ في أنفسكم، لتعيشوا الشعور الحميم بأنكم معه في كل

المشاعر اللاهثة الحارة، وفي كل التمنيات الروحية، وفي كل الكلمات المبتهلة الخاشعة... لا يشارككم أحد في هذا الجوّ الإلهيّ الرائع؛ فلا أحد هناك إلاّ العبد وربّه، مما يعمّق في نفس الإنسان الشعور بعبوديته الحقيقية لله، وانتمائه الصادق إليه بكل هدوءٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ، وبذلك تفرغ كل أفكاره ومشاعره وممارساته من كل معاني الاعتداء، فتصفو للناس وللحياة بالمستوى نفسه الذي تصفو به لله، لأن صفاء الروح مع الله، يحقق أعمق ألوان الصفاء مع الناس؛ إذ إن الإنسان إذا أحبّ الله أحبَّه عباده، وذلك هو سرّ التفاعل بين العبد وربه، فإذا أحب الإنسان ربه ترك كل شيء لا يحبه الله، وبذلك فإنه يترك العدوان، إذ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

* * *

الإفساد عدوان على الحياة

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ إفساد الفكر والعمل والعلاقات، في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، فقد أعدها الله إعداداً صالحاً، في ما يريد لها من حركةٍ وحياةٍ، وأراد للناس، من خلال وحي رسله، أن يتابعوا خطوات الصلاح، ولا يستسلموا لكل عوامل الفساد والإفساد، لأن ذلك يمثل عدواناً على الحياة، وانحرافاً عن خط الله... وتلك هي مهمة الإنسان في إدارة طاقاته التي وهبه الله إياها، بأن تكون كل فعالياتها للصلاح والإصلاح. وذلك هو معنى أن تكون أمانةً لله عنده، فلا يحرّكها إلا بما يرضي الله، في بناء الحياة لا في هدمها. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لأنه هو الذي ينبغي للإنسان أن يخاف من عذابه ويطمع في ثوابه ويرجو رحمته، وذلك ـ أي الدعاء الذي يمثل عمق الإخلاص له واللجوء إليه ـ ما يجعله قريباً من رحمته، فتكون رحمته قريبة منه، ولكن بشرط أن يعيش الإنسان سلوك

الإحسان في ما يقول أو يفعل، لأن الرحمة ليست مجرّد حالةٍ عفويةٍ، بل هي لطفٌ من الله، يتصل بالأفق الداخلي للإنسان وبالحركة الطيّبة لحياته، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا بالروح وبالقول والعمل...

* * *

التجارة مع الله روحية لا مادية

وقد يثير البعض في هذا المجال تساؤلاً حول معنى أن تكون علاقتنا بالله علاقة خوفٍ وطمع؟ أليس هذا مظهراً من مظاهر العقلية التجارية مع الله، حيث ترتبط به على أساس خوف الخسارة والطمع في الربح؟! أليس من الأقرب إلى خط الايمان أن تكون العلاقة نابعةً من المحبّة الخالصة له، التي تنطلق من استحقاقه للعبادة، لأنه أهلٌ لذلك؟

ونجيب عن ذلك، بأنّ الخوف والطمع لا يمثّلان شعوراً تجارياً، بالمعنى الماديّ للتجارة، ولكنهما يمثّلان شعوراً روحيّاً خالصاً يعكس الإيمان بأنّ وجود الإنسان مرتبط بالله في كل شيء؛ مما يجعل من الدعاء لوناً من ألوان التعبير عن هذه الحالة الروحية التي تؤكد للذات ـ دائماً ـ بأنّ قضية الإنسان مع الله هي قضية الفقر المطلق أمام الغنى المطلق، في إحساسٍ بالذوبان في ذات الله، في وعيٍ لمعنى العبودية في الذات الإنسانية. وبهذا تفترق التجارة المادّية بين الإنسان والإنسان في ما يخافه أو يطمع فيه، عن التجارة الروحية بين الإنسان وربّه، حيث تتحول القضايا المادية إلى معنًى روحيّ، في مستوى الإيمان الخالص.

* * *

حركة الرحمة الإلهية في الكون

وتأتي الآية التالية لتثير أمامنا صورة الرحمة الإلهية كيف تتحرك في آفاق الكون لتتحول إلى طاقةٍ تعطي الخصب والرخاء والحياة للأرض الميتة والبلد الميت.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾، مبشّراتٍ بالخير والحياة ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ التي تغدق البركات من خلال رحمته في ما تثيره في الكون من حركة الرياح التي تتنوّع في سرعتها، وفي طبيعتها، وفي حملها... فهي تتحرك لأداء المهمة التي أوكلها الله إليها، وفي الخطّ الذي أرادها أن تسير فيه من خلال القوانين الطبيعيّة التي أودعها في الكون بحكمته وإرادته وقوّته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ وحملته على ظهرها، وانتظرت الأمر الإلّهي التكويني... ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ لا ماء فيه ولا كلأ ولا حياة... ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ الذي جعلنا منه كل شيء حيٍّ، ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ في ما تتنوّع أشكالها وألوانها وخصائصها... وهنا تأتي اللفتة القرآنية الموحية التي تنقل الفكر من هذه الصورة الحيّة المحسوسة التي يتحول فيها الموت إلى حياة، إلى عقيدة الإيمان بالبعث بوصفه حياة بعد الموت في الدار الآخرة، من خلال المقارنة بين الصورة المحسوسة هنا وبين الصورة الإيمانية هناك، ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ وتخرجون من هذه الغفلة المطبقة التي تبعد عنكم كل وعيٍ ومعرفةٍ وإيمان.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ طيّباً لذيذاً كثيراً، لأنه يتحرك من موقع الطبيعة الطيّبة الصافية التي تعيش القوّة، فيخرج نباتها قوياً قوة الأرض التي أنتجته. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ في أرضه نتيجة ما تحتويه من عناصر تعيق إنتاجيّتها وتعطّل عملية النموّ والامتداد ﴿لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ أي بصعوبة وجهدٍ؛ وذلك كناية عن القلة، لأن مثل هذه الطبيعة الخبيثة لا يمكن أن تنتج

شيئاً كثيراً أمام المعوّقات الطبيعية هنا وهناك. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ونحوّلها في ما توحي به من فكرٍ ووعيٍ وشعور... ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، فيحوّلون الحياة عندهم إلى طاقةٍ خيّرةٍ منتجةٍ في ما تعطي للحياة وللآخرين. وذلك هو معنى الشكر العملي في حياة الإنسان. وربما كانت هذه الآية واردةً مورد المثل للذات الطيّبة التي تنتج الخير من خلال طبيعتها الخيّرة، فتملأ الحياة خيراً كثيراً؛ وللذات الخبيثة المعقّدة التي تتحرك من موقع العقدة المرضية، فلا تنتج إلا النكد والعذاب الذي لا ينتهي إلى شيء..

* * *

دروس للعاملين في حقل التربية الإنسانية

وقد نستوحي من اختلاف النتائج الطيبة في البلد الطيب والخبيثة في البلد الخبيث في الوقت الذي يستويان فيه في نزول المطر عليهما، أنَّ نزول المطر لا يكفي في الإنتاج الطيّب وفي الخصب المثمر، بل لا بد من أن تكون الأرض صالحةً قابلةً للخير بحسب خصائصها الذاتية التي تنفتح على الرحمة الإلهية، فإذا كانت الأرض سبخةً مالحةً، فلا يزيدها المطر إلا ملوحةً من دون أية فائدة، وإذا كان للمطر دورٌ في بعض الإنتاج، فلن يكون إلا شوكاً وحنظلاً لا غناء فيه ولا لذّة. وهكذا الإنسان الطيّب في عقله وقلبه وقابليته للخير، يستقبل الكلمة الطيّبة، والموعظة الحسنة، والأسلوب الحكيم، بالعقل المفتوح الذي ينتج عقلاً جديداً، وبالقلب الطيّب الذي ينتج حبّاً لله وللإنسان وللحياة، وبالحركة الطيّبة التي تمنح الحياة الكثير من عناصر تقدّمها ونموّها وحيويّتها، بينما ينطلق الإنسان الخبيث الذي عشّش الباطل في فكره، وتحرك الشر في قلبه، وزحفت الجريمة إلى حياته، ليزداد بالكلمات الطيّبة شراً وجريمة وبغضاً وعدواناً.

ومن الطبيعيّ، أنه لا بد للعاملين في حقل التربية من دراسة ذلك كله، من أجل أن يعرفوا كيف يصلحون الأرض قبل أن يضعوا فيها غراس الخير، وأن يمهّدوا الأرض الخصبة قبل أن يتحركوا في عملية الإنتاج الفعلي.

إن الخبث في الأرض وفي الإنسان ليس خصوصية ذاتية، بل هو شيء طارىء قد يأتي من هنا وهناك من خلال العناصر الخبيثة الخارجية التي تزحف إلى الإنسان بفعل البيئة أو الثقافة أو التربية السيئة، أو إلى الأرض بفعل لعناصر المرَضيَّة، وما تحمله الرياح إليها، مما تخبث خصائصه فتتعمق في داخله.

ولهذا لا بد للعاملين في حقل الخير الإنساني من الاندفاع في طريق تنقية الداخل من كلِّ وحول الشرّ وقذارات الجريمة.

● □ ● □ ●

الآيــات

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الجماعة من الرجال خاصة، ومثله القوم والنفر والرهط.

عن الفرّاء، وسموا بذلك لأنهم يملأون المحافل[(١)].

﴿قَوۡمِهِۦ﴾: القوم: الجمع الذي يقوم بالأمر.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾: الإبلاغ: إيصال ما فيه بيان وإفهام، ومنه البلاغة.

﴿وَأَنصَحُ﴾: أخلص النية من شائب الفساد في المعاملة.

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: السفن، للواحد وللجمع.

﴿عَمِينَ﴾: جمع عمٍ، وهو من عمى البصيرة؛ والأعمى من عمى البصر.

* * *

موقع الإيمان هو موقع البحث عن الحقيقة

وتتوالى الآيات وتتتابع متناولة موضوع توحيد الله، في مواجهة الشرك به أو تكذيب آياته. وهي، هنا، تستخدم أسلوباً حياً، يريد الله للإنسان من خلاله أن يعيش تاريخ الرسل والرسالات، كي يعرف وحدة الطروحات التي قدّموها، ووحدة الأساليب الّتي استعملوها في مواجهة الفئات المتمرّدة على الرسالات... ويفهم ـ من خلال ذلك ـ طبيعة العقلية التي كانت تحكم من وقفوا ضد الرسل، ليخرج بنتيجة حاسمةٍ، وهي أن البشرية ـ في مرافقتها لمسيرة الرسالات والرسل ـ تنطلق في موضوع الإيمان من موقعٍ واحد، كما تنطلق في موضوع الكفر من قاعدةٍ واحدةٍ. أمّا موقع الإيمان، فهو موقع البحث عن الحقيقة؛ فالإنسان الذي يعيش هذا الهاجس الداخليّ، لا يمرّ بالأفكار التي تقدم إليه مروراً عابراً، بل يعمل على الاستماع إليها جميعاً،

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٦٧.

ليفكّر ويحاور ويستنتج، فيؤيِّد هذه من موقع القناعة الفكرية، ويرفض تلك من الموقع نفسه؛ ثم هو إنسان يلاحق كل إمكانات المعرفة ليستزيد منها، وليتحرك في إطارها. أما قاعدة الكفر، فهي ـ على العكس من ذلك ـ تسود فيها أجواء اللامبالاة بالحقيقة، بالتالي، فإن من يعتمدها كقاعدةٍ لا يشعر بالمسؤولية أمام كل الطروحات الفكرية التي تقدم إليه، فليست المشكلة عنده أن يؤمن أو لا يؤمن، بل كل ما لديه من اهتمامات هو أن يستمتع بالحياة، فيسير فيها كما تشاء له شهواته؛ ولهذا فإنه يعمل على تبرير حالته بكل الوسائل المتاحة لديه، فهو ليس في مجال البحث عن القناعة الفكرية، بل في مجال البحث عن المبرّرات. وهكذا نستطيع أن نواجه قصة الرسالات والرسل، لنعرف ماذا كان يطرح الأنبياء الأوّلون، وماذا كان يطرح الأنبياء المتأخرون؟ وما هي الأساليب التي انطلقوا بها إلى الناس، وما هي الأساليب التي انطلق بها المتمردون على الأنبياء في مواجهتهم للحق؟

وفي البداية، نلتقي بقصة نوح وقومه، فنلاحظ أولاً أن القرآن الكريم لم يحدّثنا عن أيّ نبيّ من الأنبياء أُرسل بين آدم ونوح، ولم يتحدث إلينا عن رسالةٍ هناك؛ فلربما كانت المرحلة قصيرةً بحيث لا تحتاج إلى رسالة، أو أن تلك الرسالات لم تكن في مستوى عالٍ من الأهمية من حيث ما طرحته من أفكار وما واجهته من تحديات، وما عايشته من أجواء، مما يجعل من الحديث عنها شيئاً لا أهمية كبرى له، ذلك أن القرآن لا يتحدث عن الأنبياء من خلال حكاية التاريخ، بل من خلال دراسة الظاهرة وأخذ العبرة، في ما يملك التاريخ من قضايا مهمة وملامح بارزة، وهذا ما ذكره الله في قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

* * *

ما معنى إرسال نوح إلى قومه؟

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هل نفهم من إرسال نوح إلى قومه، أن رسالته كانت محدودة بحدود قومه، فلا تتعداهم إلى غيرهم، أم أنّ هناك وجهاً آخر؟ وينسحب السؤال على كل قصّةٍ من قصص الأنبياء الذين تحدّث القرآن عن إرسالهم إلى قومهم، لا سيّما أولي العزم الذين أرسلوا إلى الناس كافة ـ كما قيل ـ وقد لا ننكر أن هناك رسلاً أرسلوا بمهمّة محددةٍ في الزمان والمكان، كما نلاحظ ذلك في قصة لوط وشعيب، ولكنَّ هناك أكثر من رسالة وأكثر من رسول لا يتقيّد دورهم بزمنٍ معيّنٍ، أو مكان معيّنٍ، فكيف كان التعبير باختصاصها بقوم الرسول؟.

* * *

قوم الرسول هم قاعدة الانطلاق

ربما كان الجواب الأقرب إلى الواقع هو أن قوم النبيّ كانوا يشكلون القاعدة الأولى للرسالة، والمجتمع الأول للرسول؛ فالنبي إنسان ـ ككل إنسانٍ ـ ينشأ في جماعة معينةٍ، وفي بيئةٍ محدودةٍ، ولا يملك إمكانياتٍ واسعةً للامتداد إلى كل المجتمعات الأخرى، لعدم توفر الوسائل المادية من إعلامية أو غيرها في تلك المراحل. ولهذا السبب كان لا بد من الأخذ بأسلوب المراحل الذي يهيّىء للرسالة جو الانطلاق التدريجي من مجتمعٍ إلى آخر بطريقة عمليةٍ واقعيةٍ. ولعلّ من الطبيعي للرسول أن يبدأ من قومه، باعتبارهم المجتمع الأول للرسالة، الذي تتناسب ملامح شخصية الرسول مع ملامحه العامّة، وتتجمّع فيه المعطيات الواقعية للبداية من حيث اللغة التي يتحدث بها، والعلاقات الحميمة التي تربطه بهم. . . وغير ذلك من الأمور التي تساهم

في نجاح الخطوة الأولى. ثم تتحرك الخطوات الأخرى في اتجاه الامتداد والشمول، وليس هذا بدعاً من الأمر، بل هو قضية كل دعوةٍ إصلاحيةٍ أو تغييريّة، من حيث ارتباطها في نقطة البداية بشخصية الداعية، وبظروف عمله، وحركة المجتمع من حوله.

وفي ضوء ذلك، نعرف أن التركيز على «قوم نوح»، كان باعتبار أنهم المجتمع الأول الذي يمارس فيه الدعوة إلى الله، أو القاعدة التي يملك الانطلاق منها، لعدم توفر الوسائل التي تتيح له التحرك إلى موقعٍ آخر. وربّما كانت البشريّة محصورةً في ذلك المجتمع في ذاك التاريخ.

وهناك نقطةٌ أخرى لا بد من ملاحظتها، في فكرة الشمول والامتداد للرسالات، وهي أن المفاهيم والتشريعات التي جاءت بها، لا تقتصر في أهدافها وغاياتها على دائرةٍ معينةٍ من دوائر الحياة، بل تشمل الحياة كلها في نواحيها النظرية والعملية، لأنها تتصل بمشكلة الإنسان بشكل عام، مما يلغي الجانب المحلي للمسألة، مهما اختلفت التعابير.

* * *

نوح عليه السلام ودعوة التوحيد الخالص

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ لأن هذه الأصنام التي تعبدونها لا تمثّل شيئاً في حجم القدرة، أو في معنى القيمة، فهي مجرد أشياء جامدةٍ لا تحس ولا تضر ولا تنفع.. وهؤلاء الأشخاص الذين تعبدونهم وتطيعونهم من دون الله لا يملكون شيئاً، ولا يخلقون شيئاً، ولكنهم يُخلقون ويعيشون الحاجة في كل وجودهم لله... فكيف تمنحونهم صفة الإله، أو تعبدونهم من دون الله الذي هو ـ وحده ـ الخالق الرازق المالك لكل شيء، الغني عن كل شيء، القادر على كل شيء، ليس كمثله شيء؟! فهو الذي يستحق العبادة،

بكل معانيها وآثارها.

إنها دعوة التوحيد الخالص التي أطلقها نوح، توحيد العبادة على أساس توحيد العقيدة، فهي الحقيقة التي تتمثّل في وجود الله وفي وجود الكون المستمدّ من وجوده، للرد على التصوّر المنحرف، والسلوك الفاسد الذي يمثل تعدد الآلهة تبعاً لتعدد الأذواق والأوضاع والميول.

* * *

معنى التأكيد على العبادة دون الإيمان

وقد يتساءل بعض الناس: لماذا قال نوح: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل لهم آمنوا بالله أو وحدوه، فإن الدعوة للعبادة لا بد أن تكون متفرّعةً عن الدعوة للإيمان، إذ لا عبادة بدون إيمان؟

ونجيب على ذلك أن الإيمان ـ في الرسالات الإلّهية ـ لا يمثّل فكراً تجريدياً، كما هو الإيمان بالحقائق الرياضية أو الفلسفية، بل هو فكر للحياة وللعمل، لا ينفصل فيه جانب التصور عن الممارسة؛ فللإيمان بُعده العملي إلى جانب بعده النظري، لأن المطلوب هو الإحساس بوجود الله بالمستوى الذي يعيش فيه الإنسان حالة الارتباط به في أجواء الطاعة، كما يعيش حالة الارتباط به من خلال حركة الوجود، في ما تمثله الحقيقة الإيمانية من ارتباط وجود الإنسان بالله لجهة البدء والامتداد والنهاية... وهكذا نجد الرسالات تطرح قضية العبادة في أجواء طرح قضية التوحيد، لتؤكد العلاقة الطبيعية بين توحيد العقيدة وتوحيد العبادة، فلا معنى لأن تؤمن بالله من دون عبادة، كما لا معنى للعبادة من دون إيمان. ولهذا كان التأكيد على العبادة باعتبار أنها التجسيد الحقيقي للإيمان. ويبقى الإيمان ـ في أسلوب الدعوة ـ قضيةً لا

تحتاج إلى الاستدلال أو المناقشة، لأنها من بديهيّات القضايا الفكرية؛ ولهذا لاحظنا أن النبي نوح قد طرحها كشيءٍ مسلَّمٍ به لا مجال للخلاف فيه، لما يوحي به قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ على ضوء التصور القرآني الذي لا يرى في الكفر مشكلة فكرية تعترض الكافرين لتبعدهم عن خط الإيمان، بل يرى فيها مشكلة ذاتية نفسيةً وأخلاقيةً مصدرها اللاّمبالاة، أو عقدة من الالتزام بالفكر الجديد... فليس بين الإنسان وبين الإيمان إلا أن يثير الاهتمام في نفسه بالحقيقة ويتخلص من العقدة الذاتية، لأن ذلك يحطم الحاجز الذي يفصله عن الإيمان، ويؤمّن له لقاء الحقيقة بطريقةٍ طبيعيةٍ.

* * *

لماذا كانت العبادة واجهة الرسالة؟

وقد يرد سؤال ثانٍ: لماذا اكتفى القرآن في حديثه عن رسالة نوحٍ بهذه الكلمة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؟ والجواب، إن معنى العبادة هو الخضوع لله والالتزام بالخط الإلهي الذي جاء به الرسل في ما يتعلق بإقامة العدل المرتكز على النظام التفصيلي الكامل الذي يضع لكل ذي حقّ حقه، ويثير الحياة في جوٍّ من الالتزام والانضباط بأوامر الله ونواهيه... وهذا ما يجعل من الدعوة إلى عبادة الله دعوةً إلى بناء الحياة على أساس إسلام الأمر لله في كل شيء، كما توحي بذلك الآية الكريمة التي تلخص الإيمان في كلمتين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]. في ما تمثله كلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ من المنهج الفكري والعملي للالتزام، وفي ما تمثله كلمة ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من الحركة العملية في هذا الاتجاه.

وربما كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب في تقديم العقيدة بطريقةٍ موجزةٍ موحيةٍ، تحمل في داخلها معنى الشمول والامتداد، ليعيش الإنسان

التصور الإيماني بعيداً عن المتاهات التفصيلية التحليلية التي قد تضيع عليه الكثير من حقائق الإيمان. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾. وهذا هو الأسلوب الإيماني في إثارة الشعور الذاتي بالخوف، من أجل تحويل ذلك إلى شعور بالاهتمام بالفكرة التي تقدم إليهم، ليناقشوها ويفكروا فيها من أجل الوصول إلى القناعات اليقينية الحاسمة في المسألة، لأن الإنسان لا يحس بالمسؤولية في اتخاذ المواقف الفكرية والعملية، إلا إذا خاف على حياته من النتائج السلبية التي يسببها الإهمال واللامبالاة. وفي ضوء ذلك، نفهم أن هذا التخويف لا يعتبر سبيلاً للضغط من أجل الإقناع، بل يتخذ وسيلةً من أجل إثارة الاهتمام بالفكرة، للوصول من خلال الحسابات الفكرية إلى القناعة.

ولا بد لنا أن نستعمل هذا الأسلوب القرآني في الدعوة إلى الله، بعيداً عن كل الأوهام التي تحاول الإيحاء بكونه أسلوباً لا ينسجم مع طبيعة الخط الفكري الذي يحترم في الإنسان إنسانيته، فلا يلجأ إلى ممارسة الضغوط عليه من أجل إقناعه بما لا يحس بضرورة الاقتناع به، فإن مثل هذا الأسلوب يؤكد إنسانية الإنسان، لأنه يسعى إلى تحريك طاقاته من خلال عناصر الإثارة الطبيعية في حياته في ما خلقه الله فيه من غرائز ذاتية، تساهم في إيصاله إلى غاياته من أقرب طريق.

❊ ❊ ❊

نوح في مواجهة الملأ من قومه

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ كيف كان ردهم عليه، هل ناقشوه في طروحاته، هل وقفوا أمامه وقفةً هادئةً ليدافعوا عن عقيدتهم، ولينقضوا دعوته من موقع الفكر الهادىء؟ لم يحدث ذلك كله، بل كانت المواجهة مزيداً من السباب والشتائم، فقد قالوا له: إنك ـ في ما تدعو إليه ـ

لا تمثل الإنسان العاقل الواعي الذي يعرف الأشياء من مواقعها الأصيلة، بل تمثل الإنسان الضائع الذي يتخبّط في متاهات الضلال فلا يميز بين الأمور، ولكنهم ـ في الوقت نفسه ـ لم يكونوا يحملون مقياساً واضحاً للهدى والضلال يمكن دراسة الدعوة من خلاله، بالتالي فلا معنى لاتهاماتهم، إذ لا معنى لأن تتّهم إنساناً بالضلال، إذا لم تقدم له المعطيات التي تثبت خطأ الفكرة التي يسير فيها أو يدعو لها.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ فأنا أنادي بالحقيقة الواضحة التي تحمل فكر التوحيد، ودعوة العبادة للإله الواحد، من موقع وضوح الرؤية للأشياء، في ما تفرضه من قناعةٍ مؤكّدة وموقفٍ حاسم، فإذا كان لكم شك في ذلك، أو كنتم تعتبرون ذلك خطأً، فتعالوا نناقش المسألة، لنعرف من هو على هدًى ومن هو في ضلال مبين؟ أما أنا فمقتنعٌ بأن ليس بي ضلالة، في ما أحمله من فكرٍ، وما أسير به من طريق ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في ما حمّلني الله من وحيه وشريعته، وما أرادني إعلانه من دعوته؛ فلا بد لكم من الاستجابة لي، إذا كنتم تريدون الاستجابة لله رب العالمين. ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بكل أمانة، من غير زيادة ولا نقصان، فذلك هو دوري معكم، دور المبلّغ الأمين... ولكن دور الرسول ليس دور المبلّغ الحيادي الذي يكتفي بايصال الرسالة دون أن يتبناها، بل دور من يحملها بقناعة وقوة وإيمان، وهذا ما توحي به الكلمة التالية: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ باتّباعها والسير على منهجها في الفكر والعلم لتحصلوا على سعادة الدنيا والآخرة. وقد يستوحي المتأمل من كلمة «النصح» الجوّ النفسي الحميم الذي كان يعيشه نوح تجاه قومه؛ فهو الإنسان الذي يتألم لانحرافهم وضلالهم، ويفكر في أفضل الطرق لإخراجهم من ذلك الضياع، فيقدم لهم النصيحة من كل روحه وقلبه؛ وتلك هي روحية الداعية في مواجهته للناس الذين يدعوهم إلى الله. ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فقد أعطاني الله ـ من خلال وحيه ـ كثيراً من العلم في ما يجب على

الناس أن يفعلوه، أو يحذروا منه، وما سيواجهون في مستقبل الدنيا والآخرة من خير أو شر على مستوى مصيرهم إذا أطاعوا أو عصوا... فاتبعونِ لتحصلوا على ذلك كله لتهتدوا به في ظلمات الطريق.

* * *

مشكلة الرسل والدعاة مع عماة البصيرة

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟! لماذا تأخذكم الدهشة أو يسيطر عليكم العجب من هذه الدعوة؟! من أين جاءتكم الفكرة التي تقول: إنَّ الرسول لا يمكن أن يكون انساناً مثلنا، بل يجب أن يكون من الملائكة، أو من عالم آخر؟! إنَّ الله خلق الناس كما يشاء، واختص بعضهم بصفات لم يعطها لآخرين، فما المانع من أن يختص بعض الناس برسالته، لأنه يرى فيهم من الخصائص الروحية والفكرية والعملية ما لا يراه في الآخرين؟! وإذا كان ذلك أمراً معقولاً، فيجب أن تفكروا بأن الله الذي يريد أن ينظِّم للناس حياتهم ويبين لهم سبيل هداهم، لا بد من أن يرسل رسولاً منهم لتحقيق هذا الهدف، لأنه لو كان الرسول من غيرهم، فسيقول الناس إنه من عالم آخر، ونحن لا نستطيع بلوغ ما يملكه أهل ذاك العالم من طاقة، ولا تدل تجربته في أي حقل على إمكان نجاحها كتجربة في حياة الناس، لأنه من الممكن أن تكون عناصر النجاح منطلقةً من الخصائص غير المحدودة لأهل ذلك العالم.

إنه استفهام للإنكار لا للمعرفة، إنه يريد أن يؤكد لهم الصفة والدور الذي تمثله، وهو الدعوة إلى التقوى من خلال الإنذار، من أجل أن يحصلوا على طاعة الله، فيحصلوا على الرحمة من خلال ذلك كله.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يلتفتوا إليه، وإلى كل معطيات الفكر الذي قدمه إليهم،

بل كان دورهم دور التكذيب القائم على العقدة المستعصية. وقد حدثنا الله في آيات أخرى، أنهم كانوا يسخرون منه، وأنهم أصمّوا أسماعهم، وأغمضوا عيونهم، وجمّدوا عقولهم، ولاحقوه بحقدهم وبغيهم... ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ ليبدأوا المسيرة الإنسانية الجديدة، بروح حيّةٍ فاعلةٍ، وإرادةٍ مؤمنةٍ واعيةٍ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالطوفان الذي لم يترك موضعاً لهم إلا واقتحمه وأغرقه، حتى أعالي الجبال، ليغرقوا جميعاً. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾، فقد كانوا يعيشون في ظلمةٍ دامسةٍ من أطماعهم وشهواتهم، بحيث غطّت على رؤيتهم الواعية للأشياء. وهذا ما عبرت عنه الآية بالعمى المراد منه عمى الفكر والقلب والشعور لا عمى البصر. وتلك هي مشكلة الكفر والضلال في حياة الكافرين والضالّين، فهم لا يفتحون عقولهم على الحق، ولا يحركون أفكارهم في اتجاه معرفة الحقيقة... وتلك هي قصّتنا الطويلة في مسيرة الدعوة إلى الله.

● □ ● □ ●

الآيـــات

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ
وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ
مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ
وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿سَفَاهَةٍ﴾: خفة الحلم، قال مؤرج: السفاهة: الجنون بلغة حمير[١].

﴿بَصْطَةً﴾: طولاً وقوة.

﴿ءَالَآءَ﴾: نعم.

﴿وَنَذَرَ﴾: نترك وندع.

﴿رِجْسٌ﴾: عذاب، وقيل الرجس: الرجز.

﴿دَابِرَ﴾: عقب، نسل، ذرية.

* * *

هود ـ بعد نوح ـ نبيٌّ لقومه

وهذه قصة نبيٍّ آخر أرسله الله إلى قومه ـ بعد نوح ـ وهو هودٌ الذي أرسل إلى قوم عاد، ونستوحي من آياتٍ أخرى، أن قوم عاد كانوا من العمالقة الذين يملكون أجساداً قويّةً تمكّنهم من اقتلاع الصخور الثقيلة من الجبال العالية إلى الوديان السحيقة، ومن حمل الأثقال بشكلٍ يفوق العادة. وربما كان لهذه القوة غير العادية تأثيرٌ على الشعور الذاتيّ بالشخصية المستكبرة المتعالية. ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي من عائلتهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. إنها الدعوة نفسها التي أطلقها نوح، فهي امتداد للخط الرسالي الذي يعتبر توحيد الإله في العقيدة والعبادة أساس الفلاح والنجاح.

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٦٧٢.

وقد نضيف إلى ما أسلفنا الحديث عنه، من التعليق على الدعوة إلى العبادة لا إلى الإيمان، أن هؤلاء القوم ربما كانوا من المؤمنين بالله، ولكنهم كانوا يشركون بعبادته غيره؛ فكانت الرسالة هي هدايتهم لتوحيد العبادة. ونلاحظ أن هوداً لم يتحدّث عن العذاب في مقام الدعوة، بل تحدث عن التقوى في إلحاحٍ إنكاريّ لابتعادهم عنها. وقد يكون ذلك أسلوباً يستهدف التخويف بطريقة أخرى، وذلك من خلال الإيحاء بالقوة المطلقة لله الذي لا إله غيره، مما يدفع بالإنسان إلى الشعور بالرهبة أمامه خوفاً من عقابه، ويدفعه إلى الالتزام بأوامره ونواهيه.

* * *

العقل في مواجهة الانفعال الطائش

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، لأنك لا تتكلم كلام الراشدين الذين يزنون كلامهم بميزان العقل، ويتصرّفون بالطريقة التي لا يسيئون بها إلى أنفسهم وإلى من حولهم، فأنت تواجه عقيدة الناس التي درج عليها الآباء، وتتمرّد على تقاليدهم، وتثير الجوّ الهادىء بأفكارٍ غريبةٍ تحوّل هدوءهم إلى عنف، وتصيب علاقاتهم الوثيقة بالتصدُّع والتمزُّق، وذلك ما توحي به كلمة «السفاهة» عندما يرمي بها إنسان إنساناً.

وربما يسمع الكثيرون من دعاة التغيير في كل مجتمع مثل هذه الكلمة، إذا كان هؤلاء الأشخاص لا يمثلون وزناً اجتماعياً كبيراً في حياة الناس. ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾. لم يقولوا له إنك من الكاذبين، لأنهم لا يملكون أساساً في الجزم بكذبه، أو لأنهم يريدون تخفيف التهمة ليصوروا أنفسهم بصورة من لا يريد إلقاء الكلام جزافاً، بل يعملون على إعطاء القضية دور المسألـــة الأكثر رجحاناً. ويبقى الأسلــوب أسلوب اللاّمناقشة في أصل

الفكرة، ولا تفكير في الموضوع، بل هو الكلام الانفعاليّ الذي ينفس عن العقدة بدل أن يواجهها بهدوء.

﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾، لأن للسفاهة مقاييس وعلامات تخضع للاهتزاز في الفكرة أو في الشخصية، فماذا وجدتم في أفكاري من ضعفٍ، وماذا اكتشفتم في شخصيتي من اهتزاز؟ هل ناقشتم طريقتي في الدعوة، ومنهجي في الفكر، وأسلوبي في العمل؟ وهل درستم هذه الطروحات التي أطرحها عليكم في آفاق الإيمان؟ إنكم لم تفعلوا ذلك كله، فكيف تحكمون بغير علم؟! لقد قالها هذا النبي بكل روحٍ هادئةٍ عقلانيةٍ، توحي بأننا إذا كنّا نتحرك في أجواء الدعوة إلى الله، فإن علينا أن نواجه أسلوب السباب والاتهام الّلامسؤول، بالأسلوب الهادىء الذي يعمل على إثارة التفكير في عقول هؤلاء الشاتمين والمتهمين، فإن ذلك قد يتحول إلى صدمةٍ عقلانيةٍ تقودهم إلى الموضوعية في حكمهم على الأشياء والأشخاص.

* * *

دور الرسول النصح لأمّته دوماً

وهذا ما يحاوله الدعاة إلى الله، الأدلاّء على سبيله، الذين لا يشعرون بأنهم يتحركون من مواقع ذاتية في مواجهة ردود الفعل السلبية القاسية، بل يتحركون من موقعٍ رساليٍّ ينتظر تحطيم مقاومة هؤلاء الضالّين، بالإصرار على الموقف الهادىء الكفيل بدفع الضالّين إلى احترام الفكرة الهادئة التي يطرحها الرسل من خلال احترامهم للعقل الهادىء الذي يوحي به الموقف الرسالي الواعي، الذي تمثَّل في موقف هود كنموذج حيٍّ رائد، عندما قال: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمۡ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وذلك هو دور الرسول في رسالته، أن يكون ناصحاً لأمته في حاضرها

ومستقبلها، أميناً على الحقيقة التي تفتح قلوب الناس على الله، وعلى الحياة الكريمة من خلاله، وعلى الرسالة التي يحملها بصدق، ويبلِّغها بوعيٍ وإيمان وقوة، وذلك هو دور كل داعيةٍ إلى الله في حركته الرسالية في حياة الناس، أن يعيش معهم بروحيّة الإنسان الذي ينصح لله في خلقه، ويكون أميناً على كل أوضاعهم العامة والخاصة على كل صعيد، وأن يجسِّد ذلك كله في أقواله وأفعاله.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ فما وجه العجب في ذلك؟ هل هناك ما يمنع أن يكون الرسول بشراً؟ ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ فأورثكم الله أرضهم وديارهم. ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ بما وهبكم من طول القامة، وقوة الجسد والعضلات... ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ ونعماءه وعظمته ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من خلال هذه الذكرى التي تفتح قلوبكم على الله، وتوحي لكم بكل خيرٍ ورحمة وإيمانٍ. إنه يستثير فيهم العناصر الطيِّبة الأصيلة التي يمكن أن تجعل منهم أناساً طيبين، تنفتح أفكارهم للمعرفة، وتنبض قلوبهم بالرحمة، وتعيش حياتهم للمسؤولية، وتتحرك خطواتهم في اتجاه الله...

* * *

منطق التوحيد في مواجهة منطق الشرك

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟ ما معنى هذه الدعوة التي جئتنا بها؟! إن معناها أن نتنكر لقدسيّة تاريخ الآباء، في ما يعتقدون ويمارسون من طقوس وعادات... وتلك قضية تهدّم البناء الاجتماعي للعشيرة القائم على أساس حرمة التاريخ. فلا بدّ من عبادة هذه الأصنام لتقرِّبنا إلى الله زلفى، ولتجعل من حياتنا امتداداً لحياة الأجداد، وهذا

ما يجعل المسألة لا تحتاج إلى بحثٍ أو مناقشة أو تعديل. . . فإذا كنت مصرّاً على دعوتك الهدامة ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلن نتبعك في شيء مما تقوله أو تدعو إليه، فليس بيننا وبينك إلا المواجهة في ساحة الصراع. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ الرجس هو الخبث والقذر؛ وربما كان هذا كنايةً عمّا يوقعه الله عليهم من العذاب المتمثل بما يلقيه عليهم من مظاهر العقاب الدنيويّ، الذي يؤثّر سلبياً على نفس الإنسان، تماماً كما هو القذر الذي يصيب الجسد. أمّا الغضب، فهو سخط الله المستتبع لعذاب النار، فقد حقّ عليكم القول بعد أن أقام الله عليكم الحجة، وتمردتم عليها. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾؟ ماذا تمثل هذه الأصنام غير ما تمثله الأشياء التي صنعتموها منها، من الحجر والخشب والنحاس؟ ماذا لديها من معاني الحياة والعلم والقدرة والخلق التي لا بد من توفرها في ذات الإله؟ ليس لها أية ميزةٍ إلّهيةٍ أو غير إلّهية، سوى أنكم أطلقتم عليها أو أطلق عليها آباؤكم أسماءً، وتحوّلت الأسماء إلى حقائق نفسيةٍ وعباديةٍ واجتماعيةٍ، يجادل فيها المجادلون ويتخاصم فيها المتخاصمون، فإذا أردتم الجدال المنتج، فجادلوا بالأشياء التي تحمل معنى حقيقياً في ذاتها وتأثيرها في الواقع، لا في هذه الأشياء التي صنعتموها بأيديكم ومنحتموها صفة الألوهية التي ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ من عقلٍ أو شرعٍ، فهي لا تمثل أيّة حقيقةٍ مقبولةٍ في أي مجالٍ.

* * *

نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فليست مسألة العذاب الذي أنذرتكم به، مما أملك أمر تنفيذه، لأواجه التحدّي الذي طرحتموه علي، لأنني لا أملك قوةً ذاتيةً في حجم القضايا الكونيّة، في ما ينزل من عذابٍ على الكافرين مما يخرج عن القوانين العادية للحياة، فذلك مما اختصّ به الله، فهو القادر على أن يرسل عذابه، بالقدرة نفسها التي يرسل بها رحمته. وما دام الله قد توعدكم بالعذاب، فانتظروا عذابه الذي سيأتيكم، إن عاجلاً أو آجلاً؛ إني منتظر ذلك معكم، لأن لي الثقة المطلقة برسالات ربي في وعده ووعيده. وجاء العذاب لهؤلاء المتمرّدين، فأهلكهم الله وأبادهم فلم يبق منهم أحد. أمّا هود والذين معه، فقد أنجاهم الله برحمته، لأنهم كانوا في مستوى المسؤولية في إيمانهم بالله، وطاعتهم له، وصمودهم أمام كل التحديات في سبيل الله... وذلك هو قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا مجال لأن تنالهم رحمة الله، لأنهم لم يتعلقوا من رحمته بشيء مما أراد لهم من موقف الإيمان.

● □ ● □ ●

الآيــات

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ
ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بَيِّنَةٌ﴾: علامة فاصلة بين الحق والباطل من جهة شهادتها به.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أنزلكم ومكّنكم من المنازل.

﴿تَعْثَوْا﴾: تفسدوا وتتجاوزوا الحدّ.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: نحروها.

﴿وَعَتَوْا﴾: تمرداً وتجاوزاً للحد في الفساد.

﴿الرَّجْفَةُ﴾: من الرجف، وهو الحركة والاضطراب.

﴿جَاثِمِينَ﴾: الجثوم: البروك على الركبة، والمراد به هنا الهلاك.

* * *

حديث عن قصة صالح مع قومه ثمود

في هذه الآيات حديث عن قصة صالح التي كرّرها القرآن في أكثر من سورة، تبعاً للدور الذي يمكن أن تقدّمه للقضايا الرسالية العملية التي يطرحها للناس في آياته. وهو نبيٌّ أرسله الله إلى قومه الذين جاءوا من بعد عاد، ليعالج مشاكلهم الإيمانية والحياتية، فيدعوهم إلى السير في خط الإيمان بالله، والالتزام بأوامره ونواهيه... وإذا كان لا بد لكل نبيٍّ من معجزةٍ للتحدي أو للضغط على القوة المعادية الضاغطة، فقد كانت معجزته أنه أخرج لهم ناقة عجائبية، تسقي القوم عن آخرهم، ولكنها كانت تشرب الماء كله، ولذلك فقد جعل لهم يوماً يشربون فيه، لا تشاركهم فيه الناقة، ويوماً تشرب فيه الناقة ولا

يشاركونها فيه، لأن هذا الماء يتحوّل إلى حليبٍ بقدرة الله. فضاقوا ذرعاً بذلك، بعد أن تدخّل المستكبرون بإثارة السلبية ضد هذا التوزيع الإلّهي، فتآمروا على قتل الناقة، وأوعزوا إلى شخصٍ منهم فعقرها وقتلها؛ فحمّلهم الله مسؤولية ذلك فعاقبهم جميعاً، لأن ما يجمع الناس الرضا والسخط، كما قال الإمام علي عليه السلام في بعض كلماته: «وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لما عمُّوه بالرضا فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾»[1] [الشعراء: ١٥٧]. هذه هي خلاصة القصّة، فكيف نتابع خطواتها في هذه الآيات؟

* * *

الخط الواحد لرسالة الأنبياء

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. وذلك هو الخط الواحد لرسالة الأنبياء في دعوتهم الناس إلى عبادة الله الواحد، كمنهج للفكر وللعمل وللحياة كلها... ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ توضح لكم قدرة الله في خلقه، وتؤكّد لكم صدق الرسول في رسالته، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ ومعجزةً خارجةً عن مألوف ما اعتدتموه من النوق التي تعرفونها، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، فهي لا تكلّفكم أيّة مؤونةٍ من غذاءٍ وغيره، فامنحوها الحرية في التجوّل في أرض الله لتأكل منها ما تشاء، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، ولا تعتدوا عليها بضرب أو جراحة أو قتل.. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لأن الاعتداء عليها يعني التمرد على الله والتحدي لنواهيه. ثم بدأ يحدثهم عن نعم الله التي أفاضها عليهم، وكيف سهل لهم الأمور ومهّد لهم الأسباب: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، ص: ٢٣٣، خطبة: ٢٠١.

﴿خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأسكنكم فيها، ومهّد لكم كل الوسائل التي تجعل من إقامتكم فيها فرصةً طيّبةً مريحةً في ما منحكم من القوة والغنى، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، لتكون الذكرى أساساً للتفكير العملي الواعي الذي يدفعكم للسير في نهجه القويم وخطّه المستقيم، كتعبير عن شكره. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ولا تتحركوا في الأرض بخطط الفساد والإفساد التي تسيء إلى حياة الناس وأمورهم العامة والخاصة، لأن الله يريد للإنسان أن يستعمل الطاقات التي أودعها فيه، أو سخرها له، وأن يحركها في إصلاح الحياة على الأسس التي أراد أن ترتكز عليها. فمن ينحرف عن هذا الخط، يعرّض نفسه لعذاب الله. وربما كان من الطبيعي أن يستوحوا تخطيطهم لحركة الإصلاح من تعاليم الله وما أوحى به لرسله، لأنها تمثل المنهج الأقوم في هذا الاتجاه.

* * *

المستضعفون يؤمنون بالنبي صالح عليه السلام

وكان في قومه مستضعفون ومستكبرون، فاستجاب له المستضعفون، لأنهم رأوا في دعوته الحقيقة الصافية التي كانوا يبحثون عنها، والروح الحرّة التي تنقذهم من عبوديتهم لضغوط المستكبرين، والإرادة القوية التي تمنحهم قوة الرفض لحالة الاستضعاف التي يفرضها عليهم الأقوياء... وهكذا آمنوا به وساروا معه. أما المستكبرون، فقد واجهوه بالتكذيب والكفر والتمرُّد من موقع الاستعلاء، لأنهم رأوا في هذه الدعوة نسفاً لامتيازاتهم الاستكبارية، لأنها تدعو للمساواة بين الناس، باعتبارهم متساوين في عبوديتهم لله، وفي إنسانيتهم وفي خصائصها البشرية، بعيداً عن امتيازات الغنى والقوة والنسب والجاه، فتلك أمورٌ لا تعتبر قيمةً كبيرةً في حساب الإيمان، بل القيمة الكبيرة

هي للتقوى وللعمل الصالح المنتج، على مستوى قضايا الحياة.

وهكذا وقفوا في وجه هذه الدعوة، ولكنهم كانوا يشعرون بالرعب والذعر من خلال تنامي قوة صالح عليه السلام في أوساط الفئات المحرومة الفقيرة من المستضعفين، مما قد يترك أثراً سلبياً على مستوى امتيازاتهم وسلطاتهم المستقبلية، باعتبار أن المستضعفين يمثّلون القوّة الحقيقية التي تدعم كل أوضاعهم السياسية والاقتصادية والعسكرية، فإذا انفصلوا عنهم واتّبعوا النبي الجديد، فمعنى ذلك أن القوّة ستنتقل إلى موقعٍ آخر، مما يجعلهم في موقف الضعف والنبي في موقف القوّة، ولذلك فقد حاولوا إثارة حالة من التشكيك عند المستضعفين المؤمنين ليقودوهم ـ بعد ذلك ـ إلى التمرد والكفر . .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؟! . . في لهجة الإنكار والاستغراب، كمن يقول لصاحبه: هل تصدق مثل هذا القول، أم أنك تمزح، أم أنك تنطلق في إقرارك من موقع المصلحة والطمع؟! ليقوده إلى التراجع طلباً لاحترامه، لأن من لا يملكون قوة الشخصية، يستعيرون ثقتهم بأنفسهم من رضا الآخرين عنهم، فإذا شعروا بأي نوعٍ من أنواع الاهتزاز في ثقة الناس بهم، لعدم رضاهم عن بعض أفكارهم أو مواقفهم أو تطلعاتهم، انكمشوا في داخل ذواتهم، وحاولوا استعادة ما فقدوه بالالتزام بما لا يؤمنون به، لمجرد أن الناس الكبار يؤمنون به، ويستريحون له. ولكن المستضعفين ـ الذين استطاعوا أن يحصلوا على قوّة الشخصيّة من خلال إيمانهم الجديد ـ واجهوا هذا الأسلوب بموقفٍ قويٍّ حاسم، يؤكد الوقفة الإيمانية كما لو كانت شيئاً لا يقبل التراجع مهما كلف الأمر؛ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ على أساس الوعي للرسالة، والإيمان بالفكرة، والقناعة بخط التحرك. . . وهذا لا يجعل من القضية شأناً ذاتياً خاضعاً للتغيير والتبديل على أساس حسابات الربح والخسارة، أو موازين

القوة والضعف، لأنها قضية حقٍّ وإيمانٍ وصدق... ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ في عملية تأكيدٍ للكفر، من أجل خلق حالةٍ نفسيةٍ ضاغطةٍ، تهز موقف المستضعفين أو تردُّ جانب التحدّي منهم بمثله. ولم تنفعهم تلك الأساليب في حربهم النفسية ضد المؤمنين شيئاً، ولم يكن لهم منطقٌ معقولٌ يمكن أن يعتمدوه كأساسٍ للمواجهة الفكرية في عملية ربح الموقف، فلجأوا إلى القوة، ولكنهم لم يستطيعوا مواجهة صالح والمؤمنين معه، فعمدوا إلى الناقة الضعيفة التي لا تملك أن تدافع عن نفسها ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ في حالةٍ من الطغيان، ووقفوا أمام صالح وقفة من يتحدى الإنذار بالعذاب؛ ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين يرتبطون بالله بعلاقةٍ وثيقةٍ، تتيح لهم أن يستنزلوا العذاب على معانديهم. وكان ردّ التحدي حازماً وسريعاً، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ واهتزت بهم الأرض. وكان الزلزال الذي ارتجفوا به، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، لا يستطيعون الوقوف والتحرك من مكانهم بفعل الموت. فماذا كان رد فعل صالح، وهو يرى فعل الله بهم؛ هل كان موقف شماتة وحقد؟ إن الأنبياء لا يشمتون، وأصحاب الرسالات لا يحقدون، لأن قلوبهم مملوءة بالمحبة والرحمة، وأرواحهم منطلقة بالخير والرأفة... ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم وابتعد عن هذا المنظر الأليم؛ ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ بكل ما فيها من حقٍّ وعدلٍ وخيرٍ وصلاحٍ، بكل تفاصيلها ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بالسير في خط الرسالة لتبلغوا مداها الأخير، وهو الجنة في الدار الآخرة بالإضافة إلى سعادة الدنيا... ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.. ولا تطيعونهم في ما يريدون أن يدلوكم على منابع الحب والخير والرحمة... وهكذا أسدل الستار على هذه القصة، لتبدأ قصة رسالية جديدة.

● □ ● □ ●

الآيــات

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ
مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم
مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿شَهْوَةً﴾: مطالبة النفس بفعل ما فيه اللذة.

﴿مُّسْرِفُونَ﴾: الإسراف: الخروج عن حدّ الحق إلى الفساد.

﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: الماضين من القوم.

* * *

لوط في مواجهة شذوذ قومه الجنسي

وهـذا نبـيٌّ آخـر مـن الأنبيـاء «المحليـين»، أرسلـه الله مـن خـلال إبراهيم عليه السلام ـ في ما يستفاد من بعض آيات القرآن ـ وذلك من أجل هدايتهم إلى الله، في خط الإيمان بشكلٍ عام، مع التأكيد على محاربة الفاحشة، المتمثلة بالشذوذ الجنسي المذكّر المعبر عنه باللواط نسبة إلى قوم لوط، إذ كانوا على ما يبدو أوّل ناس مارسوا هذا العمل الشاذ. وعاش هذا النبي معهم مدّةً من الزمن، يدعوهم إلى الله وإلى الابتعاد عن هذه الممارسات القبيحة. . . فلم يستجيبوا له، بل كانوا يواجهونه بالتحدي، استضعافاً لموقفه؛ حتى أنزل الله عليهم العذاب في الدنيا، وأنجى لوطاً ومن معه، ما عدا امرأته.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقد بدأ تاريخ هذا الشذوذ بهم. والاستفهام هنا للإنكار في مقام الردع. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فتنحرفون بذلك عن العلاقة الجنسية الطبيعية ما بين الرجال والنساء، وهي الوضع الطبيعي الذي تؤدي فيه الغريزة الجنسية دورها في عملية التناسل وحفظ النوع من جهة، وتلتحم ضمنه الجوانب الروحية الإنسانية بالجوانب المادية في نفس عملية الممارسة من جهة أخرى؛ بينما يضرب الشذوذ وظيفة الغريزة الجنسية الأساس، ويمثل، بالإضافة إلى ذلك ، حالةً مَرَضيّةً يقوم فيها الذكر بدوْر الأنثى نتيجة عقدة نفسية وانحراف مرضي. . ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فقد تجاوزتم الحدود الطبيعية للعلاقات الإنسانية، وانحرفتم عن الخطّ السليم، ولكن قومه كانوا قد أدمنوا هذه العادة، وأصبحت طابعاً مميزاً لحياتهم. وربما انطلق هذا الإسراف في أكثر من جانب من جوانب حياتهم، كنتيجةٍ طبيعيةٍ لعدم التزامهم بالخط الرسالي الذي تمثله رسالة لوط. ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ سادّين بذلك مجالات الحوار، لأنهم ليسوا مستعدين للتنازل عن عاداتهم، كما أن لوطاً غير مستعد للتراجع عن دعوته، ولذلك فإن الموقف لا يحتمل التسويات.

* * *

المجتمعات المنحرفة ترفض دعوة التطهّر

وقد عبّر قوم لوط عن هذه العقليّة من جانبهم في رفضهم للطهارة الأخلاقية التي تدعو إليها الرسالات، بما وصفوا به آل لوط، كتبريرٍ للدعوة لإخراجهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، فيقفون ضد أساليب القذارة في الحياة، ليثيروا في مجتمعنا سلبيات هذه الأساليب، فيخلقوا له عقدةً في ممارساته؛ ليتحول ذلك إلى حالةٍ رافضةٍ مستقبليةٍ في الأجيال الجديدة التي قد تتقبل مثل هذه الدعوات، لما تثيره في الإنسان من دوافع الفطرة. وربما كان هذا الأسلوب في الرد السلبي على دعوة التطهر، هو أسلوب المجتمعات المنحرفة التي تعتبر وجود الفئات الخيّرة، وما تثيره في المجتمع من معاني الخير والصلاح، تحدياً صامتاً لكل طروحاتهم وأوضاعهم، وهذا ما يجعلهم لا يطيقون التعايش معهم في بلدهم ـ حتى لو كانوا صامتين ـ لأنهم يخافون منهم على أنفسهم، قبل أن يخافوا منهم على غيرهم، لأن النفس قد تستيقظ على نوازع الخير في بعض حالاتها الطيّبة الهادئة، فتنجذب لا شعورياً إلى ما تدعوها إليه، وقد يتأكد هذا الاتجاه كلما تكرّرت الدعوة، أو حدثت الأجواء الملائمة لذلك... ولهذا يتحوّل ردُّ الفعل إلى مواجهةٍ عنيفةٍ بالتهديد بطردهم وقتلهم، وممارسة كل الأساليب السلبية ضدّهم، بعيداً عن كل حوارٍ أو لقاءٍ للحوار.

* * *

هلاك قوم لوط بانحرافهم

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ بعد أن قام برسالته كما يريد الله منه ذلك، وتحمّل في سبيلها الكثير من الجهد والمشقّة والعناء، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ التي كانت تتآمر مع قومها على لوط، وتتفق معهم في النهج والتفكير والعمل. . . فقد عاقبها الله بالعقاب نفسه الذي أنزله بهم، ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾، من البائدين الهالكين، في ما توحي به كلمة «الغابرين» من معنى الموت على سبيل الكناية ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ من نوع آخر، فقد كان ينزل عليهم الحصى المزوّد بطاقةٍ خاصةٍ قاتلة. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا في حقّ أنفسهم وفي حركة الحياة، فاعتبر بذلك ـ أيها الإنسان المؤمن ـ في ما تريد أن تقدم عليه من عملٍ في الخطّ الذي تلتقي فيه الرسالات، سلباً أو إيجاباً، لتحدِّد موقفك.

● □ ● □ ●

الآيـــات

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟
بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ
آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿فَأَوْفُوا﴾: الإيفاء: إتمام الشيء إلى حدّ الحق فيه.

﴿الْكَيْلَ﴾: تقدير الشيء بالمكيال حتى يظهر مقداره.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾: تقدير الشيء بالميزان.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾: البخس: النقص عن الحدّ الذي يوجبه الحق.

﴿تُفْسِدُوا﴾: الإفساد: إخراج الشيء إلى حدٍّ لا يُنتفع به بدلاً من حال يُنتفع بها. وضدّه الإصلاح.

﴿وَتَصُدُّونَ﴾: تصرفون عن الفعل بالإغواء فيه. يقال: صدّه عن الأمر: منعه.

﴿طَائِفَةٌ﴾: جماعة من الناس.

﴿مِلَّتِنَا﴾: طائفتنا.

﴿افْتَرَيْنَا﴾: الافتراء مشتق من فري الأديم، وهو مثل الاختلاف والافتعال.

﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾: غني بالمكان: أقام فيه وكأنه استغنى بذلك المكان عن غيره.

﴿ءَاسَىٰ﴾: أحزن كثيراً.

* * *

شعيب وقومه

وهذا نبيٌّ آخر أرسله الله إلى قومه لهدايتهم ومعالجة بعض الانحرافات الاقتصادية في تجارتهم مع الناس، التي كانت تتمثل بالتطفيف في المكيال والميزان، فيأخذون لأنفسهم ما يستحقّونه، ويعطون الناس أقل مما يستحقون. وننفتح في قصة شعيب وحواره مع قومه على موقفٍ أكثر قوةً من موقف لوط، فقد كانت لشعيب عشيرةٌ قويةٌ يُحسب لها حساب، وهذا ما جعل أسلوبه ـ في خطابه لقومه ـ يتّصف بالقوّة التي لا تبتعد عن الجوّ الرسالي الوديع الذي يحاول ـ من خلاله ـ أن يجرّهم إلى دعوته بالأسلوب الهادىء الليّن. ونلاحظ ـ في هذا الحوار ـ أنه استطاع أن يجلب إلى دعوته الجماعات المضطهدة والمستضعفة من قومه، ليواجه الجماعات الغنيّة المستكبرة. وربما يكون هذا منطلقاً من طبيعة الدعوة التي دعا إليها، والمفاهيم التي بشر بها؛ فإن التطفيف نوع من أنواع الاستغلال الاقتصادي الذي يتميّز به الأغنياء المستكبرون، حيث يعيشون مشاعر الأنانية وسلوكها، ممّا يجعلهم يفكّرون بالاستغلال عندما يشترون فيأخذون الزيادة لأنفسهم، ويفكّرون به عندما يبيعون، فيستغلون حاجة الآخرين إليهم لينقصوا من حقّهم بما يشاؤون.

ونحاول الآن الدخول في أجواء هذا الحوار القصصي القرآني، لنتمثل حركة الرسالة في حياة هذا النبي المصلح مع خصوم الرسالة والرسول.

* * *

الحق والإصلاح هما أساس كل خير

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فذلك هو السبيل لاستقامة المنهج في الحياة وارتكازه على قاعدةٍ ثابتةٍ في النفس وفي الحياة. ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في ما أوضحه الله لكم من دلائل قدرته ومظاهر عظمته وصدق رسوله، ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ واجعلوه تاماً من دون زيادةٍ ولا نقصان، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ فتنقصوهم حقّهم وتحرموهم منه، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ فقد أرادها الله ساحةً للتوازن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي على كل صعيدٍ، بما يجعل من الإخلال به إفساداً للأرض، بعد أن أصلحها الله في الخط التكويني للوجود، وفي الخطّ الفكري للعقيدة والتشريع، وهذا ما يؤكّد شموليّة التخطيط الإلّهي لحركة الإنسان في الحياة منذ القِدَم في ما يتطلّع إليه الدين من إقامة الكون على أساس الإصلاح في كل شيء ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فإن ذلك هو سبيل الفلاح في الدنيا، لأنه يصلح أمر الفرد والمجتمع في القضايا العامة والخاصة، وفي الآخرة، لأنه يؤدّي إلى الحصول على رضا الله في نطاق السير على الخط الإيماني الذي يضمن ذلك كله.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فقد كانوا يرصدون المؤمنين ويراقبونهم في كل طريق من طرق الاستقامة التي ينطلقون فيها على أساس الخط الفكري والعملي للإيمان، ليتوعّدوهم ويتهدّدوهم فيسدُّوا عليهم كل الأبواب والمنافذ، ليعطلوا مسيرتهم ويجمّدوا انطلاقتهم، من خلال الضغوط المتنوّعة التي تمنع المؤمنين من ممارسة حريتهم في الفكر والعمل... وهذا ما أراد

شعيب أن يحذّر منه، فيهيب بقومه أن لا يحرموا المؤمنين من حريتهم، كما لا يريدون هم أن يحرمهم الآخرون من هذه الحرية، وأن لا ينحرفوا بالطريق عن الخط المستقيم، لتتحرك في الاتجاه المعوج، لأن ذلك يبعدهم عن الاتجاه السليم الذي ينقذ حياتهم وحياة الآخرين.

* * *

شعيب في موقع التذكير والتحذير لقومه

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ في ما أفاض الله عليكم من نعمه، حيث جعل منكم قوةً بعد أن كنتم في مواقع الضعف، من خلال موازين الكثرة والقلة، فقد تنفع الذكرى، فتوحي إليكم بأن الذي أعطاكم نعمة القوة بالكثرة، قادرٌ على أن يسلبكم ذلك بالقلّة، فلا بد من شكر هذه النعمة، بالسير على ما يريده الله منكم.

﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ الذين استغلّوا نعم الله في إفساد البلاد والعباد، فأهلكهم الله بذنوبهم بعد أن ظنوا أن الحياة قد فتحت لهم ذراعيها، ومنحتهم كل شيء، واغتروا بكثرتهم وقوّتهم، ولكن قضايا المصير ترتبط بنهايات الأمور لا ببداياتها... فانظروا كيف كانت عاقبتهم السيئة، وكيف تحوّل كل ذلك الجوّ المملوء بالكبرياء والخيلاء إلى جوّ مليءٍ بالحقارة والذلّة والبلاء...

* * *

الأساليب السلبية لا تحل الخلافات الفكرية

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ ولا تتعقّدوا، ولا تتحركوا في أجواء العداوة والبغضاء، لتخلقوا من واقع الخلاف الفكري مشكلةً اجتماعيةً في مستوى الخصام والقتال، فذلك هو الوضع الطبيعيُ للحياة الإنسانية، في ما يطرح عليها من أفكار، فيختلف الناس فيها بين مؤيّدٍ ورافضٍ. ولا بدَّ لهم من الصبر على نوازعهم الذاتية كلها، ليجعلوا من اختلافهم أساساً لإغناء الفكر وتنمية التجربة، عندما تتحوّل الخلافات إلى حركةٍ فكرية من أجل الحوار، والى تحريك للخطوات المسؤولة من أجل الوحدة أو التقارب على أساس التفاهم المشترك، ومن أجل المصير الواحد، في حين أن اللجوء إلى الأساليب السلبيّة العنيفة لا يحل لهم مشكلة الفكر بل يعقّدها، لأنه يغلق على الفكر أبواب الانطلاق إلى الآفاق البعيدة، ويعطّل حركته عن التأمّل والتعمُّق في هذه القضايا المتنوّعة، ويحوّله إلى طاقةٍ جامدةٍ لا تعطي شيئاً، ولا تساهم في الوصول إلى حلّ.

وإذا كانت هذه الأساليب لا تحلّ للفكر مشكلته، فإنها لا تكتفي بذلك، بل تضيف للناس مشاكل جديدة، على مستوى الحياة العامة والخاصة، وهكذا تتنامى روح الحقد والبغضاء، لتكون النتيجة مزيداً من الدمار والهلاك والفساد. . . وهذا ما جعل الأنبياء يبادرون إلى طرح الأساليب الهادئة العاقلة الموحية في حل النزاعات والخلافات الفكرية والحياتيــة، ويوجهون الناس إلى اعتماد الصبر كطاقةٍ إنسانيةٍ تمنح الإنسان القوّة للتغلُّب على العوامل السلبية الداخلية التي تثيرها النوازع الذاتية، ليستطيع ـ بذلك ـ النظر إلى الأمور بموضوعيّةٍ ووضوح، فيعرف طبيعة المشكلة من خلال عناصرها الحقيقية؛ ليواجه مسألة الحل بعقلٍ منفتحٍ مستنيرٍ. ولهذا كان شعيب يطلب من قومه

التحلي بالصبر على هذا الاختلاف في المواقف ما بين الإيمان بالرسالة والكفر بها. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في الدنيا، بما يظهره من الحق لنا في ما نعتقده وندعو إليه من خلال ما نخوضه معكم من أساليب الحوار إذا وافقتم على الدخول معنا في أجواء الحوار، وفي الآخرة حين يقوم الناس لرب العالمين حيث يُعرَفُ المحقّ من المبطل، والمصيب من المخطىء... ويحكم الله بذلك وهو خير الحاكمين.

* * *

منطق الاستعلاء في مواجهة منطق العقل والحوار

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ إنه المنطق الذي لا يحاور ولا يناقش، لأنه لا يملك أدوات الحوار وروحيته، بل يملك أدوات القوة، فهو يتهدّد ويتوعّد، فليس هناك مجالٌ للتفاهم، لأن التفاهم يهزم المبطلين الذين لا يملكون حجّةً، ولا يرجعون في قناعاتهم إلى أساسٍ، وبذلك فإنهم يعيشون الشعور بالضعف أمام دعوة الحوار والتفاهم، فيحاولون تغطية ذلك بأساليب التهديد والوعيد. ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ هل القضية قضيّة إكراهٍ وإجبارٍ؟ إن الإنسان قد ينجح في إجبار إنسان آخر على عملٍ ما أو علاقةٍ ما بالقوة، بامتلاكه لوسائل الضغط المادي التي تمكنه من ذلك، ولكنه لن ينجح في إكراهه على أن يعتقد بما لا يقتنع به، لأنّ العقيدة لا تخضع لإكراه وإجبارٍ. وهذا ما يدفعنا إلى الإعلان بأننا نكره هذا الاتجاه الذي تنطلقونَ فيه، ولا نؤمن بشيءٍ من طروحاته...

* * *

ثبات شعيب في مواجهة قومه

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ إننا لا نجد في ملّتكم أساساً من الحقّ، سواءٌ في عبادتكم للأصنام، أو في صدّكم عن سبيل الله، أو في إظهاركم الفساد في الأرض، أو في انحرافكم عن العدل في علاقاتكم ومعاملاتكم. . . وقد نجانا الله منها بما هدانا لدينه، وبما عرّفنا من ضلال ما خالفه ومن خالفه؛ فكيف نرجع إلى خط الضلال، وهل هذا إلا الافتراء على الله بالكذب؛ بأن ننسب إليه ما تنسبونه إليه من شركاء دون علم ولا هدى ولا كتاب مبين. ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ وكيف يعود إلى الظلام من عاش إشراقة النور في قلبه وفي وجدانه؟! إننا لن نعود مهما كانت الضغوط والتحديات، ومهما كانت الأوضاع السلبية المحيطة بنا. ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن نعود فيها ولن يشاء الله لنا ذلك، لأنه لا يمكن أن يأمر عباده بالضلال إذا كانت المشيئة بالاختيار، ولا يجبرهم عليه، إذا كانت المشيئة بالقهر، ولكنه أسلوب التأدّب مع الله بإظهار الاستسلام له والخضوع لمشيئته.

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فهو يعلم سرّنا وعلانيتنا، وإخلاصنا له، وجهدنا في سبيله، كما يعلم طغيانكم وتمرّدكم وظلمكم لنا. . . ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فهو مصدر القوّة، ومنه قوة كل شيء، ولا يملك معه أحد أي شيءٍ من القوّة. ونحن نتوكل عليه ونلجأ إلى حصنه، ليحمينا منكم ومن كل قوّةٍ غاشمةٍ ظالمةٍ.

وتابعوا مسيرتهم بكل قوّةٍ وإيمانٍ، وشعروا في الطريق ـ وهم يعلنون التوكل على الله الذي وسع كل شيء علماً ـ بالخشوع يهيمن على مشاعرهم، ويفيض على أرواحهم، فتوجّهوا إليه في أجواء روحانيةٍ، تفصلهم عن قومهم، وعن كل هذه الأحاديث الاستعراضية التي سمعوها منهم في ابتهالٍ وإيمان

وإخلاص: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فهم لم يتعقّدوا من كل أساليب قومهم، ولم يبادروا بالدعاء عليهم، بل ابتهلوا إلى الله أن يفتح بينهم وبين قومهم، ويردم الهوّة الواسعة فيما بينهم بالحق، لأنهم لا يريدون للعلاقات الإنسانية أن تخضع للتسويات وفق حساب الباطل، بل يريدونها أن ترتكز على حساب الحق. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ لأنك تعرف كل ما يصلح أمور خلقك في ما يتّفقون فيه أو يختلفون.

* * *

الله ينصر شعيب ومن معه

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهم يلتفتون إلى قوم شعيب ليجرّبوا أن يهزموهم نفسياً بأساليب التخويف من النتائج السلبية والعواقب الوخيمة: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، لأن شعيباً لا يملك الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية التي تجعل من الارتباط به أو اتّباعه مسألةً مُربحةً، بل على العكس من ذلك، فإن دعوته تعزل أتباعه عن الفعاليات التي تملك القوة والجاه والمال، وتمنعهم من الحصول على الامتيازات المتنوعة والفرص الجيّدة الموجودة عندهم، فيخسرون ذلك كله من دون مقابل، لأن شعيباً لا يمثل شيئاً ـ أيَّ شيء ـ. وكان هذا الإنذار الأخير الذي وجّهوه إليهم، فماذا كانت النتيجة؟ لقد انقلب السحر على الساحر، وأصبح من كذبوا شعيباً هم الذين خسروا الدنيا والآخرة، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ لا يملكون حراكاً، فقد أحاط بهم الموت من كل جانب. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ فلم ينفعوا أنفسهم شيئاً، وذهب كل جهدهم هباءً في هباءٍ. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. أمّا هؤلاء الذين آمنوا بشعيب فهم الرابحون المفلحون، لأنهم حصلوا على طمأنينة الروح في الدنيا وعلى رضوان

الله في الآخرة.

* * *

لا أسف على الكافرين

ووقف شعيب أمام هذا المشهد الرهيب، مشهد هؤلاء الذين كذّبوه وأرادوا أن يطردوه، وهم جاثمون في دارهم، فلم يكن ردّ فعله التشفّي أو الشماتة، بل الأسف على هؤلاء القوم الذين أوصلوا أنفسهم إلى هذه النتيجة الخاسرة، لأنهم لم ينفتحوا على الله من موقع الإيمان. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، فلم أدّخر أيّ جهدٍ في إبلاغ الرسالات وفي تقديم النصائح، ولكنكم لم تستجيبوا لي، ولم تفكّروا في ذلك كله، فاستسلمتم للكفر والجحود والعصيان ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ وأحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، لأنني أعيش في مشاعري روح الإيمان بالله؟! وفي هذا الجوّ، لا بد للمؤمن من أن يتعاطف مع من يحبّون الله ويحملون مسؤولية الحياة بمناهج الحق، أمّا من يحبّون أنفسهم ويتمرّدون على الله، ويملأون الحياة كفراً وضلالاً وانحرافاً، فلا مجال للأسف عليهم، لأنهم اختاروا طريق الضلال والهلاك بملء إرادتهم واختيارهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

● □ ● □ ●

الآيتـان

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: بالشدّة.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: ما يضرّ الإنسان ماديّاً أو أدبياً.

﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: يخضعون.

﴿عَفَوا۟﴾: العفو: الترك.

﴿بَغْتَةً﴾: فجأةً، وهي الأخذ على غرّة من غير تقدمةٍ تؤذن بالنّازلة.

* * *

سنّة الله في أهل القرى

وتلك هي سنة الله في الجماعات التي يعيش بينهم الأنبياء، فإنّ الله يهيّىء لهم الأجواء التي تفتح قلوبهم عليه، وترجعهم إليه، فقد يمرّ زمنٌ طويلٌ يعيش فيه الناس الشدائد والأهوال والعوامل المضرّة بأبدانهم وأموالهم تحت ضغط الظروف القاسية التي تتحرك أسبابها بإرادة الله، ليلجأوا إليه، وليتضرّعوا فيطلبوا منه الخلاص، ليتحقّق من خلال ذلك الانفتاح على الإيمان وعلى خطّ الرسالات، ثم يبدِّل الله الشدة بالرخاء، والسيئة بالحسنة، والضرّاء بالسرّاء، حتى يستسلم الناس في إغفاءة الغفلة لحالة الاسترخاء المريح، فيعودون إلى شهواتهم ولذاتهم يعبّون منها ما يشاؤون، بعيداً عن كل مسؤوليّة، وعندما تذكرهم بالتاريخ القريب الذي عاشوا فيه الآلام وواجهوا فيه الأهوال، يبتعدون عن وحي العبرة فيه وحركة الموعظة في مضمونه، ليقولوا إنها سنّة الطبيعة، وحركة الحياة، من دون أن يكون للغيب دخلٌ فيه؛ فقد عاش آباؤنا الجو نفسه الذي نعيشه، فمستهم الضرّاء حيناً والسرّاء حيناً آخر، وتلك هي طبيعة الحياة؛ فلماذا نحمّلها أكثر مما تتحمل، ونحاول أن ننفذ منها إلى أجواء الغيب وقضايا الكفر والإيمان، فليس للغيب أي دخل في ذلك من قريبٍ أو من بعيد؟!

ولكن الله لا يغفر لهم هذا المنطق، فقد يكون صحيحاً أن قضية الشدّة والرخاء هي من سنة الحياة، ولكنها السنّة التي خلقها الله في نطاق الكون، ليسير على قاعدةٍ ثابتةٍ حكيمةٍ. وقد يهيّىء الله الظروف التي تثيرها سننه، من أجل أن يثير وضعاً معيّناً هنا ووضعاً معيّناً هناك، ليكون ذلك امتحاناً للإنسان في أجواء الإيمان والكفر، وليتحرّك الإنسان وقت الضيق ليبتهل إلى الله في رفع ذلك عنه، وليشعر ـ بعد الفرج ـ بنعمة الله عليه، ليكون الله هو الأساس

في حالتي البلاء والعافية، ليشكر ولا يكفر. ولهذا فقد غضب الله على هؤلاء، لأنهم استكبروا على الله، واستخفّوا بالأنبياء، وكذّبوا الرسالات، فأخذهم الله فجأة بشكل غير متوقع، وهم لا يشعرون.

وهذا ما ينبغي للإنسان أن يلتفت إليه، فيأخذ من كل ظاهرةٍ من ظواهر الحياة التي تمرّ به من بلاءٍ وعافيةٍ درساً ينفتح به على الله، فيعيش معه حالة التضرُّع والابتهال والدعاء، ويعيش في مجالٍ آخر حالة الشكر والطاعة والرضى، فيبقى مع الله في كل شيء، في جميع الظروف والأحوال، لأنّ ذلك هو المعنى العميق للإيمان في نفسه، في ما يتحرك به الإيمان من مشاعر ومواقف في حياة الإنسان.

●□●□●

الآيــات

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ
أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بَرَكَٰتٍ﴾: خيرات كثيرة ونامية.

﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا.

﴿بَيَٰتًا﴾: وقت مبيتهم، وهو الليل.

﴿ضُحًى﴾: وقت انبساط الشمس.

* * *

التقوى مفتاح بركات السماوات والأرض

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ فانفتحوا على الله في مشاعرهم وأفكارهم، وانفتحوا على الحياة بتطلّعاتهم وغاياتهم، وانطلقوا مع الناس الآخرين في علاقاتهم ومعاملاتهم، وعرفوا الإيمان كمنهجٍ للفكر والعمل، والتزموا بالخطّ المستقيم الذي يريده الله ويرضاه ويرضى عمّن سار عليه في ما تعطيه التقوى من معنى الانضباط والالتزام. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في ما يثيره الإيمان، وتتحرك به التقوى من البركات في انطلاقة الخير من فكر الإنسان وروحه وعمله، فتنمو الطاقات، وتتحرّك بالعطاء، وتنطلق بالخير، وتتحول الحياة ـ من خلال ذلك ـ إلى حركةٍ مسؤولةٍ في اتجاه الصلاح والإصلاح، وبذلك تتحرك بركات الأرض والسماء إلى نهر يتدفّق بكل ما يصلح الحياة والإنسان؛ لأن الإيمان والتقوى يعمّقان في الذات معنى المسؤولية التي تبتعد عن العبث والفساد والأنانية، فلا يبقى هناك إلا ما ينفع الناس، وبذلك تكون علاقة الإيمان والتقوى بالبركات علاقةً ترتبط بينابيع الخير التي يفجّرها عقل الإنسان وروحه وإرادته، في حركة المواقف والعلاقات والأعمال في الحياة. ويبقى للغيب دوره في هذا كله؛ فلله ألطافٌ خفيّةٌ من حيث لا نعرف، وله أرزاقٌ ونعم كثيرة يغدقها علينا من حيث لا نشعر. وهي أمورٌ لا تخضع لما نعرفه من قوانين الحياة العادية، بل هي غيبٌ ننتظره كلما أحسسنا بالرضى من الله ينساب في أعماقنا لطفاً وبركةً وإيماناً.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ وابتعدوا عن خطّ الخير والصلاح، وارتبطوا بالخطّ الشيطانيّ الذي يوحي بالشرّ والفساد، وتحوّلت الحياة عندهم إلى فرصة للّهو

والعبث والاسترخاء في أجواء الكسل والراحة، فانفصلوا ـ بذلك ـ عن أجواء المسؤولية المنفتحة على رضى الله، فكان من نتائج ذلك أن ابتعد الناس عن الآفاق التي توحي لهم بروح الحق والعدل والسلام، فحقّ عليهم غضب الله وعذابه، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ في ما يستحقونه من عقاب الله، بسبب عصيانهم أوامره ونواهيه، وفي ما تنتجه أعمالهم ومواقفهم من نتائج سلبيّةٍ على الأوضاع العامّة في حياتهم، على أساس ارتباط النتائج بمقدّماتها الطبيعيّة. وبهذا نفهم ارتباط الأخذ الإلّهي بالكسب السلبي للإنسان ـ في مواقف المعصية ـ بجانب الاستحقاق من جهة، وبطبيعة الأشياء من جهةٍ أخرى، فيلتقي فيه الجانب الغيبي بالجانب المادّي من الحياة.

* * *

لا مأمن للخاسرين من مكر الله

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ وهو وقت المبيت في الليل ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ كيف ينامون في إحساس بالطمأنينة والأمن، وهم يعرفون أنّ الله قد ينزل عذابه في أيّ وقتٍ من الأوقات كما حدث لجماعاتٍ أخرى من أمثالهم في الماضي؟ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟ فكيف يستسلمون للّعب في وقت الضحى، ولا يخافون أن ينزل عليهم عذابه في ذلك الوقت؟ أيّ أساس للأمن هنا وهناك، في ما يشعر به هؤلاء الذين واجهوا الله بالكفر والتمرد والمعصية؟

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ في ما يدبّره ويقضيه ويقدّره ضدّ هؤلاء الذين عاشوا الكبرياء والخيلاء والشعور بالقدرة المطلقة في ما يمكرون ويخططون من خطط الاحتيال، وكيف يغفلون عن إحاطة الله بهم من كل جانب، ويأمنون مكره؟ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين لا يعيشون الخوف منه،

ولا يستعدّون للتراجع عن المواقف التي تثير ذلك كله، فيخسرون دنياهم وآخرتهم. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾أفلم يتبين لهم من خلال دراستهم تاريخ الأمم التي سبقتهم، وذاقت نتائج أعمالها وذنوبها، ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا أولئك في ما أنزلناه عليهم من العذاب بسبب ذنوبهم؟! ولكن الإنسان الذي يستسلم لشهواته وملذاته، ويستغرق في دائرة مصالحه الذاتية، ويعيش الحياة كفرصةٍ للّهو والعبث والاسترخاء، وينسى دوره في الحياة كإنسانٍ مسؤول، سوف يعيش الغفلة التي تغلق قلبه وعقله وحياته عن الله، وبذلك تتحوّل كلها إلى مناطق لا تدخلها موعظة، ولا تحركها نصيحة. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فنختم عليها من خلال ما فعلوه، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

● □ ● □ ●

الآيتــان

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ
أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: نتلو عليك.

﴿أَنۢبَآئِهَا﴾: النبأ: الخبر عن أمر عظيم الشأن، ولذلك أخذ منه اسم نبيّ.

* * *

لا عهد للكافرين

وهكذا يختم الله هذا الفصل الذي حدثنا فيه عن هؤلاء الأقوام الذين قصّ علينا أمرهم، فقد كانوا قوماً ضالّين، يعبدون الأصنام ويشركون بالله غيره، ويكذبون بكل الحقائق الدينية، وأرسل الله إليهم رسله بالبينات، فصمّوا آذانهم عن الاستماع إليهم، وأغلقوا قلوبهم عن التفكير والإيمان، لأنهم لا يريدون أن تتغيّر حياتهم الفكرية والعملية عما درجوا عليه من عقائد آبائهم وأجدادهم وتقاليدهم، وهذا هو السبب في انغلاق القلب عن الحقّ، لأن توجهات الإنسان وتطلعاته هي التي تفتح قلبه وتغلقه، في ما جعله الله من أسباب في خلق الإنسان، وهذا ما أثاره الله في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ من حقائق الإيمان ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ برسله وآياته.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ﴾، لأن الإنسان الذي لا يؤمن بالله، كما ينبغي للإيمان أن يكون، لا يشعر بما يلزمه بالمواثيق، فهو لا يعطي ميثاقاً لأحدٍ يقيّده في حياته، وإذا أعطى مثل هذا الميثاق لمصلحةٍ شخصيةٍ أو هوًى ذاتيّ، فإنه لا يجد أساساً روحياً للالتزام به، إذا لم يكن هناك ضغطٌ ماديّ يلزمه بذلك، فعهد الإيمان بين الإنسان وربّه، هو الذي يجعل من الإنسان إنساناً ملتزماً يحفظ للناس عهودهم. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ منحرفين عن خط الهدى والإيمان، وذلك هو شأن الأكثرية التي اتّبعت أهواءها. أما المخلصون الذين وقفوا ضدَّ التيّار ـ تيّار الكفر والشهوات والضلال ـ فهؤلاء هم الأقليّة التي عرفت الحق فآمنت به، وعرفت الرسول فصدّقته واتّبعته وسارت معه.

● □ ● □ ●

الآيـــات

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ
بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بَعَثْنَا﴾: أرسلنا.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾: جحدوا بها.

﴿حَقِيقٌ﴾: جدير.

﴿ثُعْبَانٌ﴾: حيّة ضخمة طويلة. قال الفراء: الثعبان أعظم الحيّات وهو الذكر[١].

﴿وَنَزَعَ﴾ الشيء: أخرجه من مكانه.

﴿لَسَاحِرٌ﴾؛ السحر: لطف الحيلة في إظهار أعجوبة توهم المعجزة. وقال الأزهري: السحر صرف الشّيء عن حقيقته إلى غيره، وأصل السحر خفاء الأمر[٢].

﴿أَرْجِهْ﴾؛ أرجأ الشيء: أخّره وأجّله.

﴿الْمَدَائِنِ﴾: جمع مدينة.

* * *

موسى وفرعون

وجاء موسى ليواجه الطغيان والجبروت، الذي يمثّله فرعون الذي كان يرى في ذاته شيئاً من سرّ الألوهية التي توحي بالقدرة، وتدعو إلى العبادة، وتدفع إلى السيطرة، ولم يكن شأن موسى كشأن نوحٍ وهود وصالح وشعيب ولوط في إرساله إلى قومه، فلم تكن لديه مشكلة صراع مع قومه في البداية، بل كان صراعه القويّ مع فرعون وجماعته من الأشراف، الذين كانوا يمثلون الطبقة العليا في المجتمع، ويشعرون بأن وجودهم في ما يملكون من مواقع وامتيازاتٍ مرتبط بوجود فرعون وسلطته، ولهذا كانوا يدعمونه ويتزلّفون إليه. وكانت بعض مشاكله مع فرعون أن يرفع يده عن قومه، فلا يستعبدهم

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٧٠٢.

(٢) (م.ن)، ج: ٤، ٧٠٧.

ويضطهدهم ويسخّرهم في الأعمال الشاقة لمصالحه، بدون أجرٍ أو بأقل قدرٍ ممكن منه مقابل ما يبذلونه من جهد، فيدعوه إلى أن يتركهم وشأنهم ليمارسوا حريتهم في ما يريدون وما لا يريدون. وكان الموقف موقف التحدي القويّ الذي واجه به موسى فرعون، وكان ردّ التحدّي ـ في بداية الأمر ـ ضعيفاً في موقف فرعون، وقد يكون ذلك ناشئاً من الإحراج الذي واجهه أمام آيات الله. ثـم تطـوّرت الأمـور بينهمـا، وتعقّـدت الأوضـاع، وتصـاعـدت المـواجهـة بالمجابهة، وأنزل الله البلاء على فرعون وقومه... وكانت النهاية لمصلحة موسى في نهاية المطاف، كما نرى ذلك من خلال متابعة آيات السورة.

* * *

جحود فرعون لآيات الله تعالى

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ ـ والضمير يعود إلى الأنبياء الخمسة الذين تقدم ذكرهم ـ ﴿مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وهم الجماعة التي كانت تشاركه في الحكم، وتدعمه في السلطة من الطغاة الصغار الذين كانوا يشكّلون طبقة السادة والأشراف في المجتمع، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ وجحدوها وكفروا بها... وذلك هو مظهر الظلم في قضايا العقيدة والكفر، في ما يظلم الإنسان به نفسه وربّه، والحقّ الذي يقدّم إليه... وامتد بهم الظلم والطغيان حتى لاقوا جزاء ظلمهم وطغيانهم في ما أنزله الله عليهم من العذاب ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين ملأوا الأرض فساداً، واعتبر بذلك في ما تريد وما لا تريد، وهذه هي بداية القصة في المواجهة الأولى.

* * *

موسى عليه السلام يؤكد نبوّته

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فقد أرسلني الله لأُبلغكم وحيه، وأقودكم إلى هداه، وأدعوكم إلى السير على نهجه وشريعته ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ وإذا كان الله قد اختارني لرسالته، فمن الطبيعيّ أن أكون في موضع الثقة عنده، وأن أرتفع إلى مستواها، فأكون جديراً بالموقف الصادق الذي يجعلني ألتزم بالحق كما أنزله الله، فلا أقول غيره. ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فلست مدّعياً يكتفي بالدعوى في تأكيد موقفه، فلديّ بيّنة على ما أدّعيه، ولكم أن تفكّروا فيها وتناقشوها، وإن كنت أعتقد أنها لا تحتاج إلى تفكير لوضوح مضمونها ومدلولها.

* * *

موسى عليه السلام يسعى لتحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، هؤلاء الذين يعيشون الاضطهاد والاستعباد والذلّ والقهر، فلا يملكون إرادة الحياة بما تفرضه من حركة الاختيار وتقرير المصير؛ الأمر الذي جعلهم يتبلّدون ويتصاغرون ويستسلمون للأمر الواقع، دون أدنى تفكير في التغيير، لاعتقادهم أن الظلم هو القضاء الذي لا يتبدل، والقدر الذي لا يتغيّر، على أساس أنه إرادة الله. وقد جاءت رسالة الأنبياء من أجل تحرير الإنسان من هذا الواقع الاستعباديّ الاستضعافيّ، ليعيش حريته، ويمارس قوّته، ويتحوّل من عنصرٍ منفعلٍ بإرادة الآخرين، إلى عنصرٍ فاعلٍ من خلال إرادته الحرّة القويّة... وهذا ما أراده موسى عندما طلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، ويرفع يده عنهم ويتركهم وشأنهم في ما يتصرفون به

من شؤونهم الحياتية، وبذلك يستطيع أن يفرّغ سلطان فرعون من قوته الحقيقية، لأنّ المستضعفين هم القوّة الضاربة بيد المستكبرين، بما يقدّمونه إليهم من طاقاتٍ كبيرة، فهم المظلومون الذين يستخدمهم الظالمون، ليكونوا أدوات الظلم ضدّ بعضهم البعض، وضدّ الآخرين، وقد تكون مشكلتهم كامنة في هذا الإيحاء المتواصل بمظلوميتهم الذي يعمّق في أنفسهم الشعور بالضعف، مما يجمّد في داخلهم أية طاقةٍ للحركة في نطاق الثورة والتغيير، ويركز فيهم فكرة الاستسلام للأمر الواقع، فكان لا بد من إخراجهم من هذا الجو كله، وتوعيتهم بأن الطغاة لا يملكون القوّة الذاتية، لأن قوتهم مستمدّة من قوتهم ـ هم ـ ليتنفسوا هواء الحرية فيعملوا على أن يصيروا أحراراً، ويتخلصوا من أجواء الاستسلام، ليفكروا بعملية التغيير.

ولم يكن فعل موسى صادراً في ذلك من عقدةٍ عائلية قوميّة، بل كان صادراً من فكرةٍ رساليةٍ شاملة. أمّا خصوصيّة هؤلاء، فقد تكون باعتبارهم الفئة الوحيدة المستضعفة في ذلك البلد، أو لأن مطالبته بهم ـ وهم قومه تحمل مبرراً معقولاً في ذهنية المجتمع هناك، إذ لا بد للإنسان من التفكير بقومه، وتحمّل مسؤوليتهم. أما القوم الآخرون، فقد يرون أنه لا شأن له بهم، ولهذا فإنه لا يملك حقاً في المطالبة بهم، وبذلك تدخل هذه المطالبة الخطوة الأولى في الطريق الطويل.

* * *

موسى عليه السلام يقدم بيّنة نبوّته لفرعون

ولم يبدر من فرعون أيّ ردّ فعلٍ عنيف ضدّ موسى، بل فكَّر ـ في ما يبدو من جوّ الآية ـ بأن التخلص منه أمرٌ ممكنٌ وفي المتناول، لاعتقاده بأن موسى لا يملك دور الرسول، فإنه لا يملك حجةً على ما يدّعي، فإذا طولب بالبينة

التي لا بد أن تكون في مستوى المعجزة الخارقة للعادة، تراجع وانهزم وانكمش في موقفه، فينفضح أمره، ويتبين زيف دعواه من دون مشاكل. ولهذا فقد بدأ بمطالبته بإظهار الآية الدالّة على صدقه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وكان فرعون ينتظر أن يعتذر موسى ويتراجع، ولكن المفاجأة كانت بانتظاره ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ودبّ الرعب في قلب فرعون، ولكنه تمالك نفسه. وجاءت المعجزة الثانية ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ مع أن موسى كان أسمر اللون، فكيف تحولت يده إلى هذا البياض الناصع من غير مرض؟ وعقدت المفاجأة لسان فرعون، فلم يتكلم بشيء، وكأنه أحسّ بصدق موسى. وربما عاش بعض التردّد في سر ما رآه، هل هو معجزةٌ أم سحر؟

وشعر قومه الذين هم جهاز سلطته بهذه الحيرة التي أخذت تأكل قلب فرعون. وربما خافوا أن تتحوّل الحيرة إلى قناعةٍ وإيمانٍ بصدق موسى، فيميل إليه، فيفقدون بذلك سلطانهم، فتدخّلوا ليحسموا الموضوع عنده، ليؤكدوا أن ما قام به موسى هو سحر، وأن موسى ليس نبياً، بل هو ساحرٌ عليمٌ يملك المزيد من القدرة والمعرفة في هذا الفنّ. وكان مثل هذا الاحتمال قريباً إلى أجواء المجتمع هناك، لأنّ ألاعيب السحر التي تماثل ما قام به موسى في الشكل، كانت مألوفةً لديهم.

* * *

ملأ فرعون يتهمون موسى عليه السلام بالسحر

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾. وذلك هو أسلوب الطغاة

في كل زمانٍ ومكان، فهم يثيرون في وجه الدعاة إلى الله الكلمات التي تبطل دعواهم، أو تثير حولها الشك، من خلال الأفكار السلبيّة المطروحة لديهم. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ بسحره، في ما كانوا يعتقدونه من قدرة السحرة على ممارسة كل أساليب الضغط، وكل وسائل السيطرة، فيفقدهم سلطانهم، ويقودهم إلى متاهات الضياع. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هل هذا قول فرعون، أم قولهم لبعضهم البعض؟ ربما كان الأرجح الأول، بدليل الآية التالية ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخرهما، ولا تنتقم منهما، حتى يظهر للناس كذبهما، فلا يتبع قولهما أحد من بعد ذلك، ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون الناس في مكانٍ واحد ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ليواجهوا السحر بسحر أقوى منه، فتبطل دعواه ويفتضح أمره.

●□●□●

الآيـــات

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا
نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا
هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي
ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ
ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أرهبوهم وخوّفوهم.

﴿تَلْقَفُ﴾: تتناول الشيء بحذق وسرعة.

﴿يَأْفِكُونَ﴾؛ الإفك: قلب الشيء عن وجهه في الأصل، ومنه الإفك الكذب، لأنه قلب المعنى عن جهة الصواب.

﴿فَوَقَعَ﴾: الوقوع في الأصل هو السقوط.

﴿الْحَقُّ﴾: كون الشيء في موضعه الذي اقتضته الحكمة.

﴿وَبَطَلَ﴾؛ الباطل: الكائن بحيث يؤدّي إلى الهلاك، وهو نقيض الحق الذي هو كون الشيء بحيث يؤدّي إلى النجاة والغلبة والظفر بالبغية من العدوّ في حال المنازعة.

﴿صَاغِرِينَ﴾: أذلاّء.

﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾؛ الصلب: هو الشدّ على الخشبة وغيرها. وأصله من صلابة الشيء.

﴿تَنقِمُ﴾؛ النقمة: العقوبة والإنكار.

﴿أَفْرِغْ﴾؛ الإفراغ: صبُّ ما في الإناء أجمع حتى يخلو؛ وهو مشتقٌّ من الفراغ.

﴿صَبْرًا﴾؛ الصبر: حبس النفس عن إظهار الجزع.

❊ ❊ ❊

وجاء السحرة، فماذا كان أمرهم؟!

استدعى فرعون السحرة من جميع المناطق، وجمع الناس ليشهدوا المواجهة الأولى بين سلطته الطاغية وبين رسالة موسى. ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ ووقفوا بين يديه واستمعوا إليه، فحدثهم عن سحر موسى وأرادهم أن يدخلوا معه معركة التحدي، فيواجهونه بسحرٍ أقوى. ولكن السحرة كانوا أصحاب مهنة، لا يقومون بأي عمل إلاّ مقابل أجر يأخذونه، فلا مجال للخدمة المجّانية حتى للحاكمين، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾. وقد يوحي لنا منطقهم هذا بأنهم كانوا يملكون موقعاً يسمح لهم بالجرأة على هذا الطلب، لأن من عادة الحكّام مع من لا يملكون موقعاً متقدماً في المجتمع، أن يصدروا إليهم الأوامر ليطيعوها بدون اعتراض أو توقفٍ، بينما نرى أن السحرة كانوا سيرفضون طلب فرعون لو لم يستجب لمطالبهم، وربما يعود ذلك إلى كون السحرة يمثلون السلطة الدينية للمجتمع، التي كانت تقارب قوتها قوة السلطة الحاكمة في التأثير على الناس. ﴿قَالَ نَعَمْ﴾، فستأخذون الأجر العظيم، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فسأمنحكم درجةً متقدّمةً من القرب في المركز والسلطان.

واتّخذوا مراكزهم في الساحة، في مواجهة موسى. ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، في أسلوبٍ استعراضيٍّ يحاول الإيحاء له وللناس بأن القضية لا تمثل عندهم أهمية كبرى، فلا فرق بين أن تكون البداية منه أو تكون منهم، فسوف لن يخافوا منه، لأنه أضعف من أن يهزمهم، وستكون النتيجة واحدة في كلتا الحالتين، وهي هزيمة موسى. ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ بكلّ استهانةٍ واستخفافٍ بأسلوبهم، في عملية إيحاءٍ بأنّه يواجه الموقف بثقةٍ

عظيمةٍ بالنصر لا حدّ لها، وهي الثقة بالله القادر على أن يبطل كل كيدهم ومكرهم.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأن السحر لا يحمل في مدلوله قدرةً لتغيير الأشياء، وتحويلها عن حقيقتها، والتأثير بها بطريقةٍ فعلية، بل هو مجرّد تخييل وتمويهٍ ولعبٍ على أعين الناس، بما يملكونه من دقةٍ وفنٍّ يأخذ بالعيون ويدعو إلى الدّهشة ويبعث على الخوف... ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ من خلال ما أظهروه من ألاعيب تحويل العصيّ إلى ثعابين خُيِّلَ لموسى وللناس أنها تسعى. ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ فقد كانوا يملكون المقدرة الكبيرة في فنّ السحر. ووقف موسى ينتظر أمر ربّه، لأنه لا يملك المعرفة بالسحر ليقابلهم سحراً بسحر، ولا يملك القدرة الذاتية على المعجزة ليبطل السحر بالمعجزة، وكان يعرف أن الله سينصره، لأن وقفة التحدي ـ هذه ـ لم تكن وقفته الذاتية التي يربح فيها الجولة كشخص، أو يخسرها كشخص، ولكنها كانت وقفة الرسالة التي تريد فرض نفسها على الساحة كقوّةٍ جديدة تملك أن تتحدى جبروت فرعون وطغيانه، لتمنح الناس القدرة على الاختيار بينها وبين فرعون، ثم لتعطيهم قوّة حسم الموقف بالوقوف مع موسى من أجل الرسالة، لأن المسحوقين لا يتحركون بمواجهة القوة الطاغية، إلا استناداً إلى قوّةٍ جديدةٍ تمنحهم إرادة القوة كما توحي لهم بالهدى والإيمان...

* * *

عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تلقف إفك السحرة

وجاء أمر الله، وتمّت كلمته ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ فألقاها في استجابةٍ خاشعةٍ لأمر الله، وثقةٍ بالنتيجة الإيجابية المنتصرة الحاسمة، ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وتتناول كل هذه العصيّ التي أرادوا أن يصرفوا وجوه

الناس بسحرها عن الحق، ويقودوهم إلى الباطل. ولم يشعر الناس إلا بالعصا وهي تتحول إلى ثعبانٍ عظيم، يوحي بالحقيقة المرعبة المتحدية الكامنة في عينيه، وفي حركته الهجومية على كل تلك الدمى الفارغة من أشكال الثعابين... ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لأن ما جاء به موسى هو الحق؛ أما السحر فإنه الباطل الذي ينهزم بسهولة، لأنه لا يمثّل شيئاً من القوّة الحقيقية للأشياء. وكانت الغلبة للرسالة في موقف موسى، بينما وقف فرعون في موقف المهزوم من خلال هزيمة السحرة.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾، وتحطّم كل ذلك الجبروت وتحوّل إلى كيانٍ ذليلٍ صاغرٍ أمام الحقيقة القوية الصارخة، ووقف السحرة في موقف التأمّل والتفكير. ولم يطل بهم الموقف كثيراً، فما كان منهم إلا أن آمنوا بموسى عندما ألقى عصاه، ووجدوا أن ذلك ليس في مستوى السحر بل هو شيء فوق ذلك كله، مما لم يألفوه ولم يعرفوه في كلّ ما شاهدوه وعرفوه من أساليب السحر، فعرفوا أن ذلك كله من الله سبحانه لا من موسى، وهذا ما جعل دعوته في مستوى دعوات الأنبياء الذين يتميزون بقدراتٍ غير عاديّةٍ، في ما يقومون به من معاجز، وما يقدمونه من آيات، فانفتحوا على الإيمان بكل قوّةٍ وابتهالٍ وخشوعٍ.

* * *

السحرة يستجيبون لدعوة موسى عليه السلام

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ* قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأعلنوا إيمانهم بطريقةٍ لا تقبل الشكّ، وأكّدوا ذلك بالانتماء إلى خط الرسالة التي يحملها موسى وهرون، في ما تعنيه كلمة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ من معاني الارتباط بالله من خلالهما باعتبار دعوتهما إليه.

وهال هذا الأمر فرعون وأُسقط في يده، واعتبرها مؤامرةً مدبّرةً في الخفاء ضدّه، ورفض أن يصدّق أن القضية قضية إيمان صادقٍ ينبعث من الحجة الواضحة والبرهان القويّ، تماماً ككثيرٍ من الطغاة الذين لا يريدون أن يعترفوا بالاستجابات الشعبيّة لقوى التغيير، من حيث خروجها من واقع الإحساس العميق بالحاجة إلى التغيير، والخروج من واقع الظلم والطغيان، فيندفعون إلى التفتيش عن أسباب ظاهرة التمرد عليهم وعلى حكمهم، في مؤامراتٍ شخصيةٍ يحرّكها أعداؤهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنه ينكر عليهم أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم، كأنَّ عمليّة الإيمان تحتاج إلى الإذن الفرعوني، كما يحتاج إليها أي عمل آخر يتعلق بقضايا الإدارة والحياة... وتلك هي عقليّة الطغاة وسيرتهم في كل زمانٍ ومكانٍ، عندما يريدون امتلاك عقول الناس وأفكارهم، فلا يفكرون إلا بما يقدمونه لهم من أفكار، ولا يؤمنون إلا بما يدعونهم إليه من عقيدةٍ. فالتفكير ممنوع، والإيمان محرّمٌ بدون الإذن الرسميّ من قِبَل السلطة التي تملك العقول ـ كما يخيل لها ـ كما تملك الأجسام والأعمال.

* * *

فرعون يصر على كفره ويتوعد السحرة

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وهذه محاولةٌ لتخفيف وقع الصدمة على نفسه، وحراجة الموقف فيها، لأنّ ما حدث يشكّل نقطة ضعف في سلطانه، باعتبار أن المتمرّدين من أتباعه المقرّبين، فيحاول أن يصوّر لنفسه وللآخرين أن القضية ـ منذ البداية ـ لم تكن تمرّداً عميقاً يصدر عن قناعة بالدعوة الجديدة، أو رفضاً للسلطة القديمة بكل ما تمثله من أفكار، بل كانت مؤامرةً مدبرةً بين موسى وبين هؤلاء السحرة،

باعتبار أنه أستاذهم الكبير الذي علمهم السحر ـ كما في آيات أخرى ـ فأرادهم أن يقوموا بهذه التمثيلية، لإظهاره في موقف المنتصر في مقابل فرعون الذي يقف في موقف المهزوم. فبدأ عملية التهديد والوعيد ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وبدأت عملية حرب الأعصاب بالتهديد بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل والصلب ليتراجعوا، فلم يتراجعوا، وواجهوه بالإيمان القويّ الصامد الذي لا يتزلزل، ولا ينهار، ولا يتراجع أمام كل أساليب التهويل والتهديد، وكان الموقف من أسمى المواقف التي تجسد الثبات على العقيدة أمام قوى الكفر والطغيان حتى الموت.

* * *

السحرة التائبون يسألون الله الصبر

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ ماذا تريد أن تفعل؟ هل هناك أكثر من الموت؟ وماذا في الموت، وماذا بعده؟ إننا سننقلب إلى ربنا وسنرجع إليه، وسنجد عنده كل رحمةٍ ومغفرةٍ ورضوان، وسيدخلنا الله جنّته حيث السعادة كلّ السعادة، والرضا كل الرضا، وبذلك فإن التهديد لا يمكن أن يمثل أيَّ ضغطٍ نفسيٍّ أو ماديٍّ لحساب التراجع، فنحن لن نتراجع أبداً، لأننا لا نشعر بالسقوط أمام ذلك كله. ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾. وماذا فعلنا حتى تواجهنا بهذه المواجهة القاسية؟ ولماذا تنقم علينا؟ هل هناك شيءٌ سوى أننا آمنا بآيات ربنا عندما جاءتنا بالحقيقة الواضحة الناصعة؟! وهل الإذعان للحقّ الواضح الصريح جريمةٌ يستحقّ الإنسان العقاب عليها؟! أيُّ معنًى لذلك كله، سوى أن الطغاة يخافون من حركة الإيمان في أفكار الناس، قبل أن يخافوا من حركته في حياتهم؟! لأنهم يعرفون جيداً ما معنى الصدق في الإيمان، وكيف يتحول إلى صدقٍ في الموقف أمام كل تحديات الحياة

وأوضاعها السلبيّة.

وعادوا بعد ذلك إلى الله في روحٍ خاشعةٍ مبتهلةٍ في دعاء حارّ عميق، ليعينهم على مواجهة الموقف بالصلابة الإيمانيّة القوية التي لا تتزعزع ولا تتزلزل ولا تنهار، حذراً من أن تسيطر عليهم بعض نوازع النفس الأمّارة بالسوء، التي تمنّيهم السلامة، وتحذِّرهم من الهلاك، فتدفعهم إلى تقديم التنازلات من غير أساسٍ: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾، واملأ به قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا وخطواتنا، لئلا نستسلم لنقاط الضعف الكامنة في أعماقنا. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ حتى لا نضعف في حالة شدّة، ولا نهتزّ في موقف زلزال، بل تبقى لنا قوّة الإيمان حيّةً نابضةً حتى نلاقيك في إسلام القلب والوجه واليد واللسان.

إنه الموقف الرائع والنموذج العظيم للإيمان الصامد أمام الكفر الطاغي في أروع صورةٍ للصراع الدامي بين قوى الكفر والطغيان، وبين قوى الحق والإيمان...

أمّا نحن، فنشعر بالحاجة الكبيرة إلى أن نتمثّل هذا الموقف، في ما نواجهه من تهاويل الطغاة وتهديداتهم وحجرهم على حرية الفكر الإسلامي الذي لا يريدون لأصحابه أن يتحركوا فيه إلا بمقدارٍ صالحٍ للاستغلال، حيث يتحول إلى واجهةٍ تحمي ما خلفها من انحرافاتٍ وأخطاءٍ لما تضفيه عليه من قداسة الحق وحصانة الإيمان.

●□●□●

الآيـــات

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن
تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَتَذَرُ﴾: أتدع، أتترك.

* * *

موسى في حواره مع قومه بعد تهديد فرعون

وبدأ عرش فرعون يهتزّ أمام هذه الصدمة العنيفة، واستطاع موسى أن

يستوعب قومه في أجواء عاطفيّةٍ تثير الأمل في نفوسهم، وتوحي بالإيمان بأفكارهم. وربما بدأوا يلتفّون حوله تحت تأثير تلك الأجواء، وربما رأى قوم فرعون بعضاً من هذا الالتفاف العاطفي الجديد، وربما سمعوا عنه شيئاً من جواسيسهم، إن لم يكونوا قد رأوه، وأخذوا يفكرون ماذا يفعلون بهذا التطور المخيف، وكيف يواجهونه ليقضوا عليه في بداياته الأولى؟ وكان هناك حديثٌ بينهم وبين فرعون لإثارته ضدَّ موسى وقومه، وقد لا يكون بحاجةٍ إلى مثل هذه الإثارة، لأن صدمته العنيفة كانت كفيلةً باستثارته على المدى الطويل.

* * *

منطق الطغاة من الحاكمين

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ وذلك هو منطق الطغاة من الحاكمين في ما يثيرونه من قضايا الإصلاح والإفساد، فينظرون إلى كل عمل يدعم حكمهم أو نظامهم، ويهيّىء له سبل الاستقرار والاستمرار، على أنه من أعمال البناء والإصلاح، وينظرون إلى أيِّ عمل ينقضه ويعمل على تغييره، ويساهم في إثارة الأجواء ضده، ويتحرك باتجاه زلزلة قواعده وهزِّ أركانه، على أنه من أعمال الهدم والإفساد... وفي ضوء هذا، كان هؤلاء القوم يعتبرون الدّعوة إلى توحيد الله، ونبذ الشرك، ومحاربة الطغيان، والقضاء على الظلم، وغير ذلك من المفاهيم الرسالية التي يدعو إليها موسى، ويسير عليها مع المؤمنين من قومه، إفساداً في الأرض، لأنه إطلاقٌ من أجل التغيير الذي لا يبقى معه أحدٌ من أصحاب الامتيازات الزائفة الظالمة، ولا يذر أيّ إلّه في الأرض غير الله، سواءٌ كان فرعون، أو ما كان يعبده من آلهة وأصنام. وهذا ما أراد قومه أن ينذروه به. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ في وحدة موحشة قاتلةٍ، ليس معك أحد من هؤلاء الذين كانوا

يتّبعونك، ويتعبدون لك ولآلهتك.

وجاء المنطق الفرعوني الذي هو منطق الطغاة، ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فلا يبقى منهم أحد يقوى على المواجهة وحمل السلاح، لأن الذكور هم وقود الحرب عادةً، ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ فنبقيهنّ كإماءٍ وخدم. وماذا تغني النساء شيئاً لموسى ولأخيه؟ ولن يبقى هناك أحدٌ في هذا الاتجاه، ولن يبقى إلا نحن، نحن الأقوياء الحاكمون. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ فنحن نملك القوة القاهرة من السلاح والمال والملك والرجال، فأين يكون هؤلاء المستضعفون، وكيف يمكنهم أن يثبتوا أمام كلّ هذه القوة، وكل هذا الجبروت؟!

* * *

موسى عليه السلام يحث قومه على الصبر والثبات

وربما ترك مثل هذا التهديد أثره السلبي في نفوس قوم موسى، الذين كانوا في موقع التجربة الأولى، فلم يتصلّب إيمانهم بعد، ولم تقو عزيمتهم، بل كانوا يهتزون أمام كل وعيد، فوقف موسى ليشدّ من عزمهم، وليقوي إيمانهم بالله، وليبعث فيهم روح الصبر والثبات، وليفتح لهم نوافذ الأمل وأبواب الرجاء... ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، فإن الوصول إلى الغايات التي يسعى إليها الإنسان يمر بأكثر من مرحلة؛ ولكل مرحلةٍ مشاكلها وتحدياتها وآلامها، فلا بد من الصبر من أجل مواجهة ذلك كله، من أجل عدم الوقوع في قبضة الانفعال الذي يشلّ عقل الإنسان وتفكيره، ويقوده في النهاية إلى الهاوية، فلا تتجمّدوا أمام المرحلة الحاضرة، لتعتبروها خاتمة المطاف، بل حاولوا التطلع إلى ما قبل هؤلاء الذين يحكمون هذه المرحلة ويسيطرون عليها، فهم لم يكونوا شيئاً في الوجود، ولا في السلطة، بل كان هناك قوم آخرون أورثهم الله الأرض طبقاً لسننه في الكون، ومضوا كما مضى

الذين من قبلهم، وجاءت بهؤلاء إلى السلطة ظروفٌ موضوعية هيّأت لهم وراثة الأرض، وسيزولون كما زال غيرهم ـ إن آجلاً أو عاجلاً ـ ويبقى الأمر كله لله... ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تبعاً لتطور مراحل التاريخ التي تنقل الحكم من جيل إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى، فقد ينتصر الظالمون في معركة، وقد ينهزم المستضعفون في أخرى... وهكذا تتحرك سنة الله في الكون على أساس حكمته وتدبيره في ربط المسبّبات بأسبابها، ولكنّها مجرد مراحل تبدأ وتنتهي دون عمق وامتداد.

* * *

العاقبة للمتقين

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجسّدون إرادة الله في إصلاح أمر الحياة في الحكم والشريعة والعقيدة، على قاعدةٍ صلبةٍ تؤكد للإنسان مفاهيمه الواسعة الثابتة، وأوضاعه المستقيمة الهادفة، وتتحركُ التقوى في داخله لتستوعب ذلك كله في خطّةٍ حكيمةٍ ممتدة، يحكم مراحلها الوعيُ والصدقُ والأمانة والإخلاص... وهكذا يريد الله من المؤمنين أن يعملوا على السير في خط التقوى في حياتهم، من أجل أن يجعلوا من أنفسهم القيادة الواعية الملتزمة التي تتحمل الصعاب والمشاق والتحديات بروحٍ قويّةٍ صابرة، لأن مسألة حكم الأرض، في مواجهة التيار الكافر الضاغط، ليست مسألة كلمات تقال، وليست انفعالاً يتشنّج ويصرخ، أو عبادةً تبتهل وتخشع، ولكنها المواقف التي تفكّر وتتقدّم وتصبر وتواجه التحديات بروح العزيمة والقوة، وبإرادة الإيمان والإخلاص الباحث دائماً عن لطف الله وروحه ورضوانه في كل خطوةٍ من خطوات الطريق.

* * *

انهزاميّة قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

ولم يكن قوم موسى قد بلغوا هذا المستوى من الوعي الذي يفهم معنى المرحلة في خطّ الهدف، ومعنى الصبر في الوصول إلى الغاية، ومعنى التوكل على الله في الانطلاق نحو غيب المستقبل بقوة، فكانوا يتألمون مما يلاقونه من آلام بعد أن ساروا مع موسى، ويرون أن الحال لم يتغير، فقد كانوا يعيشون الآلام من قبل موسى، وها هي الآلام تمتد بهم معه، فماذا انتفعوا به؟ فلا تزال المشكلة هي المشكلة والواقع هو الواقع. ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ إنه منطق الضعفاء الذين لا يعرفون معنى حركة القوة في الداخل من أجل تنمية روح التحدي في الواقع، فهم لا يتعاملون مع القضايا التي يعيشونها من موقع العلاقة بالأهداف البعيدة للحياة، بل يتعاملون معها من موقع المشاعر والانفعالات في ما تختزنه من هموم وآلام. إنهم يعيشون في جوّ الإحساس دون التفكير في مضمون المشكلة، إذ يجب أن يعرفوا أن هناك فرقاً بين الإيذاء الذي يتعرض له الإنسان وهو لا يحمل قضيّة، فيزيده الأذى شعوراً بالانسحاق، لأنه يحجز إحساسه بالألم الذي لحق به في اللحظة الحاضرة، وبين الإيذاء الذي يتعرض له وهو يحمل قضيةً ويتحرك من أجل رسالة، فيزيده الأذى شعوراً بالقوّة، لأنه يضاعف معنى التحدّي في مشاعره وأحاسيسه في عمليّة إيمانٍ بالقضية الكبيرة التي لا بدّ لها أن تستمر لتحل المشكلة من جذورها بعيداً عن كلّ عوامل التخدير...

* * *

موسى يزرع الأمل في قلوب قومه

ولهذا، فإن مثل هذا الاتجاه لا يرتاح لعملية التهدئة، بل ينطلق دائماً في

أجواء التثوير، لأنّ المسألة ليست مسألة ذاتٍ تريد أن تستريح، بل هي مسألة أمّةٍ تريد أن تتحرّر وتتقدم، ومسألة واقعٍ يريد أن يتغير، وهذا ما أراد موسى أن يثيره في الانفتاح على الله في أوقات الشدّة، وفي الثقة بوعده في حالات الضيق، فذلك هو الذي يجدّد في الإنسان روح القوة، ويبعث في روحه معنى الأمل. . . ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ كما أهلك الطغاة من قبله بالطريقة المباشرة أو غير المباشرة، فقد أعدّ الله للطغاة مصيراً لا يستطيعون الهروب منه، ولكنّ لكلّ شيءٍ وقتاً لا يتعداه تبعاً لما أودعه الله في حركة الحياة من أسرار حكمته، فليكن أملنا بالله كبيراً، ونحن نعمل في سبيل تهيئة الظروف التي تتحقق فيها إرادته بالنصر.

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فقد وعد الله المستضعفين أن يستخلفهم في الأرض، والله لا يخلف وعده، ولكنّ قضية الاستخلاف في الأرض ليست امتيازاً لأحد، بل هي المسؤولية الواعية من أجل تغيير الواقع على الأسس الإيمانية التي تُصلحُ أمر البلاد والعباد، بعيداً عن الأسس الاستكبارية الكافرة التي تفسد الحياة كلها بخطط الكفر والضلال، ولهذا فإن المسألة تعيش في نطاق الامتحان والاختبار، لما تحملون من عقيدةٍ، ولما تعيشونه من مفاهيم، ولما تتحركون به من خططٍ وأهداف، ليُعْرَفَ الصادقون من الكاذبين، والمخلصون من المنافقين. . . . ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في ما تمارسونه في خلافتكم على مستوى الحكم في إدارة شؤون الناس والحياة. . . وتلك هي قصة الحكم في المفهوم الديني للإنسان؛ إنها قصة التغيير، وتحويل المسيرة من خطّ الظلم إلى خطّ العدل، ومن شريعة الكفر إلى شريعة الإيمان، وليست عملية تبديل أسماءٍ وتغيير واجهاتٍ، لنبرّر الظلم باسم العدل، وننطلق مع الكفر باسم الإيمان.

● □ ● □ ●

الآيـات

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾
وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ
لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَخَذْنَآ﴾: الأخذ هو التناول باليد، والمراد به هنا الابتلاء.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: السنون جمع سنة، وهي القحط والجدب، وكان أصله سنة القحط، ثم قيل السنة إشارة إليها، ثم كثر الاستعمال حتى تعينت السنة لمعنى القحط والجدب[١].

﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: يتشاءموا.

﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: نصيبهم الذي قدّر لهم.

﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: السّيل الذي يعمّ بتغريقه الأرض.

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: كبار القردان.

﴿ٱلرِّجْزَ﴾: أصله الانحراف عن الحق، وقد أريد به العذاب هنا باعتبار أنه مسبَّبٌ عنه، من إطلاق السبب على المسبب.

﴿يَنكُثُونَ﴾: ينقضون العهد.

﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحر.

﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ الغفلة: حالٌ تعتري النفس تنافي الفطنة واليقظة.

﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.

* * *

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٢٣١.

نهاية فرعون

وجاء العذاب الذي يمثّل بداية النهاية لفرعون وقومه، ويفتح المجال لبداية أخرى في اتجاهٍ معاكسٍ وهي انتصار موسى وقومه، فكيف كانت البداية؟ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وهي كناية عن الجدب الذي يتوالى في كل سنة، أو يتنوّع ضعفاً وقوّةً بين سنةٍ وأخرى، مما يربك الوضع الاقتصادي على مستوى التغذية والتنمية، ويضعف بالتالي قدرة الحكم على مواجهة المشاكل بطريقةٍ سهلةٍ عمليةٍ، ويؤدي إلى ضعف السلطة وعدم الثقة بها، ويدفع الناس الذين يعيشون مشاكل الجدب في الزراعة والنقص في الثمرات، للجوء الى الله في رفع ذلك عنهم وإنقاذهم منه، لأن قضايا الخصب والجدب لا تخضع ـ دائماً ـ للأسباب العادية التي يملك الناس أمر التحكم فيها سلباً وإيجاباً.

وقد لا يكون من الضروريّ أن يكون هذا البلاء عقاباً مباشراً لهؤلاء بالمعنى الغيبيّ للعقاب، فقد يكون الأمر خاضعاً لأوضاع طبيعية كونية، ولكنّ الله سبحانه يريد لعباده في هذه الأمور أن يرجعوا إليه، ويلجأوا إلى رحمته، ويعرفوا بأن الله القادر على أخذ الناس بهذا البلاء من خلال قوانينه وسننه، هو القادر على إنقاذهم من ذلك بقوانينه وسننه، في ما يعرفه الناس منها مما أعطاهم سرّ معرفته، وفي ما لم يعرفه الناس مما اختص الله بعلمه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، فيتراجعون عن تمرّدهم وعتوّهم واستكبارهم، وينسجمون مع نداء رسله للسير على خطّ رسالاته الداعية إلى عبادته وحده في كل مجالات الحياة الخاصة والعامة، ولكنهم لم يتذكّروا، بل كانوا يواجهون الموضوع بطريقةٍ أخرى.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ ونحن مستحقّون لها لكرامتنا

على الله، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ فيعتبرونه مصدر الشؤم، في ما يتشاءم به الناس من الأشخاص والأوضاع، ولكنّ الله يردّ عليهم هذا المنطق ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي أنزل عليهم ذلك كله، وهو الذي ترجع إليه أمور العافية والبلاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم في غفلةٍ عن آفاق العقيدة الإلهية، في أفكارها وإيحاءاتها وامتداداتها في قضايا الإنسان والحياة، فلا يعرفون كيف يخضع الكون كله لإرادة الله في كل شيء، فلا مغلق لما فتح ولا فاتح لما أغلق، ولا رادّ لما أعطى... ووقفوا أمامه وقفة المتحدّي الذي يرفض كل آية للإيمان، مهما بلغت من القوة في الحجة والبرهان، ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وهكذا أعطوا الآيات التي قدّمها إليهم صفة السحر، لأنهم كانوا يبحثون عن مبرر للكفر وللتمرّد، تماماً كما هو شأن القوى المستكبرة في كل زمانٍ ومكان، عندما تحاول ضرب كل داعية للحق وللعدل، أو تشويه صورته أمام الناس؛ فتلصق به أو بدعوته بعض الصفات السلبية التي توحي بالمعاني المتخلفة البعيدة عن كل خيرٍ وصلاحٍ، ليكون ذلك مبرّراً لهم للوقوف ضده بكل ما يملكون من قوة البغي والعدوان.

* * *

الطوفان أول العقاب

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ فأغرق كل شيء من الزرع والماشية وغيرهما ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ الذي أكل كل ثمراتهم ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ ـ بضم القاف وتشديد الميم، وهي دوابّ صغار كالقردان تركب البعير الهزيل، وبفتح القاف وتخفيف الميم وهي الحشرة المعروفة ـ وكلاهما ينزل البلاء والوباء... ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ التي يقال إنها كانت تظهر في طعامهم وشرابهم فتنغص عليهم حياتهم، ﴿وَٱلدَّمَ﴾

فقد تحوّل الماء عندهم إلى دم ـ كما يقال ـ وقيل إنهم أصيبوا بمرض الرعاف. ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ تنذرهم وتعطيهم فكرةً عن سخط الله وعقابه. ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ على الله ورسوله، في ما يعيشونه من مشاعر الكبرياء والجبروت ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فقد تأصّلت الجريمة في أفكارهم ومشاعرهم فمنعتهم من الخضوع لأوامر الله ونواهيه.

* * *

الطغاة يعاهدون موسى على الإيمان وينكثون

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ وضاق الأمر بهم، ولم يجدوا مجالاً للاستمرار في ما هم فيه، وعرفوا أن الله هو الذي أنزل عليهم ذلك كله عقاباً لهم على أعمالهم، فلجأوا إلى موسى يتوسلون إليه أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب، وعاهدوه على الإيمان وإرسال قومه معه، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ من كرامته ورحمته ولطفه، ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ ببركة دعائك ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فيتحقّق لك ما تريد من الإيمان الشامل برسالتك، ومن تحرير قومك من العبودية والاضطهاد... وأراد الله أن يعطيهم فرصةً للتصحيح، أو يظهر كذبهم وانحرافهم.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾فلم يتعهد الله لهم برفع العذاب إلى ما لا نهاية، فرفعه إلى وقتٍ ما، لينظر كيف يعملون.

﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ عهدهم وينقضونه؛ فكان الحسم الأخير، وكانت النهاية. ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ البحر ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾، فكان ذلك سبب عذابهم، وهذا هو جزاء الذين لا يمنحون أنفسهم

وعي الحقيقة، بل يعيشون في حالة استرخاءٍ وغفلةٍ، فينتهي بهم ذلك إلى الكفر والضّلال.

* * *

المستضعفون يرثون مشارق الأرض ومغاربها

وانتهى دور فرعون، ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ - وهم قوم موسى - ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ولعلّها الأرض المقدّسة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في رحمته ولطفه وإحسانه ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الاضطهاد والاستعباد، فلم يهزم ذلك موقفهم، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من طغيانٍ ومشاريع للسيطرة وللاستعباد، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من بناءٍ وزروعٍ وكروم... وجاء دور بني إسرائيل، فكيف واجهوا الموقف في الأجواء الجديدة التي عاشوا فيها مع موسى؟ وكيف كانت طاعتهم لموسى؟

● □ ● □ ●

الآيــات

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ
عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ
وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: المجاوزة: الإخراج عن الحدّ. وجاز الوادي: قطعه وخلّفه وراءه.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾: يواظبون عليها ويلزمونها. ومنه الاعتكاف، وهو لزوم المسجد للعبادة فيه.

﴿مُّتَبَّرٌ﴾: من التّبار، وهو الهلاك والدمار.

* * *

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في نظر بني إسرائيل

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ ليبدأوا حياةً جديدة، يبتعدون فيها عن الأجواء الفاسدة التي كانوا يتنفسون فيها الذلّ والعبودية والقهر والاستغلال، ويعيشون الكفر والضلال والعصيان، وقد شاهدوا المعجزة الكبرى في انفلاق البحر بضربة عصا موسى، وكيف جعل منه اثني عشر طريقاً يبساً، وكيف انطبق البحر على فرعون وجنوده حتى غرقوا عن آخرهم، وكيف وصلوا إلى الشاطىء الثاني من البحر سالمين بعد أن تخلّصوا من ذلك الكابوس الجاثم على صدورهم مدّةً طويلةً، فهل استوعبوا ذلك كله، فعمّقوا إيمانهم، وانفتحوا على عبادة الإله الواحد، وأغلقوا قلوبهم عن كل شيء غيره من آلهة الحجر والبشر الذين يعبدهم فريقٌ من الناس من دون الله؟ والظاهر أنهم لم يستوعبوا ذلك كله، فلم تكن رحلتهم مع موسى رحلة إيمان يبحث عن الحقيقة، بل كانت رحلة اضطهادٍ يبحث عن الخلاص. كان الإيمان مجرد واجهةٍ، وكانت الرسالة مجرد وسيلةٍ للوصول إلى الحرية. وكان موسى نبيّاً، ولكنهم كانوا يتحركون معه من موقع القائد الذي يريدونه أن يربح المعركة ضد العدوّ، لا من موقع الرسول الذي يريد أن يحقق من خلالهم ـ في الانتصار على العدوّ المتألّه الطاغي ـ أهداف رسالته في تغيير الحياة والإنسان على أساس وحي الله.

* * *

بنو إسرائيل يسألون موسى أن يجعل لهم أصناماً

كانوا يشعرون ـ في ما يبدو ـ أن النبوّة سلاح في المعركة ضد فرعون، لا حقيقةٌ إلهيّة في الحياة ضد كل ما هو زيفٌ في الفكر وفي الواقع، وهذا ما واجهه موسى في بداية التجربة الأولى في الأجواء الجديدة، حيث استيقظت كل رواسب الصنميّة في الأعماق، وبدأت تتحرك على السطح لتتحول إلى نداءٍ متوسّل إلى موسى في القيام بصناعة أصنام لهم لتكون آلهة يعبدونها، كما للآخرين آلهة. . ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ فيقبلون عليها ويلازمونها في عبادةٍ وابتهالٍ وخشوع، فأحسّوا بالحرمان الذي يحسّ به كل من يفقد شيئاً يملكه الآخرون.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ على شكل آلهة هؤلاء، فقد ابتعدنا عن مصر وعن معابد الآلهة التي اعتدنا العبادة فيها للأصنام، فكيف لا يكون لنا آلهة ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؟! إننا نتوسل إليك أن تنقذنا من هذا الحرمان الروحي، كما أنقذتنا من ظلم فرعون؟ وتلك هي الروحيّة التي كانت تحكم طريقتهم في التفكير، وآفاقهم في الإحساس، وخطواتهم في الممارسة. . . وشعر موسى بالمرارة، ولكنها ليست مرارة الخيبة التي تقود إلى الإحباط وتدفع إلى اليأس، بل هي مرارة الرسول الذي يشعر بأن ما تحتاجه المرحلة من جهدٍ وتوعيةٍ وتربيةٍ لا زال كبيراً، لأن القوم لم يأخذوا قضية الإيمان كقضيةٍ للفكر وللحياة، بل أخذوها كوسيلةٍ للخلاص من العبودية، فإن التاريخ الطويل الذي عاشوه في أجواء الظلم والطغيان والشرك، قد ترك تأثيره الكبير على الملامح الداخلية والخارجية لشخصيتهم، مما يقتضي وضع خطةٍ جديدة، تختلف في وسائلها، وتتنوّع في أساليبها وأشكالها.

* * *

موسى عليه السلام وجهالة قومه

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لأنكم لم تعرفوا حقيقة الألوهية في معناها المطلق، من حيث إن الله يخلق كل شيء، ويحيط بكلّ شيء، وليس كمثله شيء، وليس بينه وبين أحدٍ من عباده قرابةٌ ليكون واسطةً بينه وبينه، فلا معنى لأن يعبد أحدٌ أحداً ليقرّبه إلى الله زلفى، لأن العمل المتحرك في خط الإيمان، هو الذي يقرب العبد من ربه، وبذلك لا معنى لإعطاء هذه التماثيل الحجرية والخشبية والذهبية والنحاسية والفضية معنى الألوهة، فهي مخلوقة لله بمادتها، ومصنوعة للإنسان بشكلها، فكيف تحمل سرّ الألوهة؟ ومن أين تحصل على القوة والقدرة؟ إنه الجهل والغفلة والسذاجة، ذلكم هو عذركم في هذا العرض وفي هذا التمني الأخرق. إنكم تتمنون أن تكونوا كهؤلاء تعبدون مثل ما يعبدون، ولكن هل عرفتم مستوى هؤلاء وقيمتهم في ما يفكرون ويعملون؟

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ فإن واقعهم الذي يتخبّطون فيه يسير بهم إلى الهلاك والدمار، لأنهم يفقدون القاعدة الفكرية والروحية التي تركّز لهم منهج الحياة الشامل الواسع، الذي يحرّك طاقاتهم في الآفاق الرحبة للكون، فيشعرون معه بالحكمة التي تحكم الحياة وتدبرها في ظل نظام دقيق تلتقي فيه حركة الكون بحركة الإنسان. وإذا تحرك الإنسان دون قاعدةٍ ثابتةٍ، ودون منهجٍ متكامل، يبقى في مهب الرياح، فلا يسكن إلى ملجأ ولا يستريح إلى أرض، وربما ترميه الرياح الهوجاء في هاوية سحيقة، حيث الهلاك والدمار في الدنيا والآخرة... ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنهم لا يرتكزون في عملهم هذا على حجّةٍ. وتلك هي قصّة الحق والباطل، فللحقّ سلطانه من خلال قوّة العناصر الفكرية والعملية التي تدعم مضمونه، وللباطل أهواؤه وشهواته التي تفقده

الثبات، وتجعله في قبضة الاهتزاز الدائم، تبعاً لاختلاف الأهواء والشهوات التي لا تشتعل إلا لتتبخر في الهواء، كما الزبد الذي يذهب جفاءً ولا يبقى منه شيء ينفع الناس. وهذا ما أراد موسى أن يعمّقه في ذواتهم من أسلوب الإنكار على هذه الرؤية المظلمة للأشياء، ليدرسوا واقعهم المستقبليّ في نتائجه السلبية، على هدى واقع هؤلاء في النتائج السلبية الحاضرة.

ثم عاد ليربطهم بالله من خلال النعمة، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في ما منحكم من نعمه الكثيرة، وما ميّزكم به على فرعون وقومه من اختصاصكم برحمته وبآياته وبغير ذلك من نعمٍ كبيرةٍ في كل مجالات حياتكم... إنه تفضيل النعمة التي يختص الله بها بعض عباده لحكمةٍ هناك، لا تفضيل القيمة التي يرفع بها بعض عباده على بعض درجات في قربهم منه ومن رضوانه ورحمته، كما أشرنا إلى ذلك في تفسير سورة البقرة. إنه يذكرهم بهذه النعم ليفكروا ويقارنوا، ليأخذوا النتيجة الحاسمة، وهي أن لا شيء غير الله يمكن أن يعطي الإنسان أيّة نعمة في حياته، لأنه لا يملك ـ حتى لنفسه ـ نفعاً ولا ضراً.

* * *

موسى يذكّر قومه بنعم الله عليهم

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. هل فكرتم في هذه النعمة العظيمة، وهي نعمة الحرية التي عدتم بها أحراراً، تملكون تفكيركم وإرادتكم وحركتكم في الحياة بعد أن كنتم عبيداً لآل فرعون يمارسون ضدكم كل ألوان العذاب القاسي، فيقتلون كل مولودٍ ذكر يولد لكم، ويبقون نساءكم إماءً لهم، وهذا هو البلاء العظيم الذي أنقذكم منه، بطريقةٍ معجزةٍ غير عاديّة.

فهل يملك غير الله، من آلهة هؤلاء، أو من الآلهة التي تريدون صنعها، أن ينقذكم من ذلك؟! فكروا جيداً وستعلمون ما معنى أن يكون الإنسان مؤمناً بالله الواحد الذي لا شريك له، وستكتشفون أنكم كنتم تقولون ما لا تعلمون وما لا تعقلون.

* * *

وقفةٌ تأمليّةٌ أمام هذه الآيات

ما معنى هذا الطلب من هؤلاء الذين جاهد موسى ليحرّرهم من فرعون على أساس رسالة الله وكلمة التوحيد، ليكونوا القاعدة القوية لحركة الرسالة الممتدة نحو تحرير المجتمع كله؟! فنحن نعلم أن جهاد موسى لم يندفع من موقعٍ عائليٍّ أو قوميٍّ، بل ارتكز على الموقع الرساليِّ الذي يجد في المستضعفين قوةً صالحةً للتحرك، ويجد ـ إلى جانب ذلك ـ في بني إسرائيل آنذاك، جماعةً قريبة الصلة بالإيمان، وبما يمثّله من قيم، لأنهم يشكّلون الطرف المضطهد المعارض للعقليّة الفرعونية وما تمثله من انحرافٍ.

ومن هنا نعرف مأساة موسى مع قومه، ومدى ما كان يحسُّه من خيبة الأمل، بعد الصراع العنيف الذي خاضه ضدَّ فرعون، والمواقف الهائلة التي واجهها، من ملاحقة القوم الكافرين له، ومن خوضه البحر ببني إسرائيل في معجزةٍ إلَهيّةٍ عظيمةٍ، فأيّ طلبٍ هو هذا الطلب؟! فأين الرسالة، وأين التوحيد؟ وماذا عن إلّه موسى الذي كانت الدعوة إلى توحيده سبباً في كل ما حدث؟ ألم تكن تلك المعجزات والخوارق كافيةً لتركيز هذا الإيمان، كما آمن السحرة في موقف التضحية الرائعة من أجل إعلاء كلمة الله، والانسجام مع رسالته؟

ليس هناك تفسيرٌ لهذا الطلب إلاّ أنه تعبيرٌ عن الطفولة الفكرية التي يعيشونها، فربما لم يشاهد قوم موسى الأصنام الحجرية في بلادهم من قبل، حتّى إذا شاهدوها كانت الصورة مشوّقةً لهم في أن يكون لهم إلَهٌ يلمسونه ويرونه في لعبةٍ عباديّةٍ حالمة، أو أنهم تذكّروا أصنامهم التي كانوا يعبدونها في ظل فرعون، عندما رأوا أصنام الآخرين.

ولم يفقد موسى هدوء الرسول، فقد كان مزاج الرسالة هو الذي يحدّد له مشاعره، لا مزاج الإنسان العادي، فكان جوابه مزيجاً من عنف الحكم على عَبَدة الأصنام بالهلاك والضلال وبطلان العقيدة والعبادة، ومن العقاب المرير لقومه، والتذكير بفضل الله عليهم، حيث أخرجهم من ظلمة الاضطهاد والعبودية إلى نور الطمأنينة والحرية، والإعلان لهم بأن قضية الإلّه ليست موضوعاً يمارس فيه الإنسان دوره في الاختيار والتغيير والتبديل، بل هو الحقيقة التي تهزّ أعماق الإنسان وتنير حياته، لتفرض نفسها في وعيه ووعي الكون كله.

* * *

استيحاء الفكرة في الحاضر

ولعلّنا نجد في بعض مجتمعاتنا الإسلامية ما يشابه هذه الطفولة الفكرية، ولكن في مجال آخر، فقد يكتشف بعض الناس من الحاكمين أو المحكومين، تقليعةً جديدةً من تقاليع الكفر والضلال، أو شكلاً معيّناً من أشكال الحياة، أو تفكيراً خاصاً مطروحاً في الساحة الفكرية، من قبل تيارات الشرق والغرب، فيواجهونه، كما يواجه الإنسان الأشياء الجديدة في حياته، بالإعجاب والدهشة والتمنّي الطفوليّ باقتناء مثله أو احتذائه، لا لشيء إلا للشعور بالغيرة، أو حب

التقليد والمحاكاة ومشاركة الآخرين أوضاعهم وأفعالهم، ممّا يسبّب وقوعهم في كثيرٍ من الأخطاء والانحرافات والارتباكات في حياتهم العامّة والخاصة، عندما تتحول إلى قطع منفصلةٍ ترتبط كل قطعةٍ منها بفكرةٍ تختلف في جذورها ومعطياتها وأشكالها عن فكرةٍ أخرى، فيتحول الإنسان إلى مسخٍ مشوّهٍ، وتضيع الشخصية لتتوزّع بين عدّة شخصيّاتٍ متنوعةٍ في الشكل والجوهر، كما نشاهد ذلك في واقع المجتمعات الإسلامية التي تفكر على أساسٍ إسلاميٍّ في بعض جوانب الحياة، وتفكر على قاعدةٍ غير إسلاميّة في جانبٍ آخر، فتختلف ممارساتها العملية في السلوك الاجتماعي عن ممارساتها في السلوك الاقتصادي والسياسي أو غير ذلك، انطلاقاً من عقليّة بني إسرائيل، التي تجعلهم يتوجّهون إلى قادتهم بأسلوب التمنّي أو الضغط، في أن يجعلوا لهم تخطيطاً يشابه تخطيط الآخرين، وسلوكاً يماشي طريقتهم في السلوك، كما رأيناهم ـ في الآيات المتقدمة ـ يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لغيرهم آلهة، ولكن المنطق الرسالي الذي يفرض خطأ ذلك التفكير هو الذي يفرض خطأ تفكيرنا الجديد، لأن القضية واحدة في جذورها وإن اختلفت في شكلها، فالحقيقة واحدة لا تخضع للرغبات والنوازع الذاتية، بل للظروف الواقعية الموضوعية التي شاركت في وجودها، فهي التي تقرر أمر بقائها وزوالها.

● □ ● □ ●

الآيـــات

۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ
مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ
وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ
أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ
تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ
عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا
لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ
قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

* * *

معاني المفردات

﴿مِيقَٰتُ﴾: وقت معين يُقرَّرُ فيه عمل من الأعمال.

﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾: كن خليفتي من بعدي.
﴿تَجَلَّىٰ﴾؛ تجلّي الشيء: ظهوره بنفسه أو بآثاره ودلائله.
﴿وَخَرَّ﴾: سقط.
﴿صَعِقٗاۚ﴾: مغشيّاً عليه.

* * *

الله يواعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وينزل عليه الألواح

كانت مرحلة موسى حتى الآن، مرحلة الصراع مع فرعون وقومه، من أجل القضاء على الطغيان الفرعوني الذي كان يتحرك في جوّ الفكر الكافر، لإبعاد الناس عن توحيد الله، وفي جوّ الممارسة الظالمة لإبعاد الحياة عن ساحة الحرية والعدل، وكانت معركة موسى على هذا الصعيد تتحرّك في أكثر من اتجاه وتعتمد أكثر من أسلوبٍ، فكان يؤكّد على نقطتين رئيسيتين في نطاق الهدف المرحلي المعلن: الدعوة إلى التوحيد المتحرك في خط العدل، وتحرير بني إسرائيل.

ولم يكن هناك مجالٌ ـ في ما يبدو ـ للحديث عن برنامجٍ فكريٍّ وتشريعيٍّ متكامل، يحدّد فيه الأهداف الكبرى للإنسان، والمفاهيم الصحيحة لقضايا الحياة، والشريعة الكاملة الشاملة لتفاصيلها الدقيقة في حركته في الكون، تلك الشريعة التي تنظّم له أعماله وأقواله ومعاملاته وعلاقاته العامة والخاصة، من أجل تنمية طاقاته الفكرية والروحية والعملية، لتحويلها إلى قوّةٍ فاعلةٍ تتناسب مع خلافته في الأرض. واستطاعت المعركة أن تهزم الطغيان الفرعوني، وتحرّر قوم موسى بقدرة الله، وانفتح للنبيّ موسى أفقٌ جديدٌ وهو يقود بني إسرائيل من أجل أن يحقّق للإيمان أهدافه. فماذا يفعل؟ وما الخطوات الفكرية التي تنظّم لهم خط تفكيرهم، وتجعلهم يمثلون وحدةً فكريةً

في ما ينطلقون به من تصوّراتٍ وتحليلاتٍ للمشاكل التي تحاصرهم، وللمفاهيم التي تواجههم في آفاق الصراع، وتنظم لهم خطّ حياتهم، في ما يتحركون به من مشاريع وأوضاع ووسائل وأهدافٍ وعلاقاتٍ؟ هل يبدأ ليفكر ذاتياً في ذلك كله، لتكون الفكرة فكره الذاتي، ولتكون الشريعة شريعته الخاصة، كما هم المصلحون الذين يتحركون من موقعٍ شخصيٍّ في عملية الإصلاح، فتكون الرسالة رسالةً بشريّةً لا إلّهيةً؟

ولكنّ موسى رسولٌ من قبل الله، وقد أعلن في بداية مواجهته لفرعون صفته الرسالية، وأنه لا يقول على الله إلا الحق، وبذلك حدّد المنطلق لمسيرته في الفكر والتخطيط والتشريع. إنه ينتظر وحي الله، ليرسم المنهج، وليركّز الخط ويطلق الشريعة، ليكون برنامجه دين الله وشريعته، لا دين موسى وشريعته. وهكذا انتظر موسى في المرحلة الجديدة أن ينزل عليه الوحي، وأن يفصِّل الله له الشريعة، وجاء وعد الله له بذلك، وحدّد له موعداً معيّناً، وأخبره أن الكتاب سينزل عليه جملةً وتفصيلاً، وأن عليه أن يستوعبه في قلبه قبل أن يكتبه في الألواح، وأن يفكر فيه ليعرف خصوصيات القضايا من خلال الخطوط العامة، وأن يتطلّع إلى آفاق الكتاب كيف تحتوي الحياة في رحابها الواسعة، ليعود إلى قومه حاملاً لهم خط النظرية، وميزان التطبيق. وعاش في هذا الجوّ تجربةً فريدة صاعقةً هزت كيانه، وعرّضته لموقف صعبٍ محرجٍ مع الله. وهذا ما نستوحيه من جولتنا في هذه الآيات.

* * *

الله يواعد موسى عليه السلام أربعين ليلة

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾. فقد أراد الله له أن يأتي إلى موعده معه، ليغيب عن قومه وعن حركته العادية اليومية معهم أربعين ليلة، فكيف كانت ثلاثين، ثم أتمها الله بعشر؟ هل

هو إتمام طارىء للموعد؟ وكيف ينسجم ذلك مع الله الذي لا تختلف كلمته، ولا يتخلّف وعده، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً؟ الظاهر ـ والله العالم ـ أن المسألة لا تعدو أن تكون تفصيلاً تعبيرياً فنياً عن الأربعين، باعتبار أن الثلاثين تمثّل وحدةً زمنيةً هي الشهر، فتكون الليالي العشر زيادةً على هذه الوحدة، منفصلةً عنها في المفهوم متصلةً بها في الزمن، ولهذا جمعها في نهاية الفقرة.

* * *

هارون يخلف موسى في قومه

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ فلا بدّ لهم من أن يعيشوا مع القيادة الروحية، التي تبقي لهم الجو الروحي الذي يربطهم بالله، ويذكرهم بخط الإيمان، ويهيّىء جوّهم العقلي والروحي لاستقبال الكتاب الإلّهي في المرحلة الجديدة، لأن ابتعادهم عن القيادة قد يبعدهم عن الأجواء الإيمانية، ويُسلِّمهم إلى الذكريات المنحرفة، ويدفعهم إلى العودة إلى رواسب ذلك التاريخ من خلال عقليّة الشّرك المنفتح على الذلّ والعبودية في شخصياتهم المسحوقة تحت وطأة الاستعباد، فربّما يحتاج هؤلاء إلى الرعاية الدائمة من أجل إكمال عملية البناء الجديد للشخصية، بعيداً عن كل مؤثرات الشخصية القديمة.

وهكذا أراد موسى لأخيه هارون أن يخلفه في قومه، ووضع له الخطّ العريض ـ خط الرسالات ـ في إدارة شؤون الإنسان والحياة ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. إنه خط الإصلاح في مضمونه الفكري، وفي طريقة تنفيذه، وفي إدارة حركة العلاقات فيما بين الناس من خلافات ومنازعات وما يتعرضون له من تعقيدات الواقع. هذا في الجانب الإيجابي للخطّ، أمّا في الجانب السلبي منه، فهو الامتناع عن اتّباع سبيل المفسدين في إثارة المشاكل،

وتعقيد العلاقات، وضعف الإدارة، واهتزاز الإرادة، وتوجيه الأوضاع في اتجاه الأنانيات والذاتيات والعصبيات... وغير ذلك من الأمور التي تعزل الإنسان عن الساحة الرحبة الشاملة للحياة، وتحوّله إلى كائن سلبي يدور حول نفسه أو عصبيته، بعيداً عن الأجواء الإنسانية العامة.

ولكن كيف يطلب من هارون ذلك؟ ألم يكن شريكاً له في المهمّة وفي النبوّة؟ هل هو بحاجةٍ إلى مثل هذه الوصية؟ والجواب: ليس معنى هذا أنّ هارون كان لا يملك معرفة خطّ السير الذي تسير عليه النبوّات، بل ربما أراد موسى من هذا التوجيه أن يؤكد له الفكرة من خلال الإيحاء له بالمهمة الصعبة التي تنتظره في مجال التطبيق، في ما يعرفه ـ من خلال التجربة القاسية ـ من ضيق أفقهم، وطفولتهم الفكرية، والجذب الروحي الذي يهيمن على واقعهم الداخلي، وربما أراد من ذلك أن يوحي لقومه بأن خط الإصلاح والبعد عن الفساد ليس أمراً مرهوناً بوجوده، ليكون التزامهم به التزاماً من حيث الإخلاص للشخص على أساس ما يمثّله من قوّةٍ لديهم، بل هو أمرٌ يحكم حياتهم في حال وجوده وغيابه، لأنه منطلق من رسالة الله التي تفرض على الإنسان أن يراقب ربّه قبل أن يراقب أيّ إنسانٍ آخر.

* * *

موسى يسأل الله تعالى رؤيته

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾. ووصل موسى إلى الموعد الذي قطعه له ربّه، وكلّمه الله في ما يريد أن يوحي به إليه، واندمج موسى في الجوّ الإلهي، وشعر بالسعادة تغمر قلبه، ففاضت روحه بالأشواق الروحية، في ما توحيه كلمات الله إليه وما تمثّله من معاني القرب

منه، والوصول إلى الدرجة العليا من رضوانه، وبما توهّج في كيانه من إشراق النور الإلّهي في لحظةٍ روحيّة حالمة، فطلب من ربّه أن ينظر إليه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فقد خيّل إليه أن من يسمع كلام الله يستطيع أن يراه، أو يمكن له أن يطلب رؤيته. وهنا يقف المفسّرون وقفة حيرةٍ فلسفيةٍ كلاميّةٍ، فكيف يمكن لهذا النبي العظيم أن يطلب مثل هذا الطلب المستحيل من ربّه؟ وهو يعرف من خلال سمو درجته، ورفعة منزلته في عالم المعرفة بالله، أنّ الله ليس جسداً مادياً محسوساً حتى تمكن رؤيته، فهو ليس كمثله شيء؟! وأجاب بعضهم بأنّ المراد بالنظر الرؤية القلبية، وهي كناية عن العلم الواسع بالحقيقة الإلّهية. وأجاب آخرون بأنه لم يسأل ربّه انطلاقاً من قناعةٍ بالسؤال أو من انسجام معه، بل كان سؤاله استجابةً لسؤال قومه الذين رافقوه إلى الموعد الإلهيّ؛ فأراد أن يجعلهم وجهاً لوجه أمام الجواب الصاعق على هذا السؤال.

ولكنّنا لا نستبعد أن يسأل موسى هذا السؤال، فقد لا نستبعد من ناحية التصور والاحتمال أن لا يكون قد مرّ في خاطر موسى مثل هذا التصور التفصيلي للذات الإلّهية، لأن الوحي لم يكن قد تنزّل عليه بذلك، ولم يكن هناك مجالٌ واسع للتأمل والتحليل الفلسفي حول استحالة تجسّد الإلّه أو إمكانه، لأن ذلك قد لا يكون مطروحاً لدى موسى عليه السلام. ونحن نعرف تماماً معنى التكامل التدريجيّ للتصوّر الإيمانيّ في شخصية الرسول الفكرية.

ولهذا فإننا نحاول ـ هنا ـ أن نسجّل تحفظنا على الكثير من الأحكام المسبقة التي تحاول تطويق النص القرآني ببعض الاستبعادات الذاتية ـ كما في مثل هذه الآية ـ فإننا نلاحظ أن تصوّرنا لشخصية الأنبياء يبدأ من القرآن، في ما يحدثنا عنهم من أحاديث ويسبغه عليهم من صفات، فهو المصدر الأساس الأمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ونحن نرى أنّ الحديث القرآني يركّز في بعض آياته على نقاط الضعف لدى الأنبياء، كما يركّز على نقاط القوة عندهم، من موقع بشريتهم التي يريد أن يركّزها في التصوّر القرآني في أكثر من اتجاه. فهل نريد أن ندخل في مزايدةٍ كلاميّة على القرآن في ما يتعلق بمثل هذه الأمور، فنفرض لأنفسنا تصورات معينة للأنبياء، ثم نحاول تأويل كلام الله بطريقةٍ لا يتقبلها النص في بعض الأحيان؟! إنّنا نفهم التأويل حملاً للّفظ على خلاف الظاهر، على أساس المجاز أو الكناية أو ما يقترب منهما، ولا بد للخروج من الظاهر أن يكون هناك دليلٌ لفظيٌّ أو عقليٌّ حتى نصرف اللفظ عن الظاهر من خلاله. ولا نجد شيئاً من ذلك في موضوع هذه الآية، فليس هناك مانعٌ من إرادة النظر بالمعنى الحسّي في ما طلبه موسى، بل هو الظاهر الواضح جداً في أجواء الآية من خلال التجربة التي قدّمها الله أمامه، في ما تعطيه كلمة التجلّي من أجواء استحالة الرؤية البصرية في ما وجّهه الله للجبل من نوره الذي لا يستطيع الجبل أن يتماسك معه، فكيف لو كان التجلّي له عليه السلام؟ ثم لو كان المراد الرؤية القلبية، لما كان هناك وجهٌ قريب لهذه التجربة في انهيار الجبل، في ما تعطيه من معنى ماديٍّ للمسألة، لأنّ الجبل لا يحمل أيّة إشارة للجانب القلبي في الموضوع في تأثّره بنور الله.

* * *

الله يتجلى للجبل فيتهاوى

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، لأنّ الرؤية لا تكون إلاّ للمحدود الذي يحمل خصائص مادية، وذلك يستحيل بالنسبة إلى الله الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾. إنّها التجربة التي تعطي لموسى فكرةً توضيحيةً للمسألة المطلوبة، ولكن من جانبٍ آخر، أراد الله له أن ينظر إلى هذا الجبل العظيم، وهو يتهاوى قطعةً قطعةً حتى

يتحوّل إلى رميمٍ أمام التجلي الإلهي، الذي قد يكون كنايةً عن تسليط نوره عليه، فكيف يمكن لمخلوقٍ مثله أن يواجه نور الله، فضلاً عن أن يواجه الله بذاته، لو كان ذلك أمراً ممكناً في نفسه؟! ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ بنوره، ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، أي مصعوقاً من هول الصدمة المرعبة حتى أغمي عليه؛ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وتجلّت له الحقيقة الإلّهية في جلال العظمة التي لا يقترب منها بصر ولا يحيط بها فكر، وشعر بأنه قد تجاوز الحدّ في طلبه للرؤية ـ سواءً كان ذلك منطلقاً من رغبةٍ ذاتية يحس بها في نفسه، أو كان منطلقاً من رغبة قومه إليه ـ رجع إلى الله وأناب، وأعلن التوبة كتعبيرٍ عن الندم الروحي، دون أن يكون في ذلك عصيانٌ، حتى لا ندخل في مسألة العصمة التي تنفي المعصية. ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ في إحساسٍ عميق بالعظمة الإلّهية يدفعه إلى التسبيح، وفي شعورٍ بالندم يدعوه إلى التوبة. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدرجة العالية من الإيمان الذي ينطلق ليسبِّح الله في آفاق عظمته بالفكر والكلمة والشعور، وفي آفاق شريعته بالطاعة والإخلاص والخشوع.

اصطفاء الله تعالى موسى

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾، واخترتك من بين الناس لما تملكه من صفاء الإيمان ووضوحه وعمقه، ومن قوّةِ العزيمة، وصلابة الإرادة، وصدق الموقف، وصبر المعاناة، وهذا ما يجعل للأنبياء صفةً مميّزةً يستحقّون بها اختصاص الله لهم برسالاته، لأنّ الذي يحمل الرسالة لا بد أن يعيش روحيّتها وأخلاقيتها وأفقها الواسع، ويمتلك الخصائص الفكرية والعمليّة التي تجعل من تجربته، في خط الرسالة وحركتها، تجربةً ناجحةً على مستوى القدوة العظيمة في حساب النتائج الرسالية للحياة.

وقد نلاحظ في هذا التعبير القرآني الجوّ الحميم الذي أراد الله لموسى أن

يعيشه في الإحساس بمحبة الله ورعايته له، بعد الصدمة الشديدة التي واجهها في تجربة طلب الرؤية، ليزول كل شيء سلبيٍّ من نفسه، وليعرف بأن الله لم يغضب عليه في ذلك، فقد أعلن له استمرار هذا الاصطفاء المميَّز عن الناس، بما حمّله من مسؤولية حمل رسالاته وكلامه. ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله بالإخلاص له في أداء رسالته، وتحويلها إلى خطٍّ للفكر وللحياة، فذلك هو الشكر العملي الإيجابي في موضوع الرسالة، بالإضافة إلى الشكر الشعوري الذي يتمثل بحالة الامتنان الروحي في الداخل.

* * *

الله ينص على موسى شريعة التوراة

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجه الناس في أمور معاشهم ومعادهم، ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تفتح قلوبهم على الله فيخشعون لعظمته، وتفتح قلوبهم على الخير فينطلقون إليه. ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ في ما تتحرّك به أحكام الشريعة في تنظيم أمور الحياة العامّة والخاصّة، بكل مفرداتها وتفصيلاتها لتتحرك الحياة كلها في طريق الله من خلال أوامره ونواهيه، فلا بد من الدعوة إليها، وتخطيط الوسائل العملية لتحويلها إلى واقع يتحرك في حياة الناس، وتوجيه الأفكار نحو الالتزام بمفاهيمها وأهدافها بشكل واقعيّ حاسم، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في ما يحمل الفكر من قوّة، وما تنطلق به الدعوة والحركة والإرادة من عوامل القوة التي تتحدى بالرسالة، وتواجه التحديات بقوة الموقف.

وتلك هي الدّعوة المستمرّة لكل الدّعاة إلى الله الحاملين لرسالته، بأن يأخذوها بقوة، فيحشدوا كل عناصر القوة الفكرية والروحية والعملية التي

تجعلهم في موقع المواجهة الحاسمة الحازمة التي لا تهزمها عوامل الضعف، ولا تخيفها وسائل الرعب والتهويل. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾، فليفتشوا عن الأحسن فيها ليأخذوا به، وسيرون أنَّ كل ما فيها يمثل المرتبة العليا في الحُسن؛ فلا تفاضل بين تشريع وتشريع، أو بين مفهوم ومفهوم، بل هو التوازن في الجميع، لأن الله قد راعى الحكمة في كل ذلك في ما يريده من تحقيق الفلاح للإنسان المؤمن في الدنيا، وفي السعادة التي يحصل عليها في الحياة، وفي النصر بغلبة الحقّ التي يحققها في مواجهته لأعداء الله. ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذين ابتعدوا عن الحق، كيف يعيشون حياة الشقاء والعناء المنتهية إلى الهزيمة أمام قوة الحق، في كل المجالات، لتكون العاقبة لكم أيها المؤمنون.

● □ ● □ ●

الآيتان

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟
عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: كل من لا يخضع للحقّ فقد تكبّر عليه.

﴿ٱلرُّشْدِ﴾: سلوك طريق الحق. وضده الغيّ وهو سلوك طريق الضلال.

﴿حَبِطَتْ﴾: الحبوط: سقوط العمل حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل.

* * *

واقع المستكبرين في الأرض ومصيرهم

وهذه صورة أخرى لبعض النماذج الإنسانية، من الجاحدين لآيات الله، السائرين في طريق الضلال، وهي صورةٌ حيّةٌ متحركةٌ في أكثر من اتجاه، وفي أكثر من مجتمع، وقد أراد الله تقديمها إلينا لنستوحي منها كيف تكون الغفلة عن الله وعن آياته سبباً في ضلال الإنسان وهلاكه ووصوله إلى الدرك الأسفل من الانحطاط والسقوط، وفي بعده عن رحمة الله وهدايته.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فأتركهم ليسيروا على هواهم، في ما يريدون وما لا يريدون، فلا أمنحهم لطفاً من ألطافي التي أمدُّ بها المؤمنين، عندما تنحرف بهم الطريق عن غير قصدٍ واختيارٍ، فأهديهم بذلك إلى الصراط المستقيم، لأنهم عاشوا الحياة من أجل السير في طريق الهداية. أمّا هؤلاء فإنهم لم يريدوا الاهتداء بما أنزلت إليهم من هدى الوحي والرسالة، ولم يحركوا طاقاتهم الذاتية في هذا الاتجاه؛ فحذّرتهم فلم يحذروا، وخوّفتهم فلم يخافوا، وأنذرتهم فلم يذعنوا، فسأتركهم لما اختاروه، وسأصرفهم عن آياتي من خلال ذلك. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فهم يتحرّكون من موقع العقدة الذاتية المرَضِيّة التي تشعرهم بالاستعلاء والكبرياء، فتوحي لهم بأنهم أعظم من أن يذعنوا للفكر الذي يأتيهم من خارج ذواتهم، وأكبر من أن يخضعوا لإنسان ما ـ حتى لو كان نبيّاً ـ وتتعاظم عندهم العقدة، لتمنعهم من الاستسلام لأمر الله والإيمان بآياته، دون أن يكون لهم أيّ حقٍّ أو أيّة حجةٍ في ذلك كلّه، لأنه لا مجال للكبرياء إلا لله، وكل من هو غيره مخلوقٌ حقيرٌ لا يملك امتيازاً على غيره إلا بالعلم والتقوى، وهما الصفتان اللتان توحيان بالتواضع وتمنعان عن التكبّر.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، لأن العقدة تمنعهم عن الانطلاق

في أجواء الإيمان الفكرية أو الروحية من أجل أن يفكّروا ويتعرّفوا السبيل الحق للإيمان. ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾، لأنهم لا يصدرون في ما يسيرون فيه من طرق، عن دراسة النتائج الإيجابية والسلبية على مستوى المصير، في ما يتمثل فيه من رضا الله وسخطه على أساس قضايا الكفر والضلال، بل يصدرون في ذلك كله عن ملاءمة ذلك لهوى أنفسهم وعدم ملاءمته لها، من دون فرقٍ بين الرشد والغيّ. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ فضلّوا سواء السبيل. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ﴾ وسقطت عن الاعتبار، لأنها لم ترتكز على قاعدةٍ ثابتةٍ من فكرٍ ووعيٍ وإيمان. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وتلك هي العدالة الإلّهية في ما يثيب الله أو يعاقب، وفي ما يعطي أو يمنع، فلا نجاة إلا بعمل، ولا هلاك إلا بعمل.

□●□●□●

الآيـــات

وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ
أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا
سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ
بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ
يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ
ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا
فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ
غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا
سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ
لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

❊ ❊ ❊

معاني المفردات

﴿وَٱتَّخَذَ﴾: الاتخاذ: اجتباء الشيء لأمر من الأمور.

﴿حُلِيِّهِمْ﴾؛ الحُليّ بضم الحاء وتشديد الياء: هو ما اتّخذ للزينة من الذهب أو الفضة.

﴿خُوَارٌ﴾: صوت الثور.

﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: وقع البلاء في أيديهم، أي وجدوه وجدان من يده فيه.

﴿أَسِفًا﴾: تأتي أسف بمعنى غضب وحزن.

﴿تُشْمِتْ﴾: الشماتة: الفرح بالمصيبة ولا تكون إلا من العدوّ.

﴿سَيَنَالُهُمْ﴾: النول: اللحوق، وأصله مدّ اليد إلى الشيء الذي يبلغه.

﴿سَكَتَ﴾: أي سكن وهدأ.

﴿نُسْخَتِهَا﴾: ما نُسِخ وكُتِب منها.

* * *

موسى في مواجهة ضلال قومه

وبينما كان موسى يتابع الوحي مع ربّه، وينظّم الألواح ليحملها إلى قومه، كان السامريّ يعمل على خداعهم وإضلالهم، مستغلاً غيبة موسى الذي كان يخافه قومه، وضعف هارون الذي كان لا يحظى بالاحترام الكبير لديهم ـ في ما يبدو ـ وتفكيرهم الطفوليّ في أن يكون لهم إلّه ذهبيّ جميلٌ يعبدونه،

على الطريقة التي كانت مألوفة في تلك المنطقة، فجمع منهم الحلى الذهبية، وعمد إلى صنع عجل متجسّد له خوار ـ بطريقةٍ فنيةٍ خاصةٍ ـ ليعطي بذلك للعجل صفة القداسة، من خلال الصوت غير المألوف الذي ينطلق منه. وقال لهم: هذا إلّهكم وإلّه موسى. وأقبلوا عليه يعبدونه دون أن يستطيع هارون منعهم من ذلك لقلة تأثيره عليهم. هذا ما ذكرته هذه الآيات باختصار مع ردّ فعل موسى، بالإضافة إلى بعض التفاصيل.

* * *

قوم موسى يتخذون العجل إلّهاً

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ صنماً يعبدونه من دون الله ويؤلّهونه في خشوع وابتهالٍ. ولم تدخل الآية في تفصيل القصة، لأن الغاية من الحديث هنا عن هذه القضايا هي رصد حالات الضلال والانحراف كظاهرةٍ متكرّرةٍ مع كل نبي، فأشارت إلى القصة، ثم تابعت الحديث للتعليق عليها، ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾؟ فكيف يمنحونه صفة الإلّه، في الوقت الذي لا يملك فيه أيّة صفةٍ عاديةٍ تقرِّبه من طبيعة الإنسان العاقل الذي يفكّر ليهدي الآخرين بتفكيره؟ وما معنى أن يكون الشيء إلّهاً؟ هل هو في امتثاله أمامهم بجموده دون أن ينطق أو يعقل أو يتحرك، ليقفوا بين يديه خاشعين خاضعين لا يملكون إلا الأناشيد والابتهالات في جوٍّ من الخيال الروحيّ المريض الغارق في بحر الأساطير؟ ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم في ما انحرفوا به عن خط الهدى والإيمان، وشعروا بالضياع، وعاشوا الندم بعد أن هدأ كل ذلك الجو الاستعراضي الذي أثاره السامري، فرجعوا إلى الله من جديد.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ تعبير كنائي عن موقف النادم الذي يشعر

بالإحباط. ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ وانحرفوا عن الهدى الذي عاشوه مع موسى. ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. ولعل مثل هذه الروح التي انطلقت بهذا الابتهال الخاشع النادم، توحي بأن القوم كانوا قد وصلوا إلى مرتبةٍ جيّدةٍ من الروح الإيمانية في أعماقهم، حتى إذا انحرفت بهم الطريق في اتجاه الشيطان، سارعوا إلى الرجوع إلى الاستقامة في اتجاه الله.

* * *

موسى يرجع غضبان أسفاً

هذه هي قصّة هؤلاء، أمّا موسى فقد أخبره الله بأن السامري أضل قومه ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حزيناً، في حالةٍ يبتعد فيها النبيّ عن الغضب الذاتي، والحزن الانفعالي، فقد غضب لله الذي أشرك هؤلاء بعبادته، بعد أن أقام عليهم الحجة تلو الحجة، وحزن للرسالة، بعد هذا الجهد الضائع الذي بذله من أجل تنميتها في حياة هؤلاء وتعميقها في داخل نفوسهم.

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ فتصرفتم هذا التصرف الضال في غيابي، ولم تنتظروا الانطلاقة الجديدة التي ستتحرك في حياتكم من خلال وحي الله وأمره. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فلم تصبروا ريثما يأتيكم بالهدى والخير والبركة في شريعته...

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من يده في حالةٍ انفعالية، ثم وجّه كلامه إلى أخيه هارون، باعتباره خليفته الذي أراد أن يصلح أمرهم، ويقف ضد كل عوامل الفساد التي تنحرف بهم عن مسيرتهم في خط الإيمان.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ في تعبيرٍ صارخٍ عن الحالة النفسية التي كان

يعيشها موسى إزاء ما حدث، وربما تحدّث الكثيرون عن مبدأ العصمة في شخصيته كنبيٍّ، وعن التساؤل الإيمانيّ في مدى انسجام هذا التصرف الغاضب مع هذا المبدأ، ولكننا لا نجد تنافياً بينهما إذا أردنا أخذ القضية ببساطةٍ بعيداً عن التعقيد والتكلف، فموسى بشرٌ يغضب كما يغضب البشر، ولكن الفرق بينه وبينهم، أن لغضبه ضوابط، فلا يتصرف بما لا يرضي الله، ولا يغضب إلا لما يرضاه الله. وقد غضب على قومه لله، وعلى أخيه هارون للغرض نفسه.

لقد اعتبر أخاه مسؤولاً عما حدث بسبب تساهله معهم، وعدم ضغطه عليهم ومنعهم من ذلك، فقد كان تقديره، أنه إذا رفع درجة الضغط، يمكن أن يساهم ذلك في منع ما حدث ـ مما لم يقم به هارون ـ فكان موسى منسجماً مع نفسه، ومع دوره وصفته في ما اتخذه من إجراءٍ مع هارون، ولكن هارون كان له رأيٌ آخر، فقد وقف ضدّهم، وواجههم بكل وسائل الضغط التي يملكها، ولكنهم كانوا لا يهابونه كما يهابون موسى صاحب الشخصية القوية التي واجه بها فرعون بكل طاغوتيته. وكانوا يرون في فرعون القدرة التي لا حدّ لها في ما كان يتميز به من قوّةٍ بدنيةٍ وروحيةٍ وقيادية... أما هارون، فقد كان ـ في ما يبدو ـ في الظلّ مجرد تابعٍ لموسى، فلم يظهر له دورٌ إلا في المواجهة الأولى مع فرعون. فاستضعفه القوم بالرغم من مركزه كخليفةٍ لموسى ونائبٍ له. ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾، فلم أفعل ما أحاسب عليه، لأن الظروف كانت أقوى من قدرتي، فقاومت حتى لم يعد هناك مجالٌ للمقاومة، وجابهت حتى كدت أُقتل، فإذا تصرفت معي بهذه الطريقة، فإن ذلك سوف يكون دافعاً لشماتة الأعداء بي، لأنني قاومتهم وجابهتهم، وها هم يرونني أمامك واقفاً وقفة المذنب دون ذنب، فلا تفعل بي ذلك، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأني قمت بما اعتقدت أنه مسؤوليتي دون تقصير.

وشعر موسى بالحرج، وسكن غضبه، فرجع إلى الله يستغفره لنفسه

ولأخيه، لا لذنبٍ ارتكباه، ولكن للجوّ الذي ابتعد فيه القوم عن الله، من خلال الفكرة التي كانت تلح عليهما. إنها وقفة الإنسان الذي يحس بالذنب أمام الله من خلال تطلّعاته الروحيّة في تجربته، وتجربة الناس معه، فاذا لم يتحقّق له ذلك، كان له مع النفس حساب كبير، يفتش فيه عن احتمالات التقصير ـ دونما تقصير ـ لمجرّد الإخلاص لله والتعبير عن محبته. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ ما يمكن أن يكون منّا من تقصير في المقدّمات، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

* * *

تساؤلات حول فكرة العصمة

وتبقى حول فكرة العصمة بعض التساؤلات، كيف يخطىء هارون في تقدير الموقف وهو نبيّ؟ أو كيف يخطىء موسى في تقدير موقف هارون وهو النبيّ العظيم؟ وكيف يتصرف معه هذا التصرف؟ ولكننا قد لا نجد مثل هذه الأمور ضارّةً بمستوى العصمة، لأننا لا نفهم المبدأ بالطريقة الغيبيّة التي تمنع عن الإنسان مثل هذه الأخطاء في تقدير الأمور، بل كل ما هناك أنه لا يعصي الله في ما يعتقد أنه معصية، أما أنه لا يتصرف تصرفاً خاطئاً يعتقد أنه صحيح مشروع، فهذا ما لا نجد دليلاً عليه، بل ربما نلاحظ في هذا المجال أن أسلوب القرآن في الحديث عن حياة الأنبياء ونقاط ضعفهم، يؤكد القول بأن الرسالية لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري من حيث الخطأ في تقدير الأمور؛ والله العالم بأسرار خلقه.

* * *

غضب الله على الضالين وتوبته على التائبين

أما هؤلاء الذين عبدوا العجل، فهم على قسمين: أولئك الذين انحرفوا ثم تراجعوا وساروا من جديد في خط الاستقامة والإيمان، وأولئك الذين استمروا على خط الضلال. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في ما أراده الله من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، من خلال الظروف التي تحيط بهم، ومن خلال النفسية الوضيعة التي تجعلهم يواجهون الحياة من موقع صغائرها لا من موقع الأهداف العليا. وبذلك فهم يُسقطون أنفسهم تحت أقدام الأقوياء والأغنياء، ليحصلوا على بعض الشهوات والامتيازات الذاتية، فيعيشون الذل في الموقف، والانسحاق في النفسية والروحية أمام الآخرين.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الذين افتروا على الله الكذب، فجعلوا له شريكاً من غير حجّةٍ ولا برهان. وربما نستفيد من هذه الآية، استحقاق العذاب لهؤلاء من خلال اتخاذهم العجل إذا استمروا في هذا الاتجاه، أما الذين تراجعوا فلا عقاب لهم، لأنهم بدّلوا الموقف، وابتعدوا عن الافتراء... وقد نستوحي ذلك من الآية التالية.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقد جعل الله على نفسه قبول التوبة ممن تاب إليه بإخلاص. وقد سبقت رحمته غضبه، تماماً كما تاب على المشركين الذين تمردوا على الرسالة وحاربوها، ثم أخلصوا لله الإيمان، وساروا في الخط المستقيم، وجاهدوا في سبيله.

* * *

موسى يأخذ ألواح شريعته مجدداً

وأُغلق الستار على هذا المشهد. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ بعد أن ألقاها من يده.. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ليبدأ الجولة الجديدة في الدعوة إلى الله، لإنقاذ الضالّين من متاهات الضياع والضلال، بالهدى الذي أوحى به الله إليه في التوراة، ولينشر الرحمة الإلّهية التي تحوّلت إلى منهجٍ كاملٍ للحياة في الفكر والعاطفة والعمل، وإلى حركةٍ إيمانيةٍ واعيةٍ في نطاق الحق والعدل والجهاد... وهكذا بدأت التجربة الجديدة، لتتحرك في المواقف العامة للمبادىء، فتدخل في أجواء التفاصيل في ما تتضمنه الشريعة الإلّهية من تفاصيل الفكرة والموقف، فيتحرك بها الذين يخافون الله من موقع إيمانهم به، فيطبقون تعاليمه في حياتهم للحصول على ثوابه، وللنجاة من عقابه.

● □ ● □ ●

الآيــات

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ
قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ
ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَٱخْتَارَ﴾: آثر وأراد ما هو خير.

﴿فِتْنَتُكَ﴾؛ الفتنة: العذاب، وقيل: الكشف والاختبار.

﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: تبنا إليك.

﴿إِصْرَهُمْ﴾؛ الإصر: الثقل الذي يمنع حامله من الحركة.

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾: القيود. وتوضع في يدي الأسير أو عنقه.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: قال الزجّاج: اختلف أهل اللغة في معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، وفي قولهم: عزرت فلاناً أعزره عزراً، فقيل: معناه رددته، وقيل معناه: أعنته، وقيل معناه: لمته، ويُقال: عزّرته بالتشديد: نصرته[(١)]. وقيل: التعزير هو الإعانة والتوقير.

* * *

موسى يختار سبعين رجلًا لميقات الله

ويستمر الحديث عن قوم موسى؛ فقد اختار موسى سبعين رجلاً ليكونوا معه في الموعد الذي ضربه الله له. ولم تفصّل السورة المسألة حول طبيعة هذا الموعد؛ هل هو الموعد الذي ذهب إليه موسى ليكلّم الله ويعود إلى قومه بالتوراة، أم أنّ هناك موعداً آخر لمناسبةٍ أخرى؟ لقد اختلف المفسرون في تحديد ذلك، انطلاقاً من شواهد قرآنية تعرّضت لما يقترب من هذه القصة، وفصّلت بعض التفصيل أسباب العذاب الذي أوقعه الله عليهم، حيث أرادوا أن

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٧٤٨.

يروا الله جهرةً... ورأى بعضهم أنّ هذا ما جعل موسى يطلب من الله أن يمكِّنهُ من النظر إليه استجابةً لطلبهم منه ذلك، فإذا استجاب الله ذلك فسيرونه معه، لأنهم كانوا حاضرين هناك. وحاول البعض مناقشة بعض تفاصيل ذلك، وحملها بعض على المحامل الأخرى البعيدة لبعض الأحاديث الواردة في هذا المجال، ولكنّنا لا نجد كبير فائدةٍ من الدخول في مثل هذه التفاصيل، لأن القرآن أجمل القصة لابتعاد خصوصياتها عما يريده من أغراض، وهو تأكيد العقاب الإلهي لمن تمرّد وانحرف، وتقرير الفكرة التي تربط الحاضر بالماضي في قضايا الإيمان والانحراف.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ التي أنزلها الله بهم، فماتوا بها أو أغمي عليهم عندما أخذتهم الصاعقة، كنتيجةٍ لبعض مواقفهم أو طلباتهم أو أقوالهم ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ فقد عقلت لسانه المفاجأة، وأخذته الدهشة، وعاش في جوٍّ ضاغطٍ من الحيرة، وربما فكر بالطريقة التي يواجه قومه بها بنبأ هلاك سبعين رجلاً منهم دفعة واحدة، فقد يثير ذلك الكثير من حالة البلبلة والارتباك في المجتمع هناك، ولم يجد لديه إلا أن يرفع الأمر إلى الله ليعبر عن هذه الحيرة وهذا الخوف، وعن التمني الحائر لو أن الله أهلكه معهم قبل هذه التجربة الصعبة... ولكنه يرجع إلى روحية الابتهال والخشوع لله والتوسل الصادق إليه ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾؟! فنحن لا نتحمل مسؤوليتهم، لأننا لم نشاركهم أعمالهم وأقوالهم، ولم نرض بها من قريبٍ أو بعيد ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾.

* * *

من هم السفهاء الذين عناهم موسى عليه السلام؟

ولكن من هم السفهاء الذين عناهم موسى بقوله، هل هم هؤلاء السبعون، أم أنّ هناك أناساً آخرين؟ وهل كان موسى في موقف الحديث عن هلاك هؤلاء بما فعله السفهاء من غيرهم أو بما فعلوه هم، أم كان في موقف الخوف من هلاكٍ مستقبليٍّ للمجتمع، كنتيجةٍ لانحراف سفهاء بعض الأفراد فيه؟ هناك أكثر من احتمال، ولكن الظاهر أنه كان في موقف طلب الرحمة من هلاكٍ محتملٍ من خلال انحراف المنحرفين هناك، والرجاء بأن لا ينزل عقابه عليهم جميعاً لانحراف بعض الأفراد من السفهاء على طريقة: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً . .﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ وراعينا وناصرنا في جميع أمورنا، فإذا صدر منا الذنب فإننا نرجو المغفرة منك، وإذا عشنا الخطأ فإننا نتطلع إلى الرحمة لأنك وليُّ ذلك كله.

* * *

موسى عليه السلام يسأل الله المغفرة

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ فنحن نلجأ إليك ولا نلجأ إلى غيرك، ونتحرك في اتجاه الإخلاص إليك في العمل ليكون لنا بذلك النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة. . . وتلك هي حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك وأنبنا بقلوبنا وأرواحنا وخطواتنا العملية. . .

وتلك هي التطلعات الروحية التي عبّر بها موسى عن تطلعات كل مؤمنٍ يعيش خوف الله، فكيف أجابه الله؟ ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تبعاً للحكمة التي تفرض العذاب على من يستحقه حيث لا مجال لمغفرة أو رحمة.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ففي كل مظهرٍ من مظاهر الوجود، مظهرٌ للرحمة التي أفاضها على الحياة فتحوّلت إلى حركةٍ واسعةٍ تنتج الخير والبركة لكل شيءٍ، وفي كل نعمةٍ من نعم الحياة على الناس في ما يأكلون ويشربون ويلبسون ويستمتعون ويتقلّبون في رزقه... منطلقٌ للرحمة لمن يؤمن به ويطيعه، ولمن لا يؤمن به ويعصيه. وغداً إذا وقف الناس بين يديه، من المذنبين المسيئين والمطيعين والمحسنين، فسيجدون رحمته بانتظارهم، فيغفر لهؤلاء ما قدموا من خطايا، ويرفع درجة أولئك لما قدّموا من حسنات. وستتحرك رحمته في كل اتجاه، لتمنح الناس من رضوانه ومغفرته ما يوحي لهم بأن رحمته سبقت غضبه.

ولكنّ هناك من لا يستحقّ الرحمة من الله، لأنه قطع على نفسه كل طرق الإمداد، وأغلق عن حياته كل منافذ المغفرة، لأنه أساء كما لم يُسِيء أحد، فكفر بالله وأشرك به ما لم ينزل به سلطاناً، ولهذا فقد أخذ الله على نفسه أن لا يغفر لمن أشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولن يشاء المغفرة إلا لمن كان في قلبه نبضٌ من رحمةٍ، وحركةٌ من محبة، وانطلاقة من إيمانٍ... أمّا القلوب السوداء بالقسوة، الجامدة بالحقد، المختنقة بالكفر، فلن تنال المغفرة، لأنها لم تنفتح على الله في شيء، فكيف يمكن أن تأمل بانفتاح الله عليها بالرحمة؟!

* * *

المتقون هم الذين يتبعون النبي الأمي

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ويعيشون الخوف من الله، كمنهجٍ للسير في خط الفكر والعمل في الحياة، فيمنعهم ذلك من التمرد عليه بمعصيته، ويدفعهم إلى الانقياد له بطاعته، وذلك في ما تمثله التقوى من التزامٍ روحيٍّ

وعمليٍّ بالله. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في ما تمثّله الزكاة من حركة الرحمة في حياة الإنسان، بما توحي به من روحية العطاء، وحيويّة المحبّة، وفاعلية الإيمان... ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ في ما يثيره الإيمان بآيات الله من انفتاح للعقل على الآفاق الرحبة للمعرفة، وإذعان منه بالحقيقة الواضحة في أجواء الله، فإنّ الله يحب العقل المنفتح، والروح المؤمنة التقية المذعنة للحق.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ فينفتحون على ما تُقدّمه إليهم التوراة والإنجيل من دلائل وبراهين على صدق نبوّته ورسالته، فيؤمنون به ويتبعونه في أقواله وأفعاله... ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الأمر الذي يحقّق الانضباط لحركة المجتمع في علاقاته ومعاملاته وتصرفاته العامة، بحيث يكون الطابع العام للمجتمع هو الرقابة على بعضه البعض في تأكيد الخطّ المستقيم في جميع الاتجاهات، وذلك بطريقةٍ عفويةٍ إيمانيةٍ، لا تكلّف فيها ولا ارتباك. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ في ما يريد تحقيقه للإنسان في حياته من الاستمتاع بطيباتها في ما يأكلونه ويشربونه ويلبسونه ويتلذّذون به، ومن الابتعاد عن خبائثها التي تسيء إلى أجسادهم وأذواقهم وأرواحهم، لأنّ الله لم يمنح الإنسان الحرية في الإساءة إلى نفسه، ولذلك حرّم عليه ما يؤدي إلى ذلك. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الذي يثقل عليهم في حياتهم وأوضاعهم من تشريعاتٍ سابقةٍ أو لاحقةٍ، ﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ في ما كان يقيّدهم به في شرائعهم من الأشياء الشاقة. ويمثلون لذلك باشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وغير ذلك من الأمور التي قيل إنها كانت من التشريعات الصعبة في التوراة...

* * *

الخطوط العامة التي تميز الشريعة الإسلامية

وهذه الخطوط العامة هي ما يميّز الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي محمد ﷺ، وهي تتحرك في حياة الناس في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: هي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. فليس هناك عمل يأمر به الإسلام، إلا وهو خاضعٌ لعنوان المعروف، ويعني ما يعرفه الناس في وجدانهم لانسجامه مع المبادىء الخيّرة والقيم الروحية، وارتكازه على قاعدة المصلحة الإنسانية، أو ما لو عرف الناس أساسه التشريعي لأصبح قريباً ممّا يعرفونه أو يألفونه في ما يرتبط بحياتهم المستقبلية... وليس هناك عمل ينهى عنه الإسلام إلاّ وهو خاضعٌ لعنوان المنكر الذي هو ما ينكره الناس في فطرتهم الإنسانية لنتائجه السلبية على حياتهم، ولارتكازه على قاعدة المفسدة والمضرة التي تسيء إلى حركة التوازن في الحياة. وربما كان لهاتين الكلمتين «المعروف» و «المنكر» بعض الإيحاء بأن التشريع ينسجم مع الخطّ الوجداني للفطرة الإنسانية السليمة التي لا تعرف ولا تألف إلاّ الخير، ولا تنكر أو ترفض إلاّ الشرّ، فإذا عرفت الشر، وأنكرت الخير، فإن ذلك يعني الانحراف عن الاستقامة في الفكر والوجدان والشعور.

النقطة الثانية: تحليل الطيّبات وتحريم الخبائث، فليس في ما أحلّه الله إلا الطيّب الذي يرتاح إليه الذوق الإنساني، في ما يتذوّقه الناس من الأشياء الطيّبة، أو الذي يلتقي بالمنفعة لحياتهم في أرواحهم وأجسادهم، وليس في ما حرّمه الله إلا الخبيث الذي تعافه النفس، ويستقذره الذوق، وترفضه الفطرة... وإذا كان الناس يستطيبون بعض المحرّمات أو يعافون بعض المحللات، فلأنهم كانوا لا ينظرون إلا إلى الجانب السطحي من تلك الأشياء، ولا يتطلّعون إلى أعماقها ليكتشفوا الجانب الخبيث في عناصرها

الذاتية التي يستطيبون، وليعرفوا الجانب الطيب في أعماق الأشياء التي يعافونها، لأنّ المقياس في ذلك كله هو في الخصائص الذاتية للأشياء وللأعمال وليس في الجوانب الظاهرية منها.

النقطة الثالثة: الإصر وهو الثقل والأغلال، فليس في الإسلام حكم يثقل على الإنسان القيام به، إلا بما يفرضه التكليف في ذاته من ثقلٍ طبيعيٍّ يمارسه الإنسان بطريقةٍ عاديّة... وقد رفع القيود التي فرضتها بعض الظروف والأوضاع السلبية لدى الشعوب الماضية، مما اقتضى الشدّة في التشريع والصرامة في التحريم. وبذلك كانت الشريعة الإسلامية شريعة التخفيف والتسهيل والتسامح في كل أحكامها المتعلّقة بالفرد أو بالمجتمع.

* * *

الإسلام يختزن في داخله آفاق حركة الحياة

وهكذا نجد أنّ الإسلام يختزن في داخله، في ما يحمل من مفاهيم وما يخطط من وسائل وأهداف، أو يشرّع من أحكام، آفاق حركة الحياة، على أساس تحقيق المعروف وإبعاد المنكر، وتحليل الطيّب، وتحريم الخبيث، ورفع الأثقال، وتحرير الإنسان، ليكون الإسلام هو الدّين الذي يلتقي بالفطرة السليمة للإنسان، وليتحقق له بذلك سلام الحياة في قضاياها الكبيرة والصغيرة، لأن ذلك هو السبيل الذي أراد الله للسائرين فيه أن يحققوا من خلاله إنسانيتهم على أساسٍ من الشعور العميق بالحاجة إلى الحرية والوعي والإيمان، ليصلوا ـ من خلال ذلك ـ إلى هدف الفلاح في الدنيا والآخرة.

* * *

المؤمنون هم المفلحون

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ فأعانوه في تأدية رسالته، وعرفوا عظمته فاحترموا مكانته، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ في جميع معاركه ضد الكفر والشرك والضلال، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ فانطلقوا مع القرآن في جميع مفاهيمه وتشريعاته التي تضيء للحياة طريق الفلاح والنجاح، واتّبعوا ذلك كله، وحوّلوه إلى برنامجٍ كاملٍ للفكر وللحياة... ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أفلحوا في حياتهم الدنيا، لأنهم أقاموها على قاعدةٍ ثابتةٍ من الإيمان والفكر والصلاح، وأفلحوا في حياتهم الأخرى، لأنهم انفتحوا عليها انفتاح المؤمن الذي يعي جيداً أن طريق الجنة يمر بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، لأن ذلك هو موضع رضى الله سبحانه في الحياة.

وقد نستوحي من هذه الآية أن الله سبحانه يريد لهؤلاء الذين عرفوا الكتاب الذي أنزله على رسله، أن يتعرفوا صدق النبي محمد ﷺ من خلال دراسة رسالته في ما تأمر به وتنهى عنه، وما تحلّه وتحرّمه، وما تقدمه للناس من تشريعاتٍ تساعدهم في التخلص من أثقال الحياة التي تقيّد حريتهم وإنسانيتهم... وربّما يوحي ذلك بأن الرسالات تتشابه في خطوطها التشريعية في ما تتحرك به من مبادىء عامّةٍ، فيمكن للإنسان أن يتعرف صدق أيّة دعوةٍ رساليّةٍ من خلال دراسة العناصر الحية البارزة التي تكمن في خط الرسالات، من دون انتظارٍ لمعجزةٍ خارقةٍ أو نحو ذلك، مما يدلّ على أن العقل الواعي هو الحجة القوية التي يرتكز عليها الإيمان.

* * *

محمد رسول للعالمين

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، فلست رسولاً محلياً

أو قومياً، بل أنا رسولٌ عالميّ يواجه مشاكل الناس كلّهم بالحلول الواقعية المرتكزة على أساس مصالحهم في دنياهم وآخرتهم... وهذا النداء الصادر في مكة ـ لأن الآية مكية ـ يؤكد عالمية الرسالة الإسلامية، خلافاً لبعض آراء المستشرقين الذين يرون أن دعوة محمد ﷺ كانت محليةً في البداية، قبل أن تنطلق خارج النطاق المحلي في المدينة. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فإذا كانت له هذه السيطرة المطلقة على السموات والأرض والحياة والموت، وإذا كان هو الإلّه الذي لا إلّه غيره، لأن كل من عداه مخلوقٌ له، فلا بد من أن يخضع له في اتّباع رسوله في رسالته وإطاعة أمره ونهيه، لأن ذلك هو مظهر الإقرار بوحدانيته والاعتراف بالعبودية له. وقد استوحى العلاّمة الطباطبائي في الميزان أنها «بمنزلة تعليلٍ يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أولاً، وإمكان عمومها لجميع الناس ثانياً، فيرتفع به استيحاش بني إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبهم وخاصةً من الأميين، وهم شعب الله، ومن مزاعمهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وهم خاصة الله وأبناؤه وأحباؤه. وبه يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسولٌ عربيٌّ. وذلك أن الله الذي اتخذه رسولاً هو الذي له ملك السماوات والأرض، والسلطنة العامة عليها، ولا إله غيره حتى يملك شيئاً منها، فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه مانع يزاحمه، أو تعوق إرادته إرادة غيره، فله أن يتخذ رسولاً إلى عباده وأن يرسل رسوله إلى بعض عباده أو إلى جميعهم كيف شاء. وهو الذي له الإحياء والإماتة، فله أن يحيي قوماً أو الناس جميعاً بحياة طيبة سعيدةٍ، والسعادة والهدى من الحياة، كما أن الشقاوة والضلالة موت..»[1].

ولكننا نتحفّظ في استيحاء ذلك من هذه الفقرة، لأن الظاهر منها، بدليل

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٢٨٩.

الفقرات التالية، أنها واردةٌ في مجال تأكيد القوة المطلقة والهيمنة الكلية لله، كأساسٍ للدعوة إلى الإيمان به والاستجابة لرسوله...

* * *

دعوة للإيمان بالله ورسوله

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ وهذا التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، فلم يقل آمنوا بي، امتداداً لما سبق من كلامه، لأنه يريد أن يؤكد لهم الصفة التي تفرض عليهم موقف الإيمان والالتزام، ويوحي إليهم بأن الرسول الذي يدعوهم إلى الإيمان، هو أوّل من يركّز عقيدته على هذا الأساس، فهو ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾في كلّ ما أوحى به من كتبه ورسالاته، كإنسان يعيش الفكرة ويدعو لها، فهو يتحرك من موقع المعاناة الروحية التي انطلقت من الرسالة، فتحولت إلى تجربةٍ حيةٍ رائدةٍ. وقد جرى القرآن على هذا الأسلوب في تأكيد إيمان الرسول بما يدعو إليه، للإيحاء بأن صاحب الدعوة لا بد له من أن يؤمن بها ويلتزم قبل أن يدعو الآخرين إليها، لا كمن يقود الناس نحو مسؤوليةٍ معينةٍ ثم يكون أوّل الهاربين منها. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لأنه لن يقودكم إلا إلى الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى النهايات السعيدة المشرقة في أقرب وقت. وربما كان التعليل بـ «لعلّ» التي لا تفيد معنى الحسم في النتائج، للإيحاء بأن الاتّباع يحمل للنفس الحائرة روح الأمل والرجاء الكبير، الذي يدفع الإنسان للامتداد في هذا الاتجاه كوسيلةٍ عمليّةٍ للوصول إلى الهدى الواضح المشرق في نهاية المطاف.

● □ ● □ ●

الآيــة

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾

* * *

صفة الجماعة التي تعيش الإيمان في حياتها

لم يكن قوم موسى جميعاً ضالين في ما يفكرون به من الباطل، وما ينطلقون به من الظلم، بل كانوا فرقتين، فللباطل فرقةٌ جاحدةٌ كافرةٌ، وللحقّ فرقةٌ مؤمنةٌ مستقيمة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ﴾، والأمة هنا ـ وفي أكثر من آية قرآنية ـ يراد بها الجماعة القليلة أو الكثيرة التي تلتقي عند فكر واحدٍ، أو هدفٍ واحدٍ. . . ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فيحملون الدعوة للحقّ في رسالات الله رسالةً يبشرون بها وينذرون، من أجل هداية الناس.

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أي وبالحق يقيمون العدل في ما يحكمون ويمارسون من علاقات ومعاملاتٍ وأوضاعٍ متنوّعةٍ تتصل بالحياة العامة والخاصة. . . وتلك هي صفة كل جماعةٍ تعيش الإيمان في حياة أفرادها، كرسالةٍ وقضيةٍ ممتدّة في كل النشاطات الإنسانية، فلا يجمّدونه في ذواتهم، ولا يتهرّبون من

مسؤولياته، بل يعيشون الحياة كلها من خلاله. وقد أكثر المفسرون الحديث عن شخصية هؤلاء القوم، هل كانوا معاصرين لموسى عليه السلام أم أنهم متأخرون عن زمانه؟ ونحن لا نجد كبير فائدةٍ في تحديد ذلك، لأننا لا نبحث التاريخ في القرآن كحوادث تفصيلية، ولكننا نبحث الفكرة والخط والعبرة، ولذلك، فنحن نجمل ما أراد القرآن إجماله ونفصّل ما يريد تفصيله.

ونريد أن نشير إلى نقطةٍ أثارها صاحب تفسير الميزان، في محاولة استيحاء مدلول الآية في تعيين هؤلاء القوم بالأنبياء والأئمة الذين جاءوا من بعد موسى، وذلك لأن الله وصفهم في كلامه «بالهداية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وغيره من الآيات، وذلك أن الآية، أعني قوله: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، لو حملت على حقيقة معناها من الهداية بالحق والعدل بالحق، لم يتيسر لغير النبي والإمام أن يتلبّس بذلك»[١].

إننا نعلّق على ذلك، بأن وصف هؤلاء القوم بأنهم ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ لا يفرض العصمة في كل أقوالهم وأفعالهم، فلا يقعون في الخطأ في شيءٍ من ذلك، بل يكفي في صدق هذا الوصف أن يكون الحقّ هو المنهج الذي يسيرون عليه، والقاعدة التي ينطلقون منها في مسيرة الهداية والعدل، بعيداً عن كل التفاصيل التي يمكن أن يقع الخطأ في تطبيقاتها العملية، إذ لا مانع من القول بأن فلاناً يهدي بالحقّ ويحكم بالعدل، إذا كان ينطلق في هدايته وحكمه من شريعة الحقّ والعدل، ولذلك فإننا لا نوافقه على هذه الاستفادة أو الاستيحاء، مع الإشارة إلى ملاحظتنا السابقة، بأن الحديث في تحديد الموضوع غير مهم.

● □ ● □ ●

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٢٩٠ ـ ٢٩١.

الآيـــات

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ
وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ
يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾: صيّرناهم قطعاً وفرقاً.

﴿أَسْبَاطًا﴾: جمع سبط، والسِّبط في لغة بني إسرائيل هو القوم أو القبيلة.

﴿أُمَمًاۚ﴾: جمع أمة، ويراد بها الجماعة.

﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾: طلبوا منه الماء للسقيا.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: انفجرت.

﴿ٱلْمَنَّ﴾: قيل هو شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر.

﴿وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾: طائر.

﴿يَعْدُونَ﴾: يظلمون، وأصله مجاوزة الحدّ.

﴿حِيتَانُهُمْ﴾: حيتان: جمع حوت، وأكثر ما يسمي العرب الحيتان والنينان.

﴿شُرَّعًا﴾: الشرع أصله الظهور، ومنه الشرعة والشريعة، وهو الظاهر المستقيم من المذاهب.

* * *

قوم موسى يتوزعون على اثنتي عشرة فرقة

ويتابع القرآن الحديث عن تفاصيل أوضاع قوم موسى، في ما أنعم الله عليهم من نعمه وما واجهوه به من جحودٍ ونكرانٍ. . . ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا﴾ أي اثنتي عشرة قبيلة. ﴿أُمَمًاۚ﴾ فقد تحوّلوا إلى جماعاتٍ وقبائل، لكل واحدةٍ منها رئيس وتقاليد وموقع، وعاشوا في بيئةٍ قلّ فيها الماء أو انعدم، فطلبوا إلى موسى أن يسقيهم الماء، لأنهم عرفوا ـ من خلال تجاربهم معه ـ أنه يملك من الله كرامةً تتيح له الحصول على ما يريده، استجابةً لدعائه، وتأييداً لموقعه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾، أي انفجرت، ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾، لئلاّ يختلفوا فيما بينهم عند توزيع الماء عليهم، لأن الله يريد لهم الخير ليشربوا من دون مشاكل ومتاعب. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ واشكروا الله على ذلك بالعمل بما يرضيه والابتعاد عما يسخطه. ولكنهم كفروا وتمرّدوا وانحرفوا عن طاعة الله، فعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة، جزاءً على ما فعلوه. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وقد تقدّم الحديث عن بعض تفاصيل هذه الآية، لدى تفسيرنا الآية ٥٧ من سورة البقرة، كما وقد تم الحديث عن الآيتين [١٦١ ـ ١٦٢] ﴿وَإِذْ قِيلَ. . يَظْلِمُونَ﴾ في تفسير الآيتين [٥٨ ـ ٥٩] من سورة البقرة[١]، لأنهما تكريرٌ لهما مع بعض الفروق البسيطة جداً.

* * *

الله يكشف تمرد بني إسرائيل

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾. الضمير يعود إلى

(١) للمراجعة: الحلقة الثانية من كتاب «من وحي القرآن».

اليهود الذين كانوا في المدينة، فقد أراد الله من نبيّه أن يسألهم عن حال أهل هذه القرية التي كانت واقعة على ساحل البحر. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون أمر الله في الامتناع عن الصيد في يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي ظاهرة على وجه الماء، فلا يملكون أنفسهم من الإقبال على صيدها طمعاً في الحصول عليها. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي عندما لا يكون يوم السبت، ويكون الصيد مباحاً لهم، فإن الحيتان لا تأتيهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ ونختبرهم بهذا التكليف الصعب عقوبةً لهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. فقد أراد الله أن يظهر حالهم وتمرّدهم عليه، فأرسل إليهم السمك في اليوم الذي حرّم عليهم فيه الصيد، وأمسكه عنهم في اليوم الذي أباحه لهم. ويقال: إن بعضهم قد توصَّل إلى حيلةٍ معيّنةٍ لتجاوز هذا النهي بطريقة غير مباشرة، فحفروا أخاديد ومسارب تتصل بالماء تنفذ الحيتان منها إلى الأخاديد، ولا تستطيع الخروج، فكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون: نحن نصطاد يوم الأحد لا يوم السبت، فأنكر عليهم جماعة منهم وزجروهم عن هذا الاحتيال والتلاعب بالدين، وحذّروهم من بأس الله وعذابه، فلم يتّعظوا.

● □ ● □ ●

الآيـــات

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ
تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿مَعْذِرَةً﴾: عذراً.

﴿بَـِٔيسٍۭ﴾: شديد.

﴿عَتَوْا۟﴾: عصوا، وخرجوا إلى أفحش الذنوب.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: صاغرين ومبعدين.

﴿تَأَذَّنَ﴾: من الأذان وهو الإعلام.

﴿يَسُومُهُمْ﴾: يذيقهم.

* * *

اختلاف المؤمنين من بني إسرائيل في الموقف من المتمردين منهم

وتعاظم التمرّد على الله في وسط بني إسرائيل، واختلف المؤمنون الطائعون لله في تحديد الموقف من أولئك المتمردين، وفي طريقة مواجهتهم، فكان بينهم اليائسون الذين يرون عدم الجدوى في أساليب الوعظ والإرشاد، لأن القوم قد تجاوزوا الحدود الطبيعية في الفسق والعصيان، وقطعوا شوطاً بعيداً في هذا الاتجاه، وأغلقوا آذانهم وقلوبهم عن أيّة كلمةٍ هاديةٍ ناصحةٍ، وكان بينهم الرساليون الذين يشعرون بأن الدعوة يجب أن تحرّك في كل أفق، لتشرق فيه مهما كانت أوضاع الظلام في أجوائه، وأن الكلمة الواعظة الناصحة يجب أن تقال لكل إنسان، لتبعث فيه الإيمان والصلاح، مهما كانت قوة عناصر الفساد والضلال في داخله، لأن هناك جانباً من الخير يتحرك دائماً في قلب الإنسان إلى جانب العوامل الأخرى، فلا بد لنا أن نرعاه ونقويه، ونستفيد من كل فرصةٍ ممكنةٍ في إيقاظه وتنميته، من أجل إفساح المجال له لدفع الإنسان إلى الاتجاه الصحيح. ولا مجال لليأس في حركة الرسالة في الحياة، لأن عملية النمو والتحرك، لا تواجه الساحات الخالية من التعقيد، بل تواجه الساحات المعقّدة التي تتشابك فيها المشاكل وتتعقد فيها الأوضاع،

وتتمرّد فيها الأفكار، لتفتح طريقاً هنا، ونافذةً هناك، وتثير في موقعٍ آخر كثيراً من التساؤلات التي تفتح في حركة الوجدان بعض الانفتاح على الحقيقة، من خلال ما تحدثه من الاهتزاز الداخلي في الإنسان، وربما كان السرّ في ذلك أنّ الإنسان ليس كياناً جامداً لتتجمّد فيه المواقف، أو تتحجّر لديه الأفكار، بل هو كائنٌ متحركٌ قابل للتأثر بعوامل التغيير التي قد تنفذ إلى تفكيره أو أحاسيسه، وتوحي له بضرورة استبدال اتجاه حركته باتجاه آخر.. وهكذا ينبغي للعاملين أن يرصدوا الحالات الفكريّة والشرعيّة والاجتماعيّة للانطلاق منها إلى آفاق جديدة في حركة الرسالة في الحياة الإنسانية.

* * *

الإصرار على الإصلاح معذرة إلى الله

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ لأمة أخرى كانت تقوم بمهمة الوعظ والإرشاد للمتمردين العاصين ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، لأنهم تجاوزوا كل الحدود المعقولة في ضلالهم وعصيانهم، مما يجعل من الوعظ شيئاً عقيماً لا جدوى منه؟! فقد ساهمت تصرفاتهم في غضب الله عليهم بالمستوى الذي لا مجال فيه إلا لهلاكهم وتعذيبهم عذاباً شديداً.

﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، لنعذر إلى الله بأننا قد قمنا بواجبنا في تجربة الدعوة إليه، وفي الإعلان عن رفضنا لهذا الخط المنحرف بطريقة إيجابيّة في سبيل التغيير... وربما كان في كلمة «ربكم» بدلاً من كلمة «ربنا» بعض الإيحاء لهؤلاء المعترضين بأن المسألة ليست مسألتنا، فلا بد لكم أن تقدموا العذر إلى ربكم في الموقف، كما يجب أن نقدمه إليه في أسلوبنا العملي، لأنه ربنا وربكم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإذا كان هناك احتمالٌ واحدٌ للوصول إلى نتيجةٍ إيجابيةٍ في خط التقوى لديهم، فيجب أن يُلاحَقَ في تجربةٍ عمليةٍ واعيةٍ، لأن من الممكن أن تنجح التجربة الأخيرة في ما لم تنجح فيه التجارب السابقة، مما لا يجعل مجالاً لليأس... ثم ما معنى أن يفكر الدعاة إلى الله في الانسحاب من الساحة أمام عوامل اليأس، في الوقت الذي تفرض عليهم فيه الدعوة محاربة كل هذه العوامل السلبيّة، ومواجهتها بصبرٍ وثبات، ليفتحوا في داخلها عناصر الأمل.

* * *

الله يمسخ المصرّين على الكفر قردة

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ ولم يفتحوا قلوبهم على الذكرى الواعية التي تفتح القلوب على الله، وواجهوها بطريقة اللامبالاة، بعيداً عن أيّة مسؤولية عامّةٍ أو خاصة، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ من العذاب الذي حل بهؤلاء، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والضلال ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، وذلك هو جزاء الفاسقين الذين لا ينفتحون على الموعظة، ولا يلجأون إلى الفكر والتأمُّل في قضايا العقيدة والحياة... ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وتمرّدوا على الله، فعصوا أوامره ونواهيه، وبالغوا في ذلك، مسخناهم و﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، وذلك هو غاية عقاب الدنيا قبل عقاب الآخرة.

* * *

عذاب بني إسرائيل إلى يوم القيامة

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلم رسله ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في إيحاءٍ بالقسم، في استمرار العذاب ما داموا مستمرين على هذا الخط المنحرف البعيد عن الله ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيعذّبهم ويواجههم بكل وسائل الضغط والإذلال والتعذيب... وليس معنى ذلك أن لا تكون هناك مرحلة من المراحل تعطيهم بعض الأمن أو الراحة، لأن قضية الامتداد إلى يوم القيامة تعني الامتداد في حجم الظاهرة العامة، بالمستوى الذي يوحي بالاستمرار الذي لا تقف فيه الراحة عند حدٍّ عنصريٍّ ضد الآخرين من غيرهم، انطلاقاً من شعورهم بالتفوّق الذاتي على كل الناس، مما يخلق في داخلهم شعوراً دائماً بالاضطهاد في أيّ موقعٍ من مواقع الامتيازات المادية أو المعنوية التي يملكها الآخرون، باعتبار أنها مسلوبةٌ منهم، لأنها من حقوقهم ولأنّ الحياة لهم بأجمعها، في ما تمثّله شخصية شعب الله المختار.

وقد يغريهم ذلك بالتخطيط العدواني ضد الشعوب التي يعيشون بينها، بما يملكون من وسائل دقيقةٍ خفيّةٍ تهيّىء لهم السيطرة على مرافق الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية العامة، مما يمكّنهم من الاعتداء على حرية هذه الشعوب وتقدّمها في جميع المجالات. ومن الطبيعيّ أن مثل هذه المخططات لا بد من أن تثير الكثير من عوامل الحقد المضادّ، ومن ردود الفعل الأخرى في اتجاه مواجهة العدوان بمثله، ومن المشاعر السلبية ضد اليهود في شعور خفيٍّ بالعداوة التي تبحث عن متنفّسٍ لها في الممارسات العملية على مستوى العلاقات العامة والخاصة، وبذلك يتحول هذا الصراع النفسي إلى صراعٍ حادٍّ متحرك في اتجاه القضاء على هذه الروح العنصرية الحاقدة، ما دامت مستمرةً في تآمرها وعدوانها... وربما كان للتربية المعقدة

التي تخضع لها عملية التوجيه الداخلي للإنسان اليهودي، وللقوانين الصارمة التي تتحرك فيها مبادىء الانتماء إلى الشخصية اليهودية، الأثر الكبير في استمرار المجتمع اليهودي المنغلق على نفسه، مما يمنع من ولادة جوّ منفتح على الحياة من خلال المبادىء الإنسانية والروحية في قيم الدين والحياة، لأنّ تلك المبادىء لم تنطلق لديهم كقيمةٍ روحيةٍ إيمانية، بل انطلقت كوجهٍ من وجوه النشاط الذي يتيح لهم إمكانية استغلال الشعوب الأخرى التي تؤمن بها إيماناً حقيقياً من أقرب طريق... وهكذا يستمرون في إثارة عداء الشعوب لهم، حتى في أوج قوتهم وسيطرتهم، فتذيقهم تلك الشعوب العذاب بطرقٍ مختلفة، وذلك هو عذاب الله الذي يذيقه للمتمردين الحاقدين بما كسبوا من جرائم وأعمال. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ في موضع العذاب والنقمة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في موضع العفو والرحمة.

● □ ● □ ●

الآيـــات

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ
وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا
الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ
يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ
الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا
أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾: فرقناهم جماعات.

﴿خَلْفٌ﴾؛ بسكون اللام: قوم لاحقون أشرار، وبفتحها أخيار.

﴿عَرَضَ﴾؛ العرض: الشيء الزائل الذي لا ثبات له.

﴿وَدَرَسُواْ﴾: قرأوا.

﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالشيء: يعملون به، ويعتصمون.

﴿نَتَقْنَا﴾: رفعنا أو قلعنا.

﴿ظُلَّةٌ﴾: كل ما أظلّك فهو ظُلَّة بضمّ الظاء.

* * *

بنو إسرائيل يتفرقون في الأرض جماعات

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وتفرقوا في الأرض جماعاتٍ، ففي كل بلدٍ جماعة، وتفرقوا في الاتجاهات، فلكلٍّ اتجاهٌ في طريق الخير والشر وفي خط الصلاح والفساد. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الذين أصلحوا أمرهم في العقيدة وفي العمل ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي في المرتبة السفلى، وهم غير المؤمنين، ممن أفسدوا على أنفسهم أمر الحياة في الفكر والأسلوب والممارسة. . .

﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فعاشوا الصحة والمرض، والشدّة والرخاء، والأمن والخوف، والنعماء والضرّاء، من أجل أن يرجعوا إلى الله ويلجأوا إليه في أوقات البلاء، ويعرفوا نعمه وألطافه في أوقات العافية، فيعمّق ذلك إيمانهم، ويقوّي إرادتهم في اتجاه الخير، ولكن الحال بقيت على ما هي عليه، حتى جاء الجيل الجديد الذي يحمل الكتاب، لا كرسالةٍ للحياة من أجل رفع مستواها وتحقيق أهدافها الكبرى، بل كسلعةٍ من سلع التجارة من أجل تحقيق الربح المادي، ولذلك فهم يستغلّون بعض المفاهيم الغائمة ليستفيدوا منها في عمليات التضليل، ويحرّفون بعض

المفاهيم عن مواقعها الحقيقيّة ليصلوا من خلالها إلى أطماعهم وغاياتهم المنحرفة. . .

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ من مالٍ وجاهٍ وشهواتٍ وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا، ويسخّرونه في معصية الله، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ لأننا شعب الله المختار، فلا يمكن أن يعذّبنا الله بذنوبنا، أو يؤاخذنا على أعمالنا، لأنّ الله لا يعذب شعبه. ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ لأنهم يعيشون حياتهم من أجل الحصول على هذا العرض الزائل، فلا يكتفون بفرصةٍ واحدة في سبيل تحقيق غاياتهم، بل يعملون على انتهاز أيّة فرصةٍ جديدة في الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية.

* * *

الله يناقش الأوضاع المنحرفة لليهود

وينطلق القرآن ليناقش أوضاعهم المنحرفة التي لا تتفق مع المواثيق والعهود الإلّهية، التي ألزم بها عباده من أجل الالتزام بالمنهج الحكيم الذي يركز الحياة على قاعدةٍ ثابتة من الحق والعدل والاستقامة على الطريق السويّ. . . ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾؟! فكيف التزموا بالباطل وأعلنوه ودعوا إليه، ونسبوه إلى الله بغير علمٍ ولا هدى؟! هل يمكن أن ينسبوا أنفسهم إلى الجهل، وهم قد أخذوا الكتاب ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ وفهموا أحكامه وقضاياه؟ فما معنى هذا السلوك المنحرف، وهم يدَّعون الإيمان بالله وبالكتاب؟ ولكنّ القضية ليست قضية علمٍ أو جهل، بل هي قضية أطماع وشهواتٍ تختفي وراء كثير من الأقنعة والواجهات، بعيداً عمّا هو العهد والميثاق والكتاب. . .

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ ويلتزمون بعهد الله وميثاقه، ويعملون بكتابه. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وتفكرون في النتائج السلبية والإيجابية على مستوى الدنيا والآخرة، فإنكم لو انطلقتم مع العقل في موازينه ومقاييسه، لاستطعتم اكتشاف كثيرٍ من السلبيات في ما تعملون، وكثير من الإيجابيات في ما ينبغي أن تعملوه مما تركتموه وراء ظهوركم. وذلك هو نموذج هؤلاء الذين أضاعوا الكتاب. ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهم الذين يحوّلون مفاهيمه إلى عقيدةٍ وحركة حياةٍ، ويقيمون الصلاة كتعبيرٍ عن عبوديتهم لله وخضوعهم له، فإنّ الله سيجزيهم أفضل جزاء المحسنين المصلحين في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ الذين انطلقوا في الحياة من موقع الصلاح والإصلاح في حياة أنفسهم وفي حياة الآخرين.

* * *

الله يرفع الجبل فوق اليهود كالغمام

﴿۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾، أي قلعناه ورفعناه فوقهم تماماً كما لو كان غماماً يُظِلّهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، لأنهم لم يجدوا شيئاً يمسكه ويمنعه من الوقوع عليهم، ولكنها قدرة الله التي لم ينتبهوا إليها. وتلك هي المعجزة التي جمعت جانب التخويف إلى جانب إظهار عظمة الله وسرّ قدرته، من أجل أن يأخذوا الكتاب في عقيدته وشريعته بقوّة الالتزام والممارسة والدعوة... ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من هدايةٍ وخيرٍ وصلاح، ولا تضعفوا أمام التحديات الصعبة التي تواجهكم من قِبَل الأعداء، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ في ما تنطلق به القوّة من جهةٍ والوعي من جهةٍ أخرى، من موقف التقوى الذي يدفع الإنسان إلى اللقاء بالله على أساس متين.

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذرية: سلالة الإنسان من ذكورٍ وإناث.

* * *

فطرة الإنسان تشهد لله تعالى بالربوبية

إن الله يؤكد في آياته على إقامة الحجّة على الناس، في ما منحهم من وسائل الهداية ودلّهم عليه من سُبُلها، فلا حجّة لهم في كُفرٍ أو في معصيةٍ، بالرغم من محاولتهم التعلق ببعض الأوهام التي يعتبرونها أساساً لما يسيرون

فيه من طرق الضلال، أو ينحرفون به من سبيل... وفي هذه الآيات بعض الحديث عن ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فقد أودع في أصلاب الرجال النطف التي يخلق منها الذرية بالوسائل الطبيعية، على أساس ما جعله من قوانين الخلق والإيجاد ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ولكن هل كان هذا الإشهاد جماعياً دفعةً واحدةً، أو كان تدريجياً على أساس السنّة الطبيعية للخلق في إخراج الأبناء من أصلاب الآباء؟! ليس هناك في الآية ما يؤكد الاحتمال الأول، لأنّ مجرّد الحديث عن الموضوع بطريقة الجمع لا يدلّ على ذلك، لأن الطريقة القرآنية جرت على الحديث عن القضايا الإنسانية التي تخضع لعنوانٍ واحدٍ أو موقفٍ مشتركٍ بأسلوبٍ يوحي باعتبارها ظاهرةً واحدة، في الوقت الذي لا تكون مثل هذه القضايا مجموعةً في زمانٍ واحدٍ، لأنّ الهدف هو الحديث عن الفكرة المشتركة التي تجمع الكلَّ، بعيداً عن طبيعة الخصوصيات الفرديّة المتمثّلة فيها على صعيد وجودها الخاص، بل ربما نجد ما يؤكد الاحتمال الثاني، لأن الظاهر أن إخراج الذرية من الظهور واردٌ على سبيل الكناية عن عملية الخلق والإيجاد الفعلي، كما في الآيات التي تتحدث عن خلق الناس جميعاً من دون تفصيلٍ للطريقة التدريجية في ذلك. وإذا كان الأمر كذلك، كانت المسألة ظاهرةً في تدريجية الوجود، لأن الخلق الفعلي كان على هذا الأساس.

وعلى هذا، فإنّ المراد بالإشهاد، هو الإشهاد المنطلق من عملية الخلق، في ما أودعه الله في كل واحدٍ من الدلائل والبراهين على وجوده وتوحيده، من خلال الفطرة التي أودعها في تكوين الإنسان، مما تعتبر شاهداً على قضية الإيمان في ما توحي به من أفكار، وما تثيره من مشاعر، إذا لم ينحرف بها الإنسان عن مسارها الطبيعي بسوء اختياره. وبهذا يكون كل فردٍ من بني آدم شاهداً على نفسه بفطرته التي تنطق بذلك، بنفس حركة الوجود في

كيانه من دون كلام، لأن الفطرة تحس بالحاجة إلى الله في كل شيء، فالإنسان لا يملك أيّة إمكانيةٍ للوجود، أو إمكانية لاستمراره بعيداً عن الله، ممّا يجعل من وجوده وجوداً مرتبطاً بالله في كل شيء. ففي كل نبضة من بضاته هاتف يهتف بالوحدانية. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ بأنك أنت الله ربّنا لا إلّه إلا أنت، منك الحياة، وبإرادتك تستمر بنا.

﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ أي لئلاّ تقولوا في حالة اختياركم للخط المنحرف في الإيمان والعمل، أو تحتجّوا بالغفلة الفكرية والروحية عن مسألة الوحدانية، لأنكم لا تملكون الأساس الذي يبعث فيكم اليقظة الوجدانية التي توحي بالحقيقة، فإنّ الفطرة الإنسانية تعتبر أساساً لحركة الوعي الإيمانيّ في كيان الإنسان. ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أو تحتجوا بأن قضية الإشراك لم تكن حالةً ذاتيةً اختياريةً، بل كانت خاضعةً للوضع الطبيعي العفويّ الذي يخضع فيه الأبناء للسير على خط الآباء، في ما يعتقدون ويعملون، في عملية محاكاةٍ وتقليدٍ لا يملك الإنسان معها أية إرادةٍ مضادّةٍ فاعلةٍ، وبذلك يكون الآباء هم المسؤولون عن عملية الكفر والضلال، فلا مسؤولية لنا في ذلك. ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فتأثّرنا بهم بما تتأثر به كلّ ذريّةٍ بالجيل السابق.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الذين اختاروا الباطل بملء وعيهم وإرادتهم، بينما كنا خاضعين في عملية الانتماء لأجواءٍ عاطفيةٍ ضاغطةٍ، لا نملك إلا السقوط أمامها في التجربة الصعبة، وكيف تهلك الذين انتموا للباطل بوحي العاطفة بسبب أفعال الذين عاشوا فيه بالإرادة والاختيار؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾للناس ليفهموا كيف يواجهون المسؤولية من موقع الوعي المنفتح على حركة الإيمان في الحياة، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، فيستقيموا في طريق الحق عندما يستبين لهم الجانب المشرق من الأفق الواسع.

* * *

هل ثمة عالم آخر اسمه عالم الذر؟

هذا بعض ما نستوحيه من هذه الآيات، ولكن بعض المفسرين فهموا منها معنًى آخر؛ فقد قالوا إن هناك عالماً آخر تشير إليه، وهو «عالم الذر» الذي تحدثت عنه بعض الروايات، واعتبرت الآية الأولى دليلاً عليه. فقد جاء في هذه الروايات أن الله عندما خلق آدم، أخرج من ظهره ذريته كمثل الذر حتى ملأوا الفضاء من حوله، فأخذ الله عليهم العهد بالإيمان به، والسير على هديه، وأشهدهم على أنفسهم بأنه الله الذي لا إله إلا هو، فشهدوا بذلك وأعطوه العهد على أنفسهم به، ليكون ذلك حجةً من الله عليهم عندما ينحرفون عن خط الإيمان والطاعة، فلا يستطيعون بعد ذلك الاحتجاج بالغفلة عن الحق، وبسيطرة عقيدة الآباء عليهم.

وهكذا اعتبرت الآية دليلاً على هذا الموضوع، ولكنّ كثيراً من العلماء أنكروا ذلك، لقصور الأدلّة التي أقامها المثبتون عليه، ولأن الحجة لا تقوم على الإنسان بما كان قد اعترف به في عالم الذر، لغفلته عن أصل الموضوع وعدم تذكُّره له من قريبٍ أو بعيدٍ، مهما حاولت الآيات والأحاديث تذكيرهم به، فلا يبقى هناك فرق بين الغفلة الأصلية التي لم يسبق للإنسان فيها المعرفة، أو الغفلة الطارئة التي جاءت بعد المعرفة في عالم آخر لا ربط له بهذا العالم أصلاً. ثم إن الآية لا تنهض دليلاً على ذلك، فإن المذكور فيها أنه أخرج من ظهور بني آدم وذرياتهم، بينما تقول الروايات أنه أخرج من ظهر آدم ذريته. وقد جرت مناقشات كثيرة في هذا الموضوع، من حيث الدفاع عن فكرة «عالم الذرّ» وعن انطباق الآية عليه... وقد ذكرها صاحب تفسير الميزان(١)، فليرجع إليه من أراد، فإننا لا نجد كبير فائدةٍ في الإفاضة في هذا الموضوع.

● □ ● □ ●

---

(١) يراجع: تفسير الميزان، ج: ٨، من ص: ٣١١.

الآيتـــان

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ
مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿نَبَأَ﴾: خبر له شأن.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: تجرّد منها.

﴿أَخْلَدَ﴾: سكن وركن.

﴿يَلْهَثْ﴾: يخرج لسانه وهو يتنفّس بشدّة نتيجة العطش أو الإعياء.

* * *

مثل الذي أخلد إلى الأرض كمثل الكلب

وهذا حديثٌ عن شخصٍ من بني إسرائيل، قيل إن اسمه بلعم بن باعورا كان يملكُ الاسم الأعظم، وقيل إنه شخصٌ معاصرٌ للدعوة الإسلامية، كان يعرف الكثير من آيات الله وتعاليمه، ولكن هذا الشخص انحرف عن الخط المستقيم، فلم ينتفع بما يملك من المعرفة، ولم ينفتح على الآفاق الرحبة العالية التي ترفعه إلى الله في عملية سموٍّ وطهرٍ وإيمانٍ، بل هوى إلى الأرض في حالة انحطاط روحيٍّ وفكريّ، فلم يتطلّع إلا إلى الأجواء السفلى التي تربط مطامحه بالتراب ولا شيء إلا التراب... وهذا ما نريد أن نتابعه مع هاتين الآيتين:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ في ما رزقناه من وسائل المعرفة، في ما يهدي إليه العقل أو الوحي، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ وابتعد عنها في عملية رفض وانحراف؛ ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾، لأن الفكر الذي تمثّله هو فكر الذرى الشمّاء الذي ينظر إلى أعالي الأمور ولا يتطلع إلى أسافلها، حيث الروحية المنفتحة على الله في آفاق المطلق.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ والتصق بها، وأقبل عليها في عبادةٍ وخضوعٍ ونهمٍ إلى التراب. والالتصاق بالأرض، يعني الانغماس في القيم المادية التي لا تنبض فيها خفقةٌ من قلب، ولهفةٌ من روحٍ، ونبضةٌ من وحيٍ، بل تتجمّع فيها كل أنانيّة النفس الأمّارة بالسوء، وشهوات الجسد الباحث أبداً عن المتعة الحسية، وأطماع الذات التي لا تفكّر إلاّ بمطامعها ولو على حساب الآخرين... وبذلك يسترخي الإنسان مع أجواء السعادة الحسية المادية، ويستريح للخطوات اللاهثة وراء الرغبة، ويبتعد رويداً رويداً عن كل آفاق الروح الباحثة أبداً عن المطلق في رحاب الله، حيث يعيش الإنسان إنسانيته في أريحية القيم ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، فجعله القاعدة التي ينطلق منها في كل أقواله وأعماله وعلاقاته وانتماءاته، وإذا كان الهوى هو القاعدة، فمعنى ذلك أن الضياع هو الأفق، وأن الرمال المتحركة هي الأرض، وأن الضباب هو خط

الرؤية للحاضر والمستقبل، وبذلك يختلط عليه الحق والباطل، والخير والشر، ويعيش الاهتزاز في الموقف، فلا يسكن إلى فكرٍ، ولا يستريح إلى موقع، ففي كل يومٍ هوًى يشدّه إلى طمعٍ، ويهوي به إلى الحضيض، وينقله من القمة إلى أعماق الهوّة في لحظات. إنه المزاج الذي يحرّك صاحبه تبعاً للحالات الطارئة، في ما تتفتح عنه من غرائز، وما تستجيب له من شهوات، وما تتّجه إليه من نزواتٍ وأطماع.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ لأن هذا اللهاث الذي يتصاعد منه ليس وليد موقف دفاعيٍّ، أو نتيجة حركةٍ عقلانيّةٍ، بل هو حالةٌ جسديةٌ تخضع لحاجات الجسد، وتلتقي بجانب الغريزة، ولهذا فإن تذكيره بجوانب المعرفة عنده لا يجديه شيئاً، لأنه قد أغلق قلبه عن كل إيحاءاتها، وجمّد مشاعره عن كل أحاسيسها، واتجه بكل كيانه إلى هذا اللهاث في أحاسيس الشهوة، وإيحاءات الطمع والنزوة.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وانحرفوا عنها، وساروا ـ من خلال ذلك ـ في طريق الضلال... إنهم القوم الذين لا يريدون أن ينتفعوا بما يعرفون، ولا يحاولون أن يتطلعوا في آفاق المعرفة إلى ما لا يعرفون، فالمعرفة عندهم ترفٌ يتحركون فيه من مواقع الحاجة إلى الترف، وليست رسالةً للحياة يحرّكونها من أجل بناء النفس على ما يخدم رسالة الحياة. ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ على هؤلاء الذين تدعوهم إلى الحق، ليعيشوا تجارب الآخرين من خلال القصة، لا ليستهلكوها لتكون مجرد كلماتٍ لاهيةٍ تملأ لديهم أوقات الفراغ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيقارنون بين حياتهم وحياة أولئك الذين عاشوا في أحداث تلك القصص، ويعرفون النتائج السلبية في حياتهم المستقبلية إذا ساروا على النهج الذي سار عليه أولئك، من خلال دراستهم للعاقبة السيّئة التي انتهى إليها أمرهم في الماضي.

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾
مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ
بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ذَرَأْنَا﴾: أنشأنا وخلقنا وأحدثنا.

* * *

الكافرون كالأنعام بل أضل سبيلاً

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لأنه مثل الحياة التي لا تبحث في حركتها عن الخير الذي يبني للإنسان شخصيته على أساس الحق في جانب

الفكر والعمل، بل تبحث عن الشرّ الذي يهدم ذاته ويوجهها في اتجاه الهلاك، فالإنسان الإنسان، هو الذي يعرف الحق فيتبعه، ويعرف الباطل فيجتنبه... ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم يسيئو إلى أنفسهم عندما يمنعون عنها الانفتاح على الغايات الخيِّرة السعيدة المنطلقة من الله.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ في ما يتحرك به من السير على هدى الله في وحيه، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ في ما ينحرف به باختياره عن النهج السويّ للهداية، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة، بما أوقعوا فيه أنفسهم من الخسران الروحي والعملي.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، أي خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الذين عطّلوا الطاقات الفكرية والحسية التي وهبهم الله إياها من أجل أن يستفيدوا منها في خطّ المعرفة، فقد خلق الله لهم العقول ليفكروا بها فيهتدوا بذلك في معرفة الخط السليم للحياة، وخلق لهم الأعين ليبصروا بها خلق الله، والآذان ليسمعوا بها آيات الله، والكلمات التي تفتح قلوبهم على الحق، واكنهم جمّدوا ذلك كله، فعطّلوا عقولهم عن التفكير، وأعينهم عن التحديق بالأشياء بوعيٍ، وأسماعهم عن الاستماع إلى المواعظ بتركيز. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنهم لم يحرّكوها في اتجاه الفهم الواعي للأمور، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ في التعرف على مظاهر عظمة الله، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ لأنهم لم يركّزوا وعيهم في الاستماع إلى الآيات بوعيٍ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وكالبهائم السائمة التي لا تعقل ولا تعي، فهي عندما تتحرك لا تتجاوز نداء غرائزها لأنها لا تملك مجالاً لغير ذلك... ولكن الإنسان الذي يملك القدرة على تحصيل مفردات المعرفة، كما يملك القوة العقلية التي يستطيع بواسطتها أن يحوّل مفردات المعرفة إلى منهج فكر وحياة يهديه للحق والإيمان، ثم يعطل ذلك، يكون بالنتيجة مساوياً للأنعام، لأن

قيمة الطاقات هي في أن تتحرك لتحقق القوة، فإذا تجمدت كان وجودها وعدمها سواء. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم يضلّون من حيث يمكنهم السير في طريق الهدى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الذين أوقعتهم شهواتهم وملذّاتهم في غفلةٍ مطبقةٍ لا يملكون معها وعياً وانفتاحاً وتفكيراً.

● □ ● □ ●

الآيــات

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ
كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ
يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ
ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى
طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يُلْحِدُونَ﴾: ينحرفون عن الطريق القويم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: الاستدراج من الدرجة: أي أن الله يسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً، تماماً كمن يرقى درج السلّم.

﴿وَأُمْلِي﴾: أمهل وأؤخر.

﴿كَيْدِي﴾: مكري.

﴿مَتِينٌ﴾: شديد وقويّ.

﴿جِنَّةٍ﴾: الجنون وأصله الستر.

﴿مَلَكُوتِ﴾: الملكوت: هو الملك الأعظم للمالك الذي ليس بمملوك.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: العمه للقلب، والعمى للعين.

* * *

لله الأسماء الحسنى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. هل هذه الفقرة واردةٌ في مجال الإشارة إلى أن هناك أسماءً محدّدةً لله هي الأسماء الحسنى؟ لننتقل ـ بعد ذلك ـ إلى مسألة الحديث عن اسم الله الأعظم، فنفيض الحديث عن تفاصيل ذلك، في ما أفاضت به بعض الروايات من تحديد الأرقام المختلفة بين القليل والكثير.

* * *

هل أسماء الله توقيفيّة؟

وقد يثار سؤالٌ آخر، هل أن أسماء الله توقيفيةٌ، فلا يجوز لنا أن نتحدث عن ذات الله إلاّ من خلال الأسماء الواردة في الكتاب والسنّة، أم أنّ المسألة لا

تتوقف عند ذلك، بل تتّسع لكلّ الصفات التي تشير إلى الذات الإلهية بما يتناسب مع عظمته وجلاله؟ وهل نستطيع اعتبار الآية دليلاً في تحديد أحد الاحتمالين؟

إننا نحسب أن الأسماء الحسنى تشير إلى الكلمات من حيث مدلولها الذي يمثّل الصفات الإلّهية المستمدة ممّا قادنا العقل إلى إثباته، أو ممّا حدّثنا عنه الكتاب والسنّة من العلم والقدرة والرحمة والكرم والكبرياء والعظمة والخلق والملك وغير ذلك، من خلال ما توحيه من معانٍ تثير داخل الإنسان الثقة بالله، بحيث يشعر بالحاجة الدائمة إليه في كل قضيةٍ أو مشكلةٍ أو حاجةٍ تواجهه، لينطلق من هذه الأسماء في دعائه لله، ليحقق له كل ما يريد. وبهذا تلتقي كل الكلمات التي تعبِّر عن أيّة صفةٍ من صفات الله، في أجواء الدعاء والعبادة، من حيث انطلاقها من الحدود الشرعية في التعبير عن مضمون الذات الإلّهية، مما يجعل كل تلك الكلمات من أسماء الله الحسنى حاملةً المعنى الذي يشير إلى الله في صفات الجلال والكمال.

أمّا التوقيفية في أسماء الله، فلا نجد لها أساساً في النصوص الدينية التي بين أيدينا، في الوقت الذي لا نملك فيه أيّة دلالةٍ في الآية عليه، ولم نطّلع على ما يحدّد لنا ذلك، بل ربّما نجد في جواز ذكره بأسمائه الدالّة عليه باللغات الأخرى ما يؤكد عدم التحديد. ونحن لا نفهم وجه التحديد بلفظ معيّن في مقام التعبير عن الذات، لا سيما إذا لاحظنا أن هذه الأسماء المعروفة لا تحمل أيّ سرٍّ مخصوص يميّزها عن أيّ لفظ آخر، فليس لدينا إلا إفادتها للصفة المعيّنة في ما توحي من معانٍ عامّةٍ. وربما كان الأساس في احتمال التوقيفية هو هذه الآية، ثم توسّع القائلون بتحليل هذا الرأي في مقام البحث، ولكننا لا نجد فيها أية دلالةٍ على ذلك ـ كما ألمحنا إليه ـ بل هي واردة في مقام الإيحاء بأنّ الصفات الحسنى التي تعبِّر عنها هذه الأسماء كلها لله، مما يجعل منها منطلقاً للتوجّه إليه والتعلُّق به، فالكلمات هي التي تحمل للإنسان

بقيمة الدعاء وجدواه، في ما تمثّله من أساسٍ للقدرة والامتداد.

* * *

مسألة الاسم الأعظم

أما الاسم الأعظم، فقد ورد الحديث عنه في أكثر من روايةٍ، في ما تحدثت به عن اختصاص بعض الأنبياء والأولياء بمعرفته، وعن تأثيره في إعطاء القدرة على القيام بأعمالٍ خارقةٍ للعادة، ولكننا لم نستطع أن نقف من ذلك على شيءٍ واضحٍ يحدّد لنا أجواء هذا الاسم وكلماته، كما لم يتّضح عند القائلين به الذين تطرف بهم الرأي، حتى قال بعضهم إنه مؤلف من حروفٍ مجهولةٍ لنا، لو عثرنا عليها أخضعنا لإرادتنا كل شيء. وربما كان لنا أن نستبعد هذه القيمة الكبيرة للحروف، في ما تنطلق به من أشكالٍ وأصواتٍ، لأن التأثير ـ كل التأثير ـ هو لله تعالى من خلال قدرته المطلقة، فإذا كان لبعض الكلمات خصوصية، فلأن مدلولها يمثل معنًى أكبر وصفةً أعظم. ونحن لا نفهم ما معنى التفضيل في اتصاف الله بصفةٍ معينة في مقابل صفاته الأخرى.

فلنجمل الكلام في ذلك ونرجعه إلى أهله الذين يعرفون منه ما لا نعرف، لا سيما أن المسألة تدور في احتمالاتٍ يكتنفها الغموض في أكثر من جانبٍ، مما يجعل أكثر الأحاديث تدور حول اختصاص الله بعلمه، فهو الذي يمنحه لبعض الناس من دون أن يبيح لهم أمر تعليمه للآخرين، فإذا كانت القضية تدخل في نطاق الأسرار الإلهية، فإنّ البحث عنها لا يفيد الباحث، لأنه يتحول إلى حلقةٍ مفرغةٍ لا تنتهي إلى شيءٍ. فلننفتح على ما نفهمه من أسماء الله، ولنفتح قلوبنا للمعاني الروحية الممتدّة في آفاق الروح والحياة، لنتقرّب إلى الله من خلال ذلك، ولنعرف أننا نلتقي بكل حاجاتنا وقضايانا عنده، فله الأسماء الحسنى ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾، واذكروه بها في دعائكم له وعبادتكم؛ فهذا ما

يلتقي بالخط المستقيم للعقيدة والأفق الواسع للإيمان، وهو الذي يُنمّي في وعي الإنسان المؤمن العلاقة الروحية العميقة بالله، في ما توحي به الصفات الإلهية من أنّ كل الأشياء التي تحتاجها الحياة، تلتقي عنده وتخضع لإرادته، ممّا يجعل من مسألة الدعاء والعبادة، مسألةً فكريةً وروحيةً وعمليةً في تنمية علاقة الإنسان بربه، وتأكيد الإحساس بمعنى العبودية في نفسه.

* * *

كل إنسان يجزى بعمله

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ فيميلون عن الخطّ المتوازن في ذلك، فيسمّونه باسم غيره، فينسبون له بعض صفات مخلوقاته من الخواص المادية المحدودة، أو الصفات القبيحة، كالظلم في فعله، والجهل في حكمه... أو ينسبون إلى غيره ما يختص به، فيسمون غيره باسمه في ما يصفون به بعض مخلوقاته ببعض الصفات المختصة به، كما في حالات الصنميّة الحجرية والبشرية... فإن ذلك كله يساهم في عملية الانحراف عن الخط المستقيم للعقيدة، أو عن المعنى العميق للعبادة، ويحوّل الإنسان إلى خط الضلال في ما يمثله من كفرٍ أو عصيانٍ دون أن تكون له حجةٌ على ذلك من إحساسٍ أو فكر... فلنتركهم في مسيرتهم المنحرفة، ما داموا لم يستمعوا إلى صوت الحق، ولم ينفتحوا على أجواء الحوار... ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لأن الله قد أقام عليهم الحجة في ذلك كله، وليس لأحد منهم الحجة على شيءٍ في ما يعمله، وسيلاقي جزاء عمله من عقابٍ وعذابٍ. تلك هي عدالة الله في حكمه، فلا يُجزي إنساناً إلا بعمله، فهو الذي يتحمل مسؤولية ذلك كله.

* * *

من الناس مَن يهدي بالحق والعدل

ولكنّ هؤلاء لا يمثّلون ظاهرةً ممتدةً شاملةً في حركة الحياة والإنسان، فهناك الذين يعيشون في حياتهم الحق كفكر، والعدل كخطٍّ للسير وللعلاقات ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ في عملية انتماءٍ ودعوة، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في حركة ممارسةٍ ومعاملةٍ، لأنهم ينطلقون من قاعدة الإيمان العميق، والوعي المنفتح، والإرادة القوية، والعقلية الجادّة... ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وأنكروها في الفكر والممارسة، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وذلك بما يهيّىء الله لهم من نعيم الحياة ولذتها، مما يلهيهم عن التفكير، ويشغلهم عن المسؤولية والجدّية في مواجهتها، فيخيّل إليهم أنهم يمسكون بزمام الحياة، ويملكون الأمر كله، وتتضخم لديهم حالة الشعور بالأهمية في الأدوار التي يمثلونها، وفي الطاقات التي يملكونها، وفي الأجواء المحيطة بهم، في ما يؤيد المؤيّدون، ويهتف الهاتفون، وبذلك يتدرّجون من موقع ضلال إلى موقع ضلالٍ آخر، في ما يتقلبون به من نعمةٍ إلى نعمةٍ، في هذا الانحراف الكبير في وعيهم لمعنى النعمة في حساب المسؤولية.

* * *

الله يكيد بالكافرين

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأمد لهم الحياة كما يحبون ويشتهون، فلا يعكّر صفوهم كدر، ولا يثير نفوسهم قلق، بل هو الاسترخاء لهذا الامتداد اللاّهي للحياة. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾. والكيد هنا يمثّل معنى الخطة الإلّهية الجارية على السنن الطبيعية للأشياء، في ما يمهّد للإنسان ساحة الاختيار بعيداً

عن الضغوط التي تجعله مقهوراً في إرادته؛ فهناك الأشياء التي تشجع جانب الغفلة في نفسه، وهناك العوامل التي تفتح له باب التفكير... وله أن يقوّي هذا الجانب بالتعمُّق في النتائج السلبية والإيجابية التي تتيح له وضوح الرؤية، لما يتخذه من مواقف في هذا الاتجاه أو ذاك، فقد هيأ الله له ذلك في الاتجاهين في ما أعطاه من فكر يقوده إلى النتائج الحاسمة في حركة الإيمان.

* * *

الله ينفي الجنون عن النبي

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في كل ما واجههم من أمر الدعوة، في شخصية الرسول الداعية، وفي ما جاء به من وحي الرسالة؟ فهل يجدون فيه إلاّ العقل الواسع، والأفق العميق للفكر، المنفتح الروح؟؟؟ وهل يرون فيه شيئاً مما تثيره الكلمات اللامسؤولة التي يطلقها المشركون ضده؟ إن الفكر الحرّ سيقودهم إلى النتيجة الحاسمة ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، فليس هناك أي مظهر لذلك من قريبٍ أو من بعيد، بل هناك ما هو مضاد له في ما يتمثل في دعوته من وعيٍ للمسؤولية، وتوعيةٍ للإنسان في قضايا المصير في ما ينتظره من عذاب أخروي من جرّاء الانحراف ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وهل يلتقي هذا الخط الفكري الذي يمنع الإنسان ويحذره من الوقوع في الهلاك والعذاب، بتلك الكلمات اللامسؤولة التي تتهمه بالجنون؟! إن القضية لا تحتاج إلا إلى فكرٍ ينظر إلى الأشياء بعمقٍ وصفاءٍ.

* * *

ملكوت الله تعالى مظهر لعظمته

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويتأملوا في هذا العالم الواسع المترامي، في ما تمثله السموات والأرض من عوالم متنوعة في مظاهرها وخصائصها. ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، في ما خلقه الله من الموجودات التي تحتويها هذه العوالم، والتي تتمثل فيها أسرار العظمة ومظاهر الإبداع... لينطلقوا من هذا النظر القائم على التفكير إلى الشعور بالمسؤولية في ما يستوحونه من إيمانٍ بالله وبشرائعه، وليعيشوا الحياة من خلال ذلك، فيفكروا بالحساب على أساس الثواب والعقاب. ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فيدفعهم ذلك إلى الإحساس بالخوف من ضياع الفرصة من أيديهم، فقد لا يستطيعون إصلاح ما فسد إذا لم يبادروا اليوم قبل الغد، لا سيما أن عناصر الإيمان متوفرة لهم. فإذا لم يؤمنوا بها فبِمَ يؤمنون؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ ليس هناك أيّة قاعدةٍ للإيمان بأيّ شيءٍ آخر...

* * *

من يضلل الله فلا هادي له

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأن للهدى أسبابه الطبيعيّة التي تحتمه كنتيجة، فإذا لم يأخذ الإنسان بهذه الأسباب التي هيّأها الله له، كان الضلال هو نتيجة حتمية للعوامل التي أودعها الله في خصائص الأشياء، ذلك أن الله لا يتدخل ـ بطريقة قسرية ـ في هدايتهم، بل يتركهم لمصيرهم الذي اختاروه لأنفسهم. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتمثل في كفرهم وتمرّدهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي يترددون ويتحيرون ويعيشون في أجواء الضياع في متاهات الضلال.

● □ ● □ ●

الآيتـــان

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا
لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا
ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ
ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: الوقت الذي يفنى فيه الوجود.

﴿مُرْسَىٰهَا﴾: إثباتها وحصولها.

﴿حَفِىٌّ﴾: مستقصٍ في السؤال.

* * *

مناسبة النزول

جاء في مناسبة نزول آية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ..﴾ أن قريشاً بعثوا العاص ابن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط إلى نجران، ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها من رسول الله، وكان في ما سألوا محمداً ﷺ: متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[1].

* * *

لا يعلم موعد القيامة إلا الله تعالى

لقد جاء الإسلام، وطرح كثيراً من المفاهيم حول كثير من القضايا المتصلة بالغيب والحياة، كما طرحتها الأديان الأخرى من قبله، وجاء محمد ﷺ يقدّم نفسه للناس كرسولٍ من الله، يتلقى منه الوحي فيلقيه إليهم، وكان يوم القيامة ـ وهو ما يعبّر عنه القرآن بالساعة ـ من بين هذه المفاهيم التي تثير التساؤل، وتدفع إلى الجدل وتواجه المؤمنين بها كما تواجه المنكرين لها... ويكثر السؤال عنها، عن طبيعتها، وعن خصائصها، وعن موعدها متى هو؟ ويختلف السائلون بين من يطلب المعرفة، وبين من يقصد التحدّي أو العبث، وكانت قريش الكافرة برسول الله تعتمد التحدي لإحراج الرسول بالاقتراحات التعجيزية وبالأسئلة غير المعقولة. ومنها هذا السؤال، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، في أي شاطىء من شواطىء الزمن الممتد كالبحر الذي تتحرك فيه سفينة القيامة؟

* * *

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٨، ص: ٣٧٧.

علم الساعة عند الله تعالى

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، لأنها من أسرار الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ولا يظهرها إلا هو، في ما حدّد لها من وقتٍ. ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ثقل وقعها في ما تمثله من مواجهة المسؤولية على مستوى قضية المصير وما تؤدّي إليه من الخوف من غضب الله وسخطه؛ وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض ـ كما في دعاء كميل ـ أو ثقل علمها عليها باعتبار النتائج الصعبة التي تحدث عند وجودها، وبهذا يلتقي ثقل علمها بثقل وجودها. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة، لأننا إذا كنا نجهل موعدها، فلا بد أن تكون مفاجأةً لنا في أي وقتٍ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي عالم بها، فهم يعتقدون أن علاقتك بالله من خلال الرسالة تجعلك في موقع العالم بكل شيءٍ يتصل بالغيب، لأن الرسول يمثل في وعيهم شخصاً غير عادي، مزوّداً بقوّةٍ خفيةٍ يعلم بها كل الأمور، ويسيطر بها على كل الأشياء، ولكن الله يوحي إلى رسوله أنه لا يملك أية إمكانياتٍ ذاتيةٍ لهذه المعرفة، فهي من وسائل الغيب التي اختصّ الله بعلمها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أبعاد القضايا المتصلة بشخصية الرسول وإمكاناتها. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، لأني لا أملك طاقةً ذاتيةً غير عاديةٍ، فأنا مجرّد إنسانٍ أتحرك من خلال الطاقة الإنسانية الطبيعية في ما يملك الإنسان لنفسه من النفع والضرر بالوسائل التي وهبها الله له، أو من خلال إرادة الله ومشيئته في ما يوجهه إليه من نفع أو ضرر بوسائل غير عادية، كما أني لا أعلم الغيب من موقع القدرة الذاتية، فليس

لدي أسرار تكوينية في وجودي تفتح لي أبواب الغيب، بل القضية هي أن أنتظر الوحي الذي ينزله الله عليّ، أو المعرفة التي يلهمني إياها، لأحصل على معرفة بعض الغيب الذي يريد الله لي أن أعلمه. ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ في الفرص المستقبلية التي قد يحتاج انتهازها إلى إعدادٍ طويل يبدأ من الحاضر، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ في ما يحتاج الإنسان فيه إلى القيام ببعض الخطوات الوقائية التي تمنع المرض أو الفقر أو البلاء، مما يكون سببه بيده واختياره عند معرفته له وعلمه به. ولكني ـ في واقع حياتي العملية ـ أواجه كثيراً من الفرص الضائعة، أو من المشاكل الجسدية والمادية، لأني لم أملك المعرفة التي تمكّنني من تلافي ذلك كله، لأن كل ما أملكه مما يميزني عن الآخرين في مواقع الصفة البشرية هو الرسالة، التي تسمح بتلقّي الوحي الإلهي بطريقةٍ غير عادية، ثم إبلاغه بطرقٍ عاديةٍ، ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ في ما أنذرهم به من عقاب الله على أساس عصيان أوامره ونواهيه، وما أبشرهم به من ثوابه على أساس طاعته في ذلك كله.

* * *

الصورة التي يرسمها القرآن لشخصية النبي

وقد نستوحي من هذه الآية الصورة القرآنية الواضحة للشخصية النبوية، بكل بساطتها ووضوحها التي أكّد الله ملامحها في أكثر من آية، بعيداً عن كل الصور الفلسفية اللاهوتية التي أحاطه بها كثيرون ممن حاولوا التعمُّق في شخصيّته، فاستغرقوا في الحديث عن الأسرار والأجواء الخفية الغيبية، وحولوا النبي إلى شخصية تملك كل القدرات غير العادية، بحيث لا يميّزه عن صفة الألوهية إلا أن الصفة للإله ذاتية بينما هي في النبي مخلوقة. وقد حاول البعض أن يجعل هذه الصورة للأئمة أو للأولياء، ونحن نتحفظ في ذلك كله،

لأننا نعتقد أن ما يصوره القرآن يمثل الصورة الحقيقية للمفاهيم وللشخصيات بوجهها العام، بحيث تخضع كل التفاصيل لملامح تلك الصورة... ولو كان هناك شيءٌ من الأسرار الذاتية الخفيّة، في ما يدخل في نطاق الخط الفكري للعقيدة، لبيَّنه القرآن في ما يريد لنا اعتقاده، أو لبيّن الصورة المخالفة أو التي توحي بالمخالفة... إننا نعتبر القرآن مقياساً لصحة الأحاديث وفسادها، لأنه الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، «وكلُّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرفٌ»[١].

وقد نحتاج إلى إثارة فكرةٍ في هذا المجال، وهي أن علينا في ما لم نكلّف بعلمه أو بالاعتقاد به ـ من تفاصيل شخصية النبي أو الإمام ـ أن لا نفيض كثيراً فيه، لأنه يتحول إلى نوعٍ من الترف الفكري، وربما يقودنا إلى بعض الانحرافات أو الخلافات الجدلية التي لا ضرورة لها.

إننا نعتقد أن عظمة النبي تكمن في أنه يجسّد شخصية رسالته في شخصيته أصدق تجسيد، وبذلك يبلغ الذروة في الكمال، لأن الرسالة هي قمّة الكمال الإنساني في مستوى قدرة الإنسان على الكمال، وليس هناك شيء ـ في ما نعلم ـ خارج نطاق الخط الرسالي للحياة وللإنسان.

●□●□●

---

(١) الكافي، ج: ١، ص: ٦٩، رواية: ٣.

الآيـــات

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ
ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ
ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ
يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: التغشية كناية عن الجماع بين الرجل والمرأة.

* * *

الإنسان في تعاطيه مع الله

في هذه الآيات لونٌ من ألوان الحديث عن حالة الإنسان الطبيعية التي تدفعه إلى اللجوء إلى الله في ما يخاف ويرجو، فيعاهده على الإخلاص له في خط الإيمان والتوحيد، حتى إذا حصل له ما يرجوه أو دفع عنه ما يحذره، نسي ذلك كله، واستغرق في ذاته حيث أطماعه وشهواته، فأشرك بالله شرك عبادة فيمن كان يطيعهم في معصية الله... ثم ينطلق الحديث عن الشرك والشركاء في أسلوب تحليليّ يفصّل فيه سخف هذا الاتجاه، وطريقةٍ تحذيريةٍ يبين فيها نتائجه السلبية على مصير الإنسان في حياته.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ في ما يمثله النوع الإنساني من الزوجية في الوجود في الذكر والأنثى، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فيحسّ معها بالراحة والطمأنينة والهدوء والمتعة... ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ وهو كناية عن جُماع الرجل للمرأة، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك من خلال بداية النطفة في النموّ، في ما تمثله من حملٍ خفيفٍ لا يثقل بدن المرأة، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ من دون أن يمنعها عن حرية الحركة أو خفّتها، فكانت تذهب وتجيء وتمارس كل أعمالها بطريقة طبيعية لا ثقل فيها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ وكبر حملها وتحول إلى جنين كاملٍ ينتظر لحظة الولادة، وبدأت الآلام وبدأ الخوف على النفس وعلى الجنين، رجعا إلى الله ـ أي الرجل والمرأة ـ في دعاء متوسّلٍ يحمل معنى العهد والميثاق. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولداً ﴿صَٰلِحًا﴾ سالماً من كل عيب

أو تشويهٍ أو نقص في البدن والعقل ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الذين يشكرونك بتوحيد العمل كما يشكرونك بتوحيد العقيدة. واستجاب الله دعاءهما؛ دعاء كل أب وأم، لأنّ القضية ليست قضية آدم وحواء أو إنسانين معينين، بل هي قضية النوع الإنساني كله، الذي يعيش هذا الجوّ النفسي أمام حالة الخوف وإن لم يعبّر عن ذلك بالكلمات.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا ﴾ كما طلباه، وعاشا في أجواء عاطفة الأبوّة والأمومة، وشُغلا عن كل ما أعطياه من عهد وميثاق، انطلقا إلى حياتهما العادية في مطامعها ولذائذها ونقاط ضعفها... وكان في الساحة كثيرون ممّن يعطون لأنفسهم دور الآلهة، وإن لم يطلبوا إعطاءهم الصفة بطريقةٍ رسمية؛ هؤلاء الذين قد يبتعد فكرهم عن وحي الله، ويختلف حكمهم عن حكم الله، وتبتعد شرائعهم عن شريعة الله، أو مفاهيمهم عن مفاهيم الرسالة... في أجواء بعيدةٍ عن كل معاني الروحية النابضة بحب الله، المتحركة في سبيل الحصول على رضاه... وكانوا يريدون من الناس أن يتّبعوا فكرهم ويتركوا وحي الله، أو يخضعوا لحكمهم ويتمرّدوا على حكم الله، أو يسيروا في خط شرائعهم بعيداً عن شريعة الله، ويحصلوا على رضاهم ويهملوا رضا الله... فأقبلا من بين الناس على هؤلاء الشركاء وابتعدا عن الله، ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، لأن كل هؤلاء مخلوقون له مملوكون له، لا يملكون أي نوع من أنواع الإمكانات الذاتية...

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾؟! فكيف يمكن أن نعطي المخلوق دور الخالق، وهو لا يملك أية خصوصية من خصوصيات الخالقية؟! ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ إذا احتاجوا إلى الناصر في حالات الضعف، ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ اذا واجهتهم حالات العدوان عليهم من قِبَل الآخرين... فكيف يتخذهم الناس أولياء، وما معنى الولاية في هذا المجال؟ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾، لأنهم اختاروا لأنفسهم طريق الضلال. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ

أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، لأن النتيجة واحدة في كلتا الحالتين، فقد أغلقوا أسماعهم وعقولهم عن كل كلمات الخير والهدى والإيمان، فكيف تتّبعونهم وتطيعونهم في ما تعرفون ضلاله وانحرافه؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وتطيعونهم في معصيته ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، لا يميّزهم عنكم أيّ شيءٍ في القدرة والعلم والشكل، وغير ذلك من الأمور التي يتميز بها إنسان عن إنسانٍ آخر، فكيف تقفون أمامهم وقفة الخاضع الذليل الذي يقدّم التنازلات من عقيدته ومسيرته، ويتحمل النتائج السلبية في ذلك كله في سبيل طاعة مخلوق لا يحمل أيّة صفةٍ مميّزة عنه في قليل أو كثير، ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ في ما تحتاجونه من حاجات، وفي ما تريدون دفعه من ضرر أو تجلبونه من نفع، مما يلجأ فيه الإنسان إلى الله، فهل يستجيبون لكم في ذلك؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في إيمانكم بقدرتهم على ذلك، في ما أعطيتموهم من دور الإلّه في الطاعة. إنهم لا يستجيبون لكم لأنهم لا يملكون إمكانيات الإجابة.

ثم ماذا؟ إنكم قد تعبدون أصناماً لا تحمل حساً ولا حياةً، ولا تملك أي نوع من أنواع الحركة، فضلاً عن القدرة على أي شيء آخر... ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟! إنكم قد تصنعون لهم أرجلاً، ولكنكم لا تملكون منحهم القدرة على المشي، وقد تصنعون لهم أيادي أو أعيناً أو آذاناً، ولكن هل تصنعون لهم قوةً على البطش والإبصار والسمع؟ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلون لحظة واحدة، فإن الله هو الذي ينصرني عليكم وعليهم، وسيبطل كل كيدكم مهما عملتم في نهاية المطاف. ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي أحمله إليكم وأدعوكم إلى العمل به، وأجاهد من أجل تطبيقه والدعوة إلى تحويله كخطٍّ للحياة من أجل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ويرعاهم، وينصرهم، ويمنحهم القوة على مواجهة كل تحديات

الأعداء.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً من القوة أو الهدى، بل هم في حاجةٍ إلى الهدى الذي ينقذهم من ضلالهم، ولكنهم يرفضونه فلا يستمعون إلى من يدعوهم إليه، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تدعو وتجاهد وتحاور وتتقدم، ولكنه النظر الزائغ الحائر الذي لا يملك أي نوعٍ من أنواع التركيز، لأنه لا يملك الثبات في النظرة والموقف، ولذلك فإنك تراهم يحدقون بك. ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، لأن الإبصار الذي يكتشف الشخص أو الموقع، لا بد من أن يكون منطلقاً من حالة وعيٍ في الداخل، ليشرق في الروح في رؤية البصيرة، وليشرق في لمعات العيون في رؤية البصر.

● □ ● □ ●

الآيـــات

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ
مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟
لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ
وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بِٱلْعُرْفِ﴾: بالمعروف، وهو فعل الخير.

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: النزغ: فسادٌ، وإغراءٌ بالشر.

﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: التجىء إلى الله.

﴿مَسَّهُمْ﴾: أصابهم.

﴿طَٰٓئِفٌ﴾: ما يدور حول الشيء ويأتيه من جميع نواحيه، وهو هنا ما يدور على الإنسان من الشيطان يريد اقتناصه.

﴿ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾: استخلصتها واصطفيتها.

﴿بَصَآئِرُ﴾: براهين وحجج.

﴿وَأَنصِتُواْ﴾: اسكتوا من أجل الاستماع..

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جمع غدوة وهي الصباح.

﴿وَٱلْآصَالِ﴾: جمع أصيل، وهو المساء.

﴿وَخِيفَةً﴾: حالة الخوف.

* * *

القرآن يوجه المسلمين من خلال الرسول

وفي هذه الآيات ـ التي هي ختام السورة ـ حديثٌ مع رسول الله ﷺ في حركة رسالته في نطاق دعوته، وتوجيهٌ للخطّ السليم الذي يحتوي كل سلبيات الآخرين، ويسيطر على كل نقاط الضعف الذاتي في نفسه، وانطلاقةٌ مع الله في حركة روحيةٍ خاشعةٍ، ودعاءٍ ذاكرٍ، وتسبيحٍ خائفٍ، وسجودٍ خاضعٍ، مع لفتة إيمانية للناس بأن يعيشوا مع القرآن، في استماعٍ وإنصاتٍ للفكر من أجل الوعي، وللقلب من أجل الإيمان.

* * *

دراسة الواقع الفكري والنفسي لمجال الدعوة

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ كخطٍّ عمليٍّ للتعامل مع الناس في أجواء الدعوة، في ما يواجهه من حالات التشنّج والتمرد، لأن المسألة لدى الرسول أو الداعية ليست مسألة مزاج يبحث عن منفذٍ للتنفيس، ولكنها مسألة دعوةٍ تفتش عن مدخل إلى فكر الآخرين للحصول على قناعاتهم، مما يخلق بعض التعقيد في مواقفهم، وبعض السلبيات الذاتية في ردود فعلهم، فلا بد من اتباع الأسلوب الذي يتحرّك بالتوازن في عرض الفكرة، وبالتسامح في مواجهة ردود الفعل، وبالتّسهيل والتيسير في إعطاء المسؤوليات... ولا يكلّفهم من أمرهم عسراً.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ وهو المعروف في القول والعمل الذي يعرفه الناس بفطرتهم ولا يستنكرونه بطبيعتهم، من خلال إدراكهم لارتباطه بمصالحهم ومنافعهم وتنمية أفكارهم وأرواحهم وأجسادهم. وهذا هو الخط الواضح الذي يشمل كل مفردات الشريعة الإسلامية في أخلاقياتها وأحكامها، في ما تدعو إليه من الارتفاع بإنسانية الإنسان إلى المدى البعيد في الآفاق الواسعة. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يتحركون في الحياة من مواقع الوعي للمسؤولية، ولهذا فإنهم لا ينطلقون للأخذ بأسباب المعرفة، ليعرفوا من خلال قضايا الخطأ والصواب جوَّ المصلحة والمفسدة في ما يفعلون ويتركون، مما يؤدي بهم إلى أن يواجهوا الرسالات بأساليب السباب والسخرية والتشويه والتهويل، بعيداً عن أيّ منطق للحوار أو قاعدةٍ للتفكير...

فلا بدّ للداعية من دراسة كل هذا الواقع الفكري والنفسي لهؤلاء في عملية التخطيط لمواجهته بالحكمة الواعية، التي تفرض الإعراض عنهم في أكثر الحالات، لأن الخضوع لأساليب ردود الفعل يؤدي إلى أن يتحول الموقف إلى ساحة للسباب وللكلمات القاسية، ويثير العصبية في نفوسهم

للباطل، ويحجب الرؤية عنهم من خلال أجواء الانفعال التي تثير الضباب في الأفكار والمشاعر، ويُبعد المواقع عن الحصول على مكاسب إيجابية في مصلحة الرسالة، بينما يؤدّي التعالي عن هذه الأساليب إلى إبعاد الساحة عن أجواء الحقد والبغضاء، ويفسح المجال لفترةٍ من الهدوء النفسي الذي يبعث على التفكير، وبالتالي إلى الحوار، عندما تهدأ الضجة، ويستعيد هؤلاء بعض عقولهم في مواقع الصراع.

* * *

الاستعاذة بالله تعالى في مواجهة الشيطان

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ قد يثير الشيطان في داخل الإنسان بعض المشاعر السلبية، وقد يخلق حالةً من التوتر النفسي الذي يبعث على الغضب في التصرف، ويدفع إلى الممارسة الانفعالية على أساس الثأر لكرامة الذات، أو لما يخيّل إليه أنه كرامة الرسالة، وهذا هو النزغ الشيطاني في ما يوحي به معناه من الدخول في أمرٍ لأجل إفساده، أو الإغراء، أو الوسوسة... ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الذي يعيذ الإنسان من وسوسته ويبعث في روحه الشعور بالسكينة الروحية التي تحوّل الأجواء الداخلية إلى ساحة للمحبة والسلام ليعود له وضوح الرؤية للأشياء. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يستجيب لك دعاءك في ما يعلمه من الموقف الصعب الذي تواجهه من أهل السفاهة والجهالة. وقد لا تكون الآية موجّهةً إلى الرسول في حالته الخاصة، على أساس وضع سلبيٍّ معيَّن في ما عاشه في تجربته، بل هي موجّهةٌ لكل الدعاة من خلاله في التخطيط لحركة الدعوة في حالات التحدي، لمواجهة كل الأوضاع المتشنجة.

* * *

التقوى تبطل إغواءات الشيطان

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ وهذه حقيقة إنسانية إيمانية في حركة النفس في الموقف الداخلي والخارجي، فإن التقوى لا تمنع الأفكار السلبية الانفعالية من الطواف حول المشاعر والمواقف لتفسدها ولتوجهها إلى الاتجاهات الخاطئة، لأن ذلك هو شأن الطبيعة الإنسانية التي تتأثر بكل الأوضاع المحيطة بها، في ما تتحرك به غرائزها في حركة ذاتية عفوية، ولكن دور التقوى هو أن يمنع استقرار تلك الأفكار في داخل النفس، أو تحويلها إلى موقفٍ عمليٍّ منحرف، ولهذا فإنها تقف أمام كل تلك الأفكار والتهاويل والمشاعر الشيطانية التي تطوف بالإنسان، لتجد زاويةً تختبىء فيها، من أجل إتمام عملية الإغواء والإضلال، فتعمل على طردها بإعادة الوعي الإنساني إلى الله، في ما يمثله ذلك من انفتاحٍ على كل آفاق الخير والصلاح، وذلك عندما يتذكر الإنسان ربّه، فتزول الغشاوة الشيطانية عن بصره وبصيرته، فيبصر درب الحق من جديد.

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾. أما المشركون الذين انطلقوا مع الشياطين في علاقة مودّة وأخوّةٍ وعبادةٍ، فإنّ إخوانهم يشجعونهم على الغيّ والضلال بما يمدونهم به من أسبابهما ولا يكفّون عن ذلك. وهذا هو الفرق بين المؤمنين الذين يرعاهم الله فينقذهم من الضلال كلما طاف بهم طائف من الشيطان، وبين المشركين الذين تتولاهم الشياطين في عملية إغواءٍ وإضلالٍ.

* * *

النبي لا يتبع إلا ما يوحى إليه

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مما يقترحونه عليك من معجزاتٍ وآياتٍ على سبيل التعنُّت والتعجيز، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ وجئت بها، إذ كان يخيل إليهم أن النبي يملك القدرات الغيبيّة التي يستطيع من خلالها أن يغير وضع العالم من حوله بطريقة المعجزة. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لأن النبي لا يملك قدرة المعجزة، بل هي خاضعة لقدرة الله الذي قد يشاء إيجادها في حالات معيّنة، أمّا دور النبي فهو اتباع ما يوحي به إليه الله من رسالته في عملية دعوة واتباع.

* * *

كتاب الله بصائر فكرية وروحية للإنسان

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. إنه الوحي الذي أنزله الله في قرآنه؛ إنّ آياته تمثّل الوسائل الفكرية والروحية التي يبصر الناس من خلالها آفاق الخير والنجاح والسعادة، وتفتح لهم سبل الهدى التي تنتهي بهم إلى النهايات الرضية عند الله، وتفيض عليهم من رحمته ما يملأ قلوبهم بالسكينة وأرواحهم بالتفاؤل والإشراق والأمل، وذلك كله عندما يعيش هؤلاء الناس فكر الإيمان وروحه وحركته وفاعليته، فيبصرون به ويهتدون بهداه، ويتقبّلون رحمة الله من خلاله.

* * *

الإنصات والاستماع لقراءة القرآن

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ لتعيشوا مع آياته أجواء الروح

وآفاق الحقّ، ولتأخذوا منه المنهج السليم لحركة الإنسان في الحياة، ولتنفتحوا فيه على كل خيرٍ وبركةٍ، ولتلتزموا بأحكامه في حلاله وحرامه، ولتحملوا مفاهيمه العامة كقاعدةٍ منفتحةٍ على الجانب المشرق من حقائق الحياة، ولتتحرك خطواتكم في الطرق المستقيمة التي يشير إليها فكره النيّر ومنهجه السليم... ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأن في ذلك كله الرحمة كل الرحمة، التي لا تتمثل في القرآن كعاطفةٍ وانفعال، بل تتحول إلى منهجٍ للفكر وللحياة. وهذا هو التوجيه الإلّهي الذي يريد للمؤمنين أن يجعلوا من القرآن كتابهم الذي يقرأونه قراءة وعي، ويستمعون له استماع تأمّل، وينصتون له إنصات خشوع وتفكير، ليتحرك في كل آفاق حياتهم، فيكون فكره هو الفكر الذي يحملونه لتتميز به شخصيتهم الفكرية عن كل فكرٍ آخر، وتكون شريعته هي شريعتهم، ليرفضوا به أية شريعةٍ أخرى من صنع الإنسان، وتكون وسائله وأهدافه هي وسائلهم وأهدافهم في خطواتهم العملية في الحياة... ولا يريد لهم أن يكون كتاباً للبركة أو للحفظ أو للتفاؤل والاستخارة أو غير ذلك من الأمور التي تبتعد به عن جوّه الرسالي الذي أراده الله هدًى للناس.

* * *

ذكر الله تضرّعاً وخيفة

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ في إحساسٍ خاشعٍ بعظمته وبقدرته، وفي إيحاءٍ روحيٍّ بالتضرع إليه في ما يرجوه الإنسان وما يخافه، وبالتذلّل له في شعورٍ عميقٍ بالخوف منه ومن عقابه، لتعيش النفس مع الله في كل نبضاتها وخفقاتها وأفكارها ومشاعرها، حتى يكون الله هو كل شيءٍ فيها. فإذا تحوّل ذلك إلى ذكر، فإنه يكون ذكراً خافتاً من خشية الله. ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ في ما يشبه الهمس الذي يعبّر عن النبضة والخفقة والإحساس

والإيحاء، كما لو كان حديث النفس الذي قد يقترب من حركة الكلمة في الشفاه، ولكنه يبتعد عن الصوت القويّ في الحناجر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ليكون ذكر الله هو البداية التي يبدأ الإنسان بها يومه، وليكون النهاية التي يختم بها ذلك اليوم، فذلك هو الذي يجدد لك اليقظة الروحية الإيمانية في روحك وفكرك وضميرك، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين يعيشون الغفلة، فلا يشعرون بشيء من حولهم، وينسون الله في كل ما يحيط بهم.

* * *

حال الملائكة مع الله تعالى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ في ما يبتهلون إليه في الدعاء، وفي الذكر والصلاة، وفي كل أساليب الخضوع والخشوع، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ في إحساسٍ منهم بالعظمة الإلّهية. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ في تعبيرٍ عن العبودية الخالصة بكل معانيها وبكل أحاسيسها، في ما يمثّله السجود من الاستسلام الكلي لله، ومن الانسحاق أمامه، في روحية الإيمان وصفاء الروح.

●□●□●

سُورَةُ الأَنفَالِ

مَدَنِيَّة

وَآيَاتُهَا خمس وَسبْعُون

سبب التسمية

سميت السورة بـ«الأنفال» لورود هذه الكلمة في بدايتها، كمحور لسؤال وجّهه المسلمون إلى الرسول حولها لاختلاف آرائهم في شأنها.

والأنفال ـ في اللغة ـ هي الزيادة على الشيء، ومنه سميت الصلوات غير الواجبة نوافل، باعتبارها زيادةً على الفريضة.

وقد اختلفت كلمات المفسّرين في المراد من الكلمة، فذكر بعضهم أنها غنائم معركة بدر، وذكر بعض آخر أنها كل ما كان من فتحٍ لم يقاتل عليه، ولم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، كبطون الأودية، ورؤوس الجبال، والأرض الموات ونحوها... وربما أطلقها البعض على مطلق غنائم الحرب، على أساس أننا لا نفهم أيّة خصوصيةٍ لمعركة بدر.

* * *

مناسبة النزول

جاء في الدر المنثور عن عبادة بن الصامت قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمون يقتلون، وأكبت طائفةٌ على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يصيب العدوّ منه غرّة، حتى إذا كان الليل،

الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحقّ بها منّا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منّا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين»[(١)].

وجاء في الكافي بإسناده عن العبد الصالح الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، قال: «الأنفال كل أرض خربة قد باد أهلها، وكل أرض لم يوجف عليها بخيلٍ ولا ركاب، ولكن صالحوا صلحاً وأعطوا بأيديهم على غير قتال، وله ـ يعني للوالي ـ رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام وكل أرض ميتة لا رب لها، وله صوافي الملوك: ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب، لأن الغصب كله مردود، وهو وارث من لا وارث له يعول من لا حيلة له»[(٢)].

* * *

ربما كان جوّ السورة يوحي بأن المقصود بالكلمة هو الغنائم، لأنها هي التي كانت موضع الخلاف الذي صار أساساً للتنازع. أما الرواية الواردة عن الإمام الكاظم عليه السلام، فقد لا تكون تفسيراً للكلمة من خلال مورد الآية، بل قد تكون تعميماً للكلمة لغير هذا المورد، من خلال التقاء الحكم في الجميع على قاعدةٍ واحدةٍ.

---

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٥.
(٢) الكافي، ج: ١، ص: ٥٣٩، رواية: ٤.

وربّما كانت المسألة واردةً في أجواء بعيدةٍ عن حالة الحرب، في ما كان يدور بين المسلمين من الحديث عن هذه الأراضي المترامية التي لا مالك لها، أو التي لم يقاتلوا عليها، وغير ذلك مما عُدّ من الأنفال.

وقد تكون الأحاديث الواردة في أسباب النزول اجتهاداً يأخذ صفة الرواية، لا سيما إذا لاحظنا أن الروايات مختلفة في الحديث عن طبيعة التفاصيل، وأن قصة معركة بدر المعروفة تختلف في تفاصيلها عما ورد في روايات أسباب النزول، هذا بالإضافة إلى أن التدقيق في مدلول اللام في قوله ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قد يوحي بالمعنى الذي لا يلتقي بالرواية الواردة في أسباب النزول، مما قد يأتي الحديث عنه في ما يرد من حديث التفسير؛ والله العالم...

* * *

موضوع السورة

في هذه السورة حديثٌ طويلٌ متنوعٌ عن معركة بدر في الأجواء التي سبقت الإعداد لها، وفي الحالة النفسية التي كان يعيشها المسلمون إزاءها، وفي حركة المعركة في أجواء الغيب تارةً، وفي آفاق الواقع أخرى، وفي نهاياتها ونتائجها على مستوى أوضاع الأسرى والغنائم أو على مستوى الحالة الروحية التي عاشوها بعد ذلك.

وقد نلاحظ أن السورة لا تتحدث عن المعركة كقصّةٍ تلاحق التفاصيل التي تثير الفضول وتبهر النفوس، بل تتحدث عنها كتجربةٍ جديدةٍ تشتمل على السلبيات والإيجابيات، وعلى نقاط الضعف ونقاط القوة... وقد أكّدت

السورة على كل هذه العناصر في عملية تقييم ودراسةٍ ونقدٍ وتوعيةٍ من أجل أن يقوم المسلمون بتنمية إيجابيات القوة، وتحويل السلبيات في نقاط الضعف إلى مصدر قوّةٍ. ولذلك فإنها لم تعمل على إخفاء نقاط الضعف، كما يفعل المنتصرون الذين لا يطرحون النتائج إلا من خلال الصورة المشرقة للأشياء، أما الصور القاتمة فإنهم يضعونها بعيداً عن العيون، لأنهم لا يريدون إلا إثارة الزهو في الساحة من خلال مظاهر النصر؛ ولكن الله يريد للمعركة أن تكون تجربةً حيةً للإنسان، تبني له شخصيته في ما تعطيه من دروسٍ وعبرٍ، وما تثيره في داخله من إيحاءات وأفكار، لتكون خطوةً متقدّمةً في اتجاه التغيير. ولا تبقى مجرد نصر تاريخي يتذكره الإنسان كمجد من أمجاد الماضي، كلّما احتاج إلى ذكرى الانتصارات التاريخية التي يريد أن يهرب إليها من هزائم الحاضر.

إنّ الإنسان هو محور الحياة في الإسلام فلكي نصنع للحياة قاعدةً قويةً صلبةً، لا بد من أن نعمل على صناعة الشخصية الإنسانية على أساسٍ قويٍّ منفتحٍ، لنحقق للحياة هدفها الكبير، ولنمارس تحريك كل الطاقات في هذا الاتجاه... وهذا ما يجعلنا نفكر أنّ موضوع الانتصارات ليس موضوع مجدٍ ذاتيٍّ للزهو والخيلاء، بل هو خطوةٌ متقدمةٌ نحو الهدف الكبير، ولذا فإنّ من المفروض أن يرصد السائرون نحوه نقاط الضعف والقوة، من أجل تصحيح المسار عند الخطأ، وتثبيت الأقدام عند الاهتزاز. وهذا ما أثاره القرآن في هذه السورة التي نزلت ـ في ما يبدو ـ بعد المعركة، من أجل أن يتعلّم المسلمون القيام بعملية التقييم لما حدث، ليأخذوا منه الدرس للمستقبل في الأحداث القادمة، فقد حدّثهم عن الوسائل الروحية التي تنمي إيمانهم بالله وعلاقتهم به، وعن تأثيرات الصبر كقيمةٍ أخلاقيةٍ من قيم الحياة التي تتدخل في تنمية القوّة وتطويرها ومضاعفتها، وعن العلاقة الوثيقة بين الجوانب الروحية والجهادية، فكلما انفتحت روح الإنسان على آفاق الإيمان، كلما انفتح له درب جديد للجهاد، وتحركت في حياته عزيمة القوّة والثبات.

وهكذا أفاضت السورة في الحديث عن الخط الإسلامي لقضايا الحرب والسلم، لتؤكد الحقيقة الإنسانية في اعتبار السلم أساساً لحركة الحياة، إذا توفرت لها العناصر اللازمة لاستمرار مبادئها في الخط السليم، لأن الحرب ليست حالةً طبيعيّةً تحكم علاقة الإنسان بالإنسان، بل هي حالة طارئةٌ تحكم الواقع من أجل مواجهة التحدّيات الصعبة في قضايا الحق والباطل، لئلا تسقط الحياة في قبضة الباطل. وكانت هناك تفاصيل متعددة للأجواء التي ينبغي أن تسود الحياة الإسلامية في علاقات المسلمين ببعضهم البعض، وفي التزامهم بالدقّة والانضباط والسرّية والإخلاص لأمانة المسؤولية، ومواجهتهم الموقف بروحٍ جماعيّةٍ في عملية التزامٍ وولايةٍ وانفتاحٍ على المستقبل في كل خطوات الحاضر، ذلك هو الأسلوب القرآني الذي يتحرك في معالجة القضية في أكثر من اتجاه، فنرى الجانب العسكري يلتقي بالجانب الروحي، كما نلاحظ ارتباط الجانب الاجتماعي بالجانب الأخلاقي، لأن الشخصية الإنسانية ليست أحادية الاتجاه، فلا يمكن أن نواجه عملية البناء فيها بأسلوب التجزيئية التي تبحث كل حالة فيها على حدة، بل لا بد لك من أن تتحرك فيها من موقع الوحدة التي تمتزج فيها كل عناصر الشخصية المتداخلة في عملية الحركة والوجود. وهذا ما يمثله خط التوازن في حركة الشخصية الإسلامية، فليس هناك جانب ماديٌّ منفصلٌ عن الجانب الروحي، وليست هناك حالةٌ فرديةٌ منفصلةٌ عن الحالة الاجتماعية. وقد يكون أسلوب السورة الرائع في معالجة قضية الحرب والسلم من أوضح الأمثلة على هذا الخط.

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ٱلْأَنفَالِ﴾: جمع نفل، وهو الزيادة على الشيء. وقيل النّفل: العطية.

﴿وَجِلَتْ﴾: الوجل: الخوف.

* * *

المسلمون يسألون.. والجواب يتحرك في تنمية الشخصية

للسؤال في القرآن دورٌ تربويٌ روحيٌّ يتعدى جانب تقديم المعرفة المجرّدة للسائل في نطاق الجواب، ليكون منطلقاً للنصح والموعظة والدعوة إلى الالتزام بخط الإيمان، وليدخل بالتالي في تحديد المفاهيم الإسلامية للإنسان المسلم بطريقةٍ واضحة حاسمة. وهذا ما نستوحيه من هذه الآيات.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ وقد قدّمنا أن الروايات الواردة في مناسبة النزول ذكرت وجود حالة خلافٍ بين المسلمين في معركة بدر في توزيع الغنائم بين المقاتلين، الذين كانوا يتوزعون الأدوار بين مقاتل للعدو، وبين مدافعٍ عن رسول الله، وبين جامعٍ للغنائم، فكان أن رجعوا إلى رسول الله يسألونه عن الحكم في ذلك. وربما كان إطلاق الأنفال ـ التي تعني الزيادات ـ على الغنائم باعتبار أنها مما لا يختصّ بها أحدٌ من ناحيةٍ ذاتيةٍ. وقد أشرنا إلى أن هناك وجهاً آخر للكلمة يشمل كل الأراضي التي لا مالك لها، وغير ذلك من الأمور. وقد يكون مثل هذا الوجه نوعاً من توسيع مساحة المفهوم حكماً، باعتبار شمول الحكم الثابت في مدلول الكلمة، أو في موردها، لما هو خارجٌ عن مدلولها أو موردها، أو تعميماً للكلمة في مفهومها باعتبار القاعدة المعروفة: إن السؤال لا يخصّص الجواب، وإن المورد لا يخصّص الوارد.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ ما معنى أن تكون الأنفال لله وللرسول؟ ربما يقال: إن المعنى هو أن يكون أمرها راجعاً لله وللرسول، في مواجهة الفكرة القائلة بأنّها من شؤون المقاتلين الذين قاتلوا، أو دافعوا، أو غنموا، كأمرٍ واقعٍ... ولكنّ هناك فكرةً أخرى، وهي أنها ملكٌ لله وللرسول بمعنى

الاختصاص بهما من ناحيةٍ قانونية، فتكون مصارفها أو توزيعها من الشؤون التابعة للملك، تماماً كما يتصرف المالك في ملكه، مما هو من مسؤوليته العامة أو الخاصة. وعلى ضوء هذا، كانت الأراضي الداخلة في مفهوم الأنفال ملكاً لله وللرسول. إلا أن هذا قد لا ينسجم مع الحكم الثابت للغنائم التي هي للمقاتلين، في ما عدا الخمس الذي جُعل فيه سهمٌ لله وللرسول بالإضافة إلى الفئات الأخرى، والمفروض أنها مورد الآية، كما ذكر في مناسبة النزول. ولهذا التزم جماعة بنسخ هذه الآية بآية الخمس؛ فلا بد للخروج من هذا المأزق من التزام أحد أمرين، فإما القول بأن المقصود من الأنفال غير الغنائم، وذلك بطرح الروايات الدالّة على ذلك؛ وإما القول بأن المقصود من جعلها لله وللرسول، هو إيكال أمرها إليه بعيداً عن اقتراح المقترحين، ونزاع المتنازعين، فليس للمقاتلين أو الغانمين أن يقرّروا شيئاً من ذلك في ما يؤخذ، وما لا يؤخذ، أو في تحديد المستحق وغير المستحق، كما يوحي به نزاعهم. وبذلك كانت آية الخمس واردةً في مورد التحديد للمسألة، كما كانت أحاديث الأنفال في غير الغنائم مبينةً لحدود الحكم الشرعي فيها، وتحقيق الأمر في ملكية الله والرسول موكولٌ إلى الأبحاث الفقهية، فليُطلب من هناك.

* * *

الله يدعو المسلمين لإصلاح ذات بينهم

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإن التقوى هي التي تعرِّف الإنسان حدوده في ما يملك وما لا يملك، وهي التي توحي له بضبط الخلافات الحاصلة بينه وبين الناس، والبعد عن الأجواء الذاتية والعدوانية التي تسيء إلى إنسانيّة العلاقات وسلام الحياة. . ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي الحالة السيّئة الممزّقة الواقعة بينكم، من خلال التفاهم على النقاط المشتركة التي يمكن أن تكون أساساً للّقاء في

الفكر والعمل، فإن ذلك هو السبيل لرأب الصدع، وردم الهوّة، وإصلاح الفساد، وتركيز العلاقات على قاعدةٍ ثابتةٍ، لأن اكتشاف مواطن اللقاء هو الذي يقود إلى حلّ مواطن الخلاف. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، فذلك هو الخطّ المستقيم الذي يحفظ للإنسان المؤمن خطواته من الزلل، ويصونه من الانحراف، ويؤمن لحركته التوازن في مواجهة تعقيدات الحياة وتشابك الخطوط التي تحفل بها. فتكون طاعة الله في ما يشرعه، وطاعة الرسول في ما يفصّله ويطبّقه، هي النهج السليم الذي يمثّل الخطّ الفاصل بين الهدى والضلال. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان ليس فكراً مجرّداً يحدد للإنسان خط النظرية فحسب، بل هو ممارسة عملية فاعلة، في انطلاقته من أجل تغيير ذاته، وتغيير الحياة على أساس تلك النظرية.

* * *

من هم المؤمنون؟

وفي ضوء ذلك، كانت الجوانب الروحية والعملية هي التي تقدّم صورة المؤمن ـ النموذج ـ في ما جاءت به الآيات التالية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وعاشت الشعور بالخشية منه، في ما يتمثلونه من عظمة الله في مظاهر قدرته في خلقه، وفي وحدانيته ووجوده، بالمستوى الذي يشعرون معه بأنّ الكون كلّه ظلٌّ لوجوده، فهو الحقيقة وكل ما عداه خيال... ولكنّ هذا الوجل لا يمثّل حالة انسحاقٍ يلغي في الإنسان الإرادة، بل يمثّل حالة المسؤولية التي تحرك إرادته في الجانب المشرق من الحياة، عندما توحي له بأن حركته ليست محكومةً لمزاجه أو مزاج الآخرين، بل هي خاضعةٌ للقوّة المهيمنة التي تخطّط لإرادته كما تخطط لفكره، وبذلك كان الخوف من الله حافظاً لإنسانيته من الانحراف تحت تأثير الضغوط، ورادعاً له من الخضوع للشهوات والنزوات المنحرفة، وموجّهاً له للسير في الخط المستقيم...

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، وذلك في ما تنفتح به أفكارهم وأرواحهم ومشاعرهم على الوحي النازل من الله على رسوله، فيتأمّلون في آياته، ويستمعون إليها في وعي المؤمن وروح المفكّر، فيطوفون معها في آفاق الحياة، ويحلّقون من خلالها في رحاب الله، ويعيشون حركة المعرفة في مفاهيمها الشاملة، وفي تأمّلاتهم العميقة، وفي مشاهداتهم ونظراتهم المتنوّعة. . . فيزدادون إيماناً في عملية ارتفاعٍ وعمقٍ. . .

تلك هي قصة المؤمنين في إيمانهم، فهم لا يتجمّدون أمام عناصر المعرفة الأولى، ولا يعيشون حرفيّة الكلمات، ولا يختنقون في الزوايا المحدودة للمفاهيم، بل يظلّون في رحلةٍ دائمةٍ نحو المعرفة التي تنمي الإيمان وتطوِّره، يستنفرون من أجلها كل طاقاتهم، ويفتحون لها قلوبهم، فيستزيدون مما يقرأون ويسمعون، ويزيدون في ما يفكرون ويحاورون، حتى تكون آخر جرعة من المعرفة الإيمانية لديهم، هي آخر لحظة من حياتهم.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فهم يسيرون في كل دروب الحياة، وعيونهم مشدودةٌ للسماء، وقلوبهم مفتوحة لله، لا يهزمهم خوف، ولا يثيرهم قلق، كل خطواتهم مدروسةٌ في الدرب الذي يقطعونه، وفي الهدف الذي يتوجهون إليه. وكل طاقاتهم مستنفرةٌ متحركةٌ من أجل تحقيق الشروط الموضوعية للوسائل والأهداف، لا يعيشون الاتكالية واللامبالاة والسلبية في أوضاع الحياة ومشاعرهم، بل يعيشون المسؤولية والإيجابية والحركة المستمرة، حتى إذا واجهوا بعض المصاعب والشدائد والتحديات في أجواء الحاضر والمستقبل، ووقفوا في بعض المراحل أمام احتمالات المجهول، في ما يمكن أن يهدم مشاريعهم، أو يهزم مسيرتهم، أو يوقعهم في مهاوي الخطر، لجأوا إلى الله، وأسلموا أمرهم إليه، في ما لا يملكون الانتصار عليه بالقوة والفكر، وتوكلوا عليه، لتجتمع في داخل نفوسهم عناصر الثقة بالمستقبل، من خلال حركة الإرادة معه في أفكارهم وأعمالهم في ما يستطيعون، ومن خلال حركة

الثقة بالله في أجواء الغيب في ما لا يستطيعون، وذلك هو معنى التوكل في شخصية المؤمن؛ حركةٌ في الفكر والإرادة في نطاق الإمكانات، وثقةٌ بالله في عمليّة استسلامٍ لإرادته وقدرته في نطاق الغيب.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بما تجسّده من خضوعٍ لله، واعترافٍ بالعبودية له في جميع مظاهرها وأشكالها... ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ بما يمثله الإنفاق من روحية العطاء في امتداده في حياة الناس، وتأكيده على الشخصية الإنسانية التي لا تعيش الشعور بالذاتية في ما تملكه من طاقاتٍ، بل تحسّ بالمشاركة للآخرين في ذلك كله، لأنه رزق الله الذي أراد لعباده أن لا يحتكروه لأنفسهم، في ما اقتضت حكمته من توزيع أرزاق عباده، على أساس أن يكون رزق بعضهم في يد البعض الآخر، مما يجعل من قضية العطاء حالةً تبادليّةً، فلكلّ شخص طاقةٌ يعطيها للآخرين، وللآخرين طاقاتٌ يمنحونها له... وهكذا كانت حركة المجتمع في شخصية الفرد، في اتجاه حركة الفرد في شخصية المجتمع، في تفاعل وتعاون وعطاء...

وربما كان اختيار هذه الصفات في الحديث عن المؤمنين، لأنها تمثل العناصر البارزة في حركة الإيمان في الداخل، في هذا الخوف الدائم من الله، وفي هذا النمو الحي للإيمان في أجواء المعرفة، وفي هذه الثقة المطلقة بالله أمام المجهول في ما توحي به من وعي للمسؤولية والانضباط أمام روحية الخوف، ومن تطلعٍ دائم إلى المعرفة كأساسٍ لتنمية الإيمان، ومن شجاعةٍ وجرأة أمام تحدياتِ المجهول، كما أنها تمثل حركة الإيمان في العبادة في الصلاة، من حيث هي المظهر الحي للاعتراف بالعبودية لله، التي هي أساس الحرية في شخصية الإنسان أمام الآخرين، وفي الإنفاق من حيث هو الامتداد الإنساني في حياة الآخرين، في ما يملك من مالٍ وعلمٍ وجاهٍ وطاقةٍ حيّةٍ متحركة في خط الواقع، ليكون ذلك كله أساساً للتطور والنموّ في شخصية الإنسان المسلم في الجوانب الأخرى، التي يتكامل بها الإنسان، وتتقدم

بها الحياة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ الذين صدقوا الله وعده وعهده، وأخلصوا له العمل، فجزاهم الله عن ذلك أفضل الجزاء. ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ تبعاً لدرجاتهم في الإيمان وفي العمل، ﴿وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لما أخطأوا فيه. ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في ما رزقهم من مالٍ وصحةٍ وعافيةٍ وأولادٍ وجاهٍ، ومن طيبات الحياة الدنيا ولذاتها، مما يعيش فيه المؤمن الشعور برعاية الله له، وكرامته عليه، وذلك هو إحساس المؤمن أمام نعمة الله عليه، فهو يعيش معها الجوّ الحميم الكريم الذي يعبّر عن محبة الله له، كما يستوحي منها الشعور بالمسؤولية في الشكر الروحي والعمليّ لله في جميع ذلك.

● □ ● □ ●

الآيات

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ
يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ
ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: المجادلة: المنازعة التي يفتل بها عن مذهب إلى مذهب، وأصل الجدل: شدّة الفتل.

﴿يُسَاقُونَ﴾: السّوق: الحثّ على المسير.

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾: الحدّ والقوة.

﴿دَابِرَ﴾ الأمر: آخره. ودابر القوم: عقبهم.

* * *

كيف واجه المسلمون الدعوة إلى معركة بدر؟

في هذه الآيات عرضٌ للأجواء النفسية التي كانت تسود الواقع الإسلامي، عندما انطلقت دعوة النبي محمد ﷺ إلى الخروج معه من أجل مواجهة قريش بالضغط الاقتصادي، وذلك بالتعرّض للقافلة التجارية التي كان يقودها أبو سفيان، لمصادرتها والاستيلاء عليها، ومنع قريش من حرية التحرك في الطريق التجاري بين مكة والشام، كوسيلةٍ من وسائل إضعافها، وكنوعٍ من استعراض القوّة الإسلاميّة في منطقةٍ تتميّز بعدم الخضوع إلا للقوّة... وقد كانت هذه الفرصة الوحيدة آنذاك للمواجهة بطريقةٍ غير مباشرة، لأنَّ في ذلك تحدياً بالقوة للهيمنة القرشية على المنطقة التي كانت تتحرك من أجل السيطرة على الإسلام. وقد تثاقل فريق من المؤمنين، في الاستجابة لنداء النبيّ ودعوته، وكرهوا الخروج معه، لأنهم كانوا لا يزالون يهابون القوة القرشية، ويخافون مواجهتها. وربما كانوا يعتقدون أن الوقت لا يزال مبكراً للدخول في معركةٍ عسكرية مع قريش، لأن المسلمين لم يكونوا قد استجمعوا قوتهم بالمستوى الذي يمكنهم من الانتصار، أو يضمن لهم عدم الهزيمة ـ على الأقل ـ الأمر الذي يجعل من هذه العملية، شيئاً يشبه العملية الانتحارية. وهذا ما توحي به هذه الآيات.

* * *

الخروج إلى قافلة قريش بأمر الله تعالى

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ربما كان موقع التشبيه ـ بالكاف ـ على أساس التعلّق بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، والتقدير ـ كما يقول صاحب تفسير الميزان ـ «أنَّ الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله

بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريقٍ منهم له، فللجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه»[(١)]. وهذا الوجه معقولٌ، ولكنه غير ظاهر من الكلام بطريقةٍ واضحةٍ. أما كلمة «بالحق»، فقد توحي لنا بالهدف الذي كان يحكم التحرك النبوي في اتجاه القافلة القرشية، فقد كان بأمر الله لا برأي شخصيّ للنبيّ. وإذا كانت المسألة كذلك، فإن الله لا يأمر إلا بالحركة المرتكزة على أساس الحق في ما تمثله الكلمة من الارتباط بالهدف الكبير من قوة الإسلام وانتشار أمره وثبات مواقعه.

* * *

بعض المؤمنين يكرهون الخروج

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لهذا الخروج، نتيجة تجمّع عناصر الضعف الإنساني لديهم، كحبِّ الراحة، وحبِّ الحياة، والخوف من النتائج السلبية... مما يبعدهم عن معنى الإيمان الذي يفرض عليهم الالتزام بأمر الله ونهيه. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ فقد كان الموقف محرجاً بالنسبة إليهم، فها هو النبي يتأهّب للخروج عازماً على تنفيذ المهمة الموكولة إليه، مهما كلّفه ذلك من تضحياتٍ ومصاعب، لأن القضية واضحة لديه في ما يترتب عليها من نتائج إيجابية لمصلحة الإسلام والمسلمين، الأمر الذي يحقق للساحة الثبات والصلابة والقوة... فماذا يفعلون؟ هل يتمردون على أمره؟ وهذا غير ممكن، لأنه يؤدي بهم إلى الابتعاد عن خط الطاعة والانقياد الذي التزموا بالسير عليه في إيمانهم بالإسلام، وبيعتهم للرسول. إذاً لا بد من الدخول في جدالٍ طويل مرير مع الرسول، ليثبتوا له خطأ التصور للنتائج الإيجابية، ولينقلوا إليه

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ١٣.

مخاوفهم في ما ينتظرونه من نتائج سلبيةٍ. ودخلوا معه في جدال صعب، وربما أعادوا عليه أحاديث قريش في قوتها وخيلائها وعزتها وعظمتها... وربما قال له بعضهم: «إن هذه قريش ما ذُلّت منذ عزت». وكانوا يؤكدون له ذلك، والنبي يستمع إليهم، ولكنه لا يلقي بالاً لكل ما يقولونه، لأنه قد عزم الأمر، ولم يعد هناك مجالٌ للتفكير أمام وضوح الرؤية للحق.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾. وتلك هي حالتهم النفسية المتوتّرة لما كانوا يعيشونه من رعب وفزع، تماماً كما هي حال المحكوم بالإعدام الذي يمشي إلى الموت أمام جلّاديه، فهو يتطلع إلى المصير المحتوم بعينيه الخائفتين الغائمتين... وتتردد في مشاعرهم القلقة كلمة الخوف الساحق. إنها قريش، كيف نقاتل قريش بكل قوتها وجبروتها؟ إنه الموت الذي نواجهه ويواجهنا من دون أيّة فرصةٍ للهرب. وذلك هو الفريق الذي لا يمثل الغالبيّة الكبيرة من المسلمين. وهذا ما يحدثنا عنه ابن الأثير في تاريخه، في سياق حديثه عن تفاصيل معركة بدر: «فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها، ثم استشار أصحابه، فقال أبو بكر فأحسن، ثم قال عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فدعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدته للناس، وخاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، وليس عليهم أن يسير بهم. فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وأعطيناك عهودنا، فامض يا رسول الله لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق، إن

استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً. إننا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسار رسول الله ﷺ فقال: أبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين»[1] . . .

* * *

الله يعد المسلمين إحدى الطائفتين

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾. فقد بشّرهم رسول الله ﷺ أنهم سيلتقون بالطائفة التي تصاحب القافلة المحمّلة بالأموال، أو بالطائفة المقاتلة التي تحمل السلاح، وهي المقصودة بذات الشوكة ـ أي ذات السلاح ـ وستكون لهم إحداهما، إما بالحصول على المال والاستيلاء على القافلة، وإمّا بالانتصار على الفئة المقاتلة. وهكذا أرادهم الله أن ينطلقوا إلى المعركة بروح الثقة بالحصول على النتائج الإيجابية على أيّة حال، سواء كانت المعركة معركة المواجهة مع الذين يحمون القافلة التجارية، أو كانت معركة المواجهة مع الفصائل المقاتلة من قريش. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ . . . لأنهم كانوا يودون عدم الدخول في معركة مسلّحة، لأن النصر فيها لا يتحقق ـ عادة ـ بدون خسائر، لا سيما إذا كان العدو قوياً في عدده وعدّته، وكان المقاتلون ضعفاء فيهما معاً، كما كان عليه حال المسلمين في معركة بدر.

* * *

---

(١) ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م، ج: ٢، ص: ٨٣ ـ ٨٤.

درسٌ قرآنيّ في كيفية الاستعداد للقتال

وهكذا نعرف من خلال ذلك، أن الاستعداد للقتال لم يكن منسجماً مع الحالة النفسية الكارهة للقتال، المحبّة للسلامة. وتلك هي نقطة الضعف الكامنة في الداخل، التي كانت تستيقظ في بعض الحالات، لتثير فيهم نوعاً من التردُّد والاهتزاز الذي لا يلبث إلاّ قليلاً، ثم يفعل الإيمان فعله، ليثبِّت المؤمنين ويقودهم إلى المسيرة الظافرة في طريق الجهاد والشهادة. وهكذا يثير القرآن ـ في آياته ـ الأجواء الذاتية في داخل المسلمين وخارجهم، فيحدّثنا عن نقاط الضعف، في حديث توعيةٍ وتنبيهٍ وتحذير، من أجل مراقبة ذلك كلّه في أنفسنا، لنواجه حالات الاهتزاز الداخلي والخارجي بالمزيد من عوامل التركيز والتثبيت، فإن الإنسان الذي لا يكتشف نقاط ضعفه، لا يستطيع تنمية عناصر قوته، لأن الهروب من وعي المشكلة لا يهزمها، بل يعقّدها ويشلُّ فيها إمكانية الحلّ... وهذا هو السبيل الذي يريد الإسلام للمسلم أن يسير فيه: أن يواجه الواقع كما هو، فيعترف بسلبياته وإيجابياته. ثم يعالج السلبيات من مواقع الإيجابيات، لينتهي إلى النصر والفلاح من موقع المواجهة القوية، بكل ما تستلزمه من آلام وتضحيات، لأن ذلك هو الوسيلة الفعلية لإحقاق الحق وتحويله إلى قوةٍ متحركة في الواقع.

* * *

إرادة الله تعالى إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ويثبّته بوحيه وسننه في الكون، ليكون هو المهيمن على حركة الحياة، وتكون قيادته الرسولية هي الحاكمة لها

في كلّ خطوط السير. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ويستأصلهم باستئصال قوّتهم العسكرية والسياسية، ويهدم عنادهم وكبرياءهم، ويهزم كل مواقع التحدي التي يواجهون بها المسلمين. ولا بدّ للوصول إلى هذا الهدف، من معارك ضارية يقف فيها المسلمون في خط المواجهة للكافرين المعتدين، لأن القوة لا بد من أن تجابه بالقوة، كما أن عملية النصر ليست دعاءً يدعو به الداعون في مواقف الخشوع في الصلاة، وليست تمنياتٍ يحلم بها الحالمون في ما يعيشونه من أحلام اليقظة والمنام، بل هي موقف صمودٍ وصبرٍ وهجومٍ ودفاعٍ ومواقف للتحدّي المضاد الذي يرد التحديات ويواجهها بتحدّياتٍ مماثلة، فإذا عاش الإنسان حالة الضعف قليلاً في تلك المواقع، كان الدعاء سبيل قوّة روحية يستمدها من ارتباطه بالله، وكان النصر حلماً روحياً يتحرك في خط الواقع وحركته، في تطلّعٍ خاشع نحو الغيب القادم من لطف الله ورحمته.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ويجعله القوة الوحيدة التي تحكم الساحة، في ما يوحي به من فكر، وما يركز من مفاهيم وما يشرّع من شريعة... ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ ويهدمه في جميع مجالاته الفكرية والروحية والعملية، في خط العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع في حالة الحرب والسلم، من موقع الإرادة التي تريد للحق أن ينتصر، وللباطل أن ينكسر في معارك الحق والباطل في كل ساحات الصراع، من خلال جهاد المجاهدين، ودعوة الداعين... ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين يعيشون الحياة للجريمة، لتكون الجريمة أداةً لتحقيق المطامع الذاتية، على حساب المبادىء الخيّرة القائمة على الحق والإيمان.

●□●□●

الآيـــات

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ
وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ
عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿مُرْدِفِينَ﴾: من أردفه، إذا ركب وراءه.

﴿رِجْزَ﴾: الرجز: الشّيء المستقذر حساً أو معنًى.

﴿وَلِيَرْبِطَ﴾؛ الربط على القلب: اطمئنانه.

﴿ٱلرُّعْبَ﴾: الخوف الشديد.

﴿بَنَانٍ﴾: أطراف الأصابع من اليد أو الرجل.

﴿شَآقُّواْ﴾: خالفوا وعصوا.

* * *

مناسبة النزول

في المجمع: «قال ابن عباس: لما كان يوم بدر، واصطف القوم للقتال، قال أبو جهلٍ: اللهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون، فنزلت الملائكة ونزل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ إلى آخره.

وقيل: إنّ النبي لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلّة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه، حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾»[1].

* * *

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٠٧.

ميزان القوّة الظاهري يميل لمصلحة قريش

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾. فقد كان الجوّ يوحي بالتوتّر وينذر بالخوف، لأن ميزان القوّة لم يكن متعادلاً، بل كان يميل إلى جانب العدو. فقد كان جيش قريش يقارب الألف رجل، بينما كان أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وكان في عسكره فَرَسان وسبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها، ولم يكن عندهم سلاح بالكمية والنوعية التي يتميز بها سلاح قريش، وكانت أول تجربة للمسلمين في المعارك بهذه الصفة، وكان جوّهم يوحي بالقوّة الروحية الواثقة بحقها من خلال الثقة بربها... ولكن هناك فرقاً بين الأسلوب الإيحائي بالقوة المادية، الذي يعبّر عن نفسه، باستعراض الأدوات التي تتحرك فيها القوّة، بأساليب التخويف والتهويل، وبين الأسلوب الإيحائي بالقوة الروحية الذي يعبر عن نفسه بالابتهال إلى الله، والرجوع إليه، والانسحاق بين يديه، والشعور بالحاجة إلى الإمداد الإلّهي في ما يوحي به من الروح المطمئنة، والإرادة القوية، والشعور الهادىء، ولذلك كانت المعركة غير المتكافئة منطلقاً للأجواء الروحية التي انطلق المسلمون معها بقيادة الرسول للاستغاثة بالله، بعيداً عن كل الأجواء الاستعراضية. فقد كانوا في شغل شاغلٍ عن الفكرة التي توحي للمشركين بأنهم أقوياء، وكان همّهم الكبير أن يحصلوا على الإمداد الإلّهي، ليحصلوا ـ من خلاله ـ على الشعور الداخلي بالقوّة، الذي يدفع بهم إلى الثبات والصمود والاندفاع في المعركة، ليكون ذلك هو الإيحاء الحقيقي للمشركين بالمعنى العميق للقوّة لدى المسلمين.

* * *

إمداد المسلمين بألف من الملائكة مردفين

وهذا ما أراد القرآن الكريم التعبير عنه في حديثه عن استغاثة المسلمين بالله. وقيل إن النبي قد بدأ ذلك لمّا نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلّة عدد المسلمين، فاستقبل القبلة وقال: اللهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما يزال يهتف لربّه ويداه ممدودتان حتى سقط رداؤه عن منكبيه. وكانت الاستجابة الإلّهية بالألطاف الغيبية المتنوعة التي جعلتهم يعيشون حركة الواقع في أجواء الغيب. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. والإرداف هو أن يجعل الراكب ردفاً لغيره.

«وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى في ما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ* بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران/ ١٢٣ ـ ١٢٦]. فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين، نزول ألف منهم يستتبعون آخرين، فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين»[١]. وهذا ما ذكره صاحب تفسير الميزان، ولعلَّ هذا أقرب من الوجوه الأخرى التي ذكرها المفسرون. وكانت هذه الاستجابة الإلّهية مصدر قوّةٍ روحية كبيرة، في ما أثارته في نفوسهم حركة الملائكة في المعركة بما كانوا يحملونه في أفكارهم عن القوّة

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ٢٠.

الغيبيّة التي يتمتع بها هؤلاء. ولكن الملائكة الذين أنزلهم الله إلى ساحة المعركة، لم تكن مهمتهم قتاليّةً، لأن الله لم يرد للمسلمين أن يستسلموا للاسترخاء، على أساس الاعتقاد بأن الملائكة جاءت لتقاتل بالنيابة عنهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كانت هناك حاجةٌ ملحّةٌ لأيّة معركة وأيّ قتال، لأن القوة الغيبيّة كفيلةٌ بتصفية جميع الأعداء، بل كانت مهمتهم تطمينية نفسية، وهذا ما عبّرت عنه الآية ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْـرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ ليزيل من نفوسهم كل شعورٍ بالقلق والخوف والاهتزاز، ليندفعوا إلى المعركة بقوّة وثباتٍ، ليعطوا كل طاقاتهم للقتال في إحساسٍ عميق بأنهم لا يصنعون النصر عندما يصنعونه بقوتهم الذاتية، كما لا يصنعه الملائكة ـ لو صنعوه ـ بل هو من عند الله، من خلال ما تتحرك به ألطافه وتفيض به رحمته من أسباب النصر، لأن الأمور كلها بيده، في آفاق الغيب، وفي آفاق الواقع...

* * *

النصر من عند الله

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، فهو الذي يهيّىء له أسبابه، بعيداً عن قضية الكثرة والقلة، وعن العدّة العسكرية والمادية في السلاح والمال، وهو الذي ينصرهم بعزته التي لا تغلب، وبحكمته التي لا تتبدّل.

وهكذا عاش المسلمون في طمأنينةٍ روحيّةٍ، وشعور عميق بالأمن، فاستسلموا لإغفاءةٍ طويلة، يتخفّفون بها من الجهد والتعب، ويعيشون فيها راحة الجسد، إلى جانب ما عاشوه من راحة الروح. ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ واستفاقوا محدثين بالجنابة التي أصابتهم بسبب الاحتلام الذي يعبر عنه القرآن برجز الشيطان، كتعبيرٍ عن القذارة التي يختزنها معنى الرجز، وعن

الشهوة التي هي مثار الحركة لدى الشيطان في عملية الإغواء والإضلال... وربما كان هناك سبيل آخر لوسوسة الشيطان.

وكانوا بحاجة إلى الماء للشرب أو الطّهارة، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء، وكانت هناك مشكلة أخرى، فقد نزلوا على كثيب من الرمال تغوص به الأقدام فيمنعها من الثبات، مما قد يعطّل حرية التحرك في المعركة في ما يثيره من الغبار الذي يحجب الرؤية، وما يبعثر به الأقدام، فأنزل الله المطر خفيفاً ليطهّرهم به، وليثبّت به الأرض لئلا تزلّ بها الأقدام ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من حدث النوم أو الجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، في ما يحس به المؤمنون من أنهم يعيشون تحت رعاية الله، حتى في مثل هذه الأمور العادية. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ في ما أحدثه المطر من تثبيت الأرض، أو ما أثارته الرعاية الإلهية من تثبيت المواقف.

* * *

دور الملائكة في تثبيت المؤمنين

وهنا يأتي دور الملائكة في تثبيت المؤمنين، بعيداً عن مسألة المشاركة في القتال ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. ومن خلال هذا النداء، نفهم أن الله يريد لهم أن يثبّتوا المسلمين، من موقع الشعور بالقوّة الذي لا يقف فيه الملائكة وحدهم، لأن الله معهم، وبذلك يكون النداء الآتي موجهاً إلى المؤمنين في اقتحامهم المعركة بإرادةٍ قوية، لا خوف معها ولا وجل.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وهو كناية عن إسقاط الرؤوس والإطاحة بالأيدي. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وخالفوهما في العقيدة وفي العمل، بعد أن قامت عليهم الحجة، بما قدّمه إليهم الرسول من بيّناتٍ وبراهين، فلم يكن خلافهم لشبهةٍ فكريّة، بل كان لتمرّدٍ ذاتيّ وعقدةٍ مَرَضِيّةٍ. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ من أيدي المؤمنين. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في ما يستقبلهم من عذاب الله يوم القيامة.

● □ ● □ ●

الآيــات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ
فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ
وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿زَحْفًا﴾: الزحف: الدنو قليلاً قليلاً.

﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾: جمع دبر وهو الخلف، والمراد به الهزيمة.

﴿مُتَحَرِّفًا﴾: المتحرّف للقتال هو الذي يكرّ بعد أن يفرّ يُري عدوه أنه

منهزم، ثم يعطف عليه.

﴿مُتَحَيِّزًا﴾: منحازاً.

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: ملجأه.

﴿مُوهِنُ﴾: مضعف.

* * *

مناسبة النزول

في الدر المنثور: «أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظيّ ـ رضي الله عنهما ـ قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إلى قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»[1].

وفيه أيضاً: «أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن منده، والحاكم، وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب، عن عبد الله ابن ثعلبة بن صغير: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه، فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الآية[2].

* * *

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٤٠.

(٢) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٤٢.

الفرار من الزحف... من الكبائر

وتستمر الآيات في أجواء المعارك التي يخوضها المسلمون دفاعاً عن الحقّ وهجوماً على الباطل، فتثير أمامهم قضية الفرار من الزحف، فتعتبره من الكبائر التي يُستحقُّ عليها دخول النار. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، ولا تنهزموا أمامهم وتستدبروهم، ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ أي ظهره في حالة لقاء العدوّ، ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾وذلك إذا أراد الانتقال من جهة إلى أخرى في عمليةٍ تراجعيةٍ تمويهيةٍ، يحاول من خلالها الالتفاف على العدوّ والهجوم عليه من جديد على أساس خطةٍ عسكريةٍ مدروسةٍ ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ فينحاز إلى جماعته وجبهته، ليقاتل من موقعٍ قويّ، لا من حالة فردية. . . ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. أي رجع بسخط الله، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، لأنّ هذه المعصية ليست كبقيّة المعاصي الفردية المحدودة التي تتصل بالحياة الخاصة للعاصي، بل تمتد لتهزم المسيرة الإسلامية كلها، عندما يقع المسلمون في قبضة الهزيمة التي يختارونها في مواقف الضعف الداخلي الذي ينطلق من حبّ الحياة وكراهة الموت.

وقد جاء في حديث الفضل بن شاذان، أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب من جواب مسائله: «وحرّم الله الفرار من الزحف، لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة عليهم السلام، وترك نصرتهم على الأعداء، والعقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأةِ العدو على المسلمين، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله ـ عز وجل ـ، وغيره من الفساد»[١].

* * *

(١) البحار، م:٣، ج : ٦، ص: ٦٧، باب: ٢٣، رواية: ٢.

لا ظفر إلا بالله وحده

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ . . . وهذا هو خط الإيمان الذي يريد الله من المؤمن أن يعيشه في فكره وشعوره، في كل حالات النصر والنجاح، في حركة الحياة وفي ساحة الصراع، وذلك بأن لا يعتقد في نفسه القوّة الذاتية المستقلّة عن الله، في ما يمدّه به من عناصر القوة، بل يعتقد بأنه يتصرف عن أمره، ويتقلّب في تدبيره، ويتحرك بقوّته، فإذا قتل العدو فإنما يقتله بنصر الله وقوته التي أمده بها، فكأن الله هو الذي قتله؛ وإذا رماه بسهم، فكأن الله رماه، فهو ـ سبحانه ـ الفاعل الحقيقي للأشياء والقوة الحقيقية التي تتحرك بها، لا بمعنى إلغاء الاختيار والإرادة الإنسانية في الفعل، بل بمعنى إلغاء الذاتية المستقلة للإنسان في أعماله، في ما تنطلق به من عوامل القوة.

وقد كانت المعركة في بدر مظهراً من مظاهر الإمداد الإلّهي الغيبي في ما أثاره الله في أجواء المعركة، وفي مشاعر المسلمين، وفي امتلاء قلوب الكافرين بالرعب، مما جعل من موقف المسلمين فيها موقف قوة، بعد أن كان موقف ضعف في ما كانوا يعانونه من أحوالٍ نفسية أمام قلة العدد والعدة، مما يجعل من اختيارهم ظلاً لإرادة الله واختياره بشكل واضح، وهذا ما أراده القرآن في أسلوب التربية القرآنية من ربط الأشياء الصغيرة والكبيرة والسلبية والإيجابية ـ في واقع الكون وفي حركة الحياة والإنسان ـ بالله، لتتأكد ـ من خلال ذلك ـ عقيدة التوحيد الخالص التي لا تتصور شيئاً إلا وتتصور الله معه، لتحس بأن الكون كله هو الظل، وأنّ الله هو النور، وهو الحقيقة، وهو الذي يكفي من كل شيءٍ ولا يكفي منه شيء، وهو على كل شيء قدير. . .

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾، في ما يمتحنهم به من النصر الكبير الذي أمدّهم به بلطفه وبقوته. وهذا البلاء الحسن هو الذي يوحي لهم بنعمة الإيمان ودوره في بناء شخصيتهم على أساس العزّة والحرّية، بالإضافة إلى الغنائم التي غنموها، والمكاسب التي حصلوا عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع استغاثتهم ودعواتهم وابتهالاتهم في حالات الشدة، ويعلم ضعفهم وبلواهم وحاجتهم إليه في أوقات الاهتزاز والخوف.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في ما يدبرونه أو يخطّطونه لهزيمة المؤمنين وإضعافهم، من أجل إضعاف الإيمان في الحياة. فقد ينجحون في بعض المراحل والمواقع، ولكن النهاية هي الفشل والهزيمة. ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾. ربّما كان الأقرب إلى جوّ كلمات هذه الآية، أن يكون الخطاب للكافرين، وذلك من خلال الحديث عنهم في الآية السابقة، بأنّ الله موهن كيدهم، فقد ورد في بعض الروايات: أن أبا جهل كان يطلب من الله الفتح، فكان الجواب على ذلك: إنكم إذا طلبتم الفتح، فهذا هو الفتح، ولكنه ليس الفتح الذي تريدونه، بل هو الفتح للمسلمين الذين حملوا رسالة الله، ونصروا دينه بصدقٍ وإخلاصٍ.

* * *

الله يحضّ الكافرين على كفّ شرورهم ويحذرهم نفسه

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾، لأن كل هذه المكائد التي تكيدونها لله ولرسوله وللمؤمنين، ستكون وبالاً عليكم، لأن الله سيبطل كيدكم في نهاية المطاف، فإذا انتهيتم عن ذلك، وغيّرتم وبدّلتم، وسرتم على الصراط

المستقيم، كان ذلك خيراً لكم، لأنّه يوفر عليكم الجهد والعناء والهزيمة في الدنيا، كما يدفع عنكم الذل والخزي والعذاب في الآخرة. ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، لنوهن كيدكم، ونبطل خططكم العدوانية، ونهزمكم شر هزيمة... ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ - جماعتكم - ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، لأن النصر ليس مع الكثرة دائماً، بل قد يكون حليف القلة المنطلقة من مواقع الإيمان الحق. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيمدّهم بالقوّة، ويؤيّدهم بالنصر. وماذا تفيدكم قوتكم وكثرتكم إذا كان الله مع المؤمنين ضدّكم؟!

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ
وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ
شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا
لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿شَرَّ﴾: الشر: إظهار السوء الذي يبلغ من صاحبه، وهو نقيض الخير وقيل الشر: الضرر القبيح أو الشديد.

﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: جمع دابّة، وهي ما دبّ على وجه الأرض، إلا أنها تختصّ في العرف بالخيل.

* * *

الله يحض المؤمنين على طاعته و طاعة رسوله

وتستمر الدعوة الدائمة التي تخاطب المؤمنين في كل وقت، بالالتزام بخطّ الطاعة لله والرسول في قضايا التشريع، وفي قضايا التنفيذ، لأن ذلك هو معنى الإيمان في عمق الفكرة والإحساس، وهو مظهر الولاية لله وللرسول. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في ما تفعلون وتتركون. ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾، ولا تعرضوا عن رسول الله ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ كلامه في ما يبلغكم من آيات الله مما يصلح أمركم وينصر موقفكم، فإن الإعراض عنه ـ مع الوعي التام لتعاليمه ـ يمثل الإعراض عن الإيمان نفسه والابتعاد عن الله، وعن خط السلامة في الحياة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ من المشركين الذين كان النبيّ يدعوهم إلى أن يسمعوا كلام الله، ولكنهم لا يلقون بالاً إليه، ولا يواجهونه بروح الاهتمام والإصغاء الداخليّ، ولذلك اعتبر الله سماعهم بمنزلة العدم، فقال ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، لأن السمع هو الوسيلة التي تثير في الإنسان الحاجة إلى المعرفة، والتفكير في ما يلقيه إليه الآخرون، فإذا ترك الكلمة تدخل إلى سمعه، من دون وعيٍ لمعناها وتفكيرٍ في مضمونها، كان حاله كحال الذي لا يسمع أبداً، لأنّ النتيجة واحدة على كلّ حال.

﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾. إنه يشبّههم بالدوابّ التي لا تسمع ولا تتكلّم ولا تعقل، لأن قيمة السمع والنطق والعقل، هو في تحريكها بما ينفع حياة الإنسان، وينقذ مصيره من الهلاك، فإذا أهمل كل ذلك، وجمّده عن السير في اتجاه المعرفة النافعة، كان كمن فقده بالأساس. وذلك هو الفرق بين الدواب والناس، في سلبيّة الدوابّ أمام قضية المعرفة من أجل الحياة، وإيجابية الناس أمام ذلك كله.

* * *

الله يترك الكافرين لأنفسهم لعلمه أنْ لا خير فيهم

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ فقد تركهم الله لأنفسهم، فاختاروا لها الضلال. ولو علم الله أنهم يواجهون الكلمة الحقّة من موقع المسؤولية، لأسمعهم بطريقةٍ غير عاديّة، ولكنه عرف فيهم الإصرار على الهروب من الحقيقة، ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ لأنهم لا يريدون لأنفسهم الخير، في ما ينقذ حياتهم ومصيرهم من الهلاك.

● □ ● □ ●

الآيـات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يَحُولُ﴾: الحيلولة: التخلل وسطاً.

﴿وَقَلْبِهِۦ﴾: «القلب: العضو المعروف. ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الإنسان، ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمني والقلق.. ونحو ذلك. فالقلب هو

الذي يقضي ويحكم، وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنى، ويسرّ ويحزن، وهو في الحقيقة: النفس الإنسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة»(١).

﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾: الاستضعاف: عدُّ الشيء ضعيفاً بتوهين أمره.

﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: التخطف والخطف والاختطاف: أخذ الشيء بسرعة انتزاع.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾: الإيواء: جعل الإنسان ذا مأوى ومسكن يرجع إليه ويأوي.

﴿وَأَيَّدَكُم﴾: التأييد: من الأيد وهو القوّة.

* * *

الإيمانُ موقفٌ للحياة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا هو النداء الثاني للمؤمنين، الذي يريد أن يثير فيهم روح الإيمان ومعناه وحركته في داخلهم، ليوحي إليهم بأنه ليس مجرّد فكرٍ مجرّد، بل هو موقفٌ للحياة. ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، فإن ذلك هو المظهر الحيّ للإيمان، في ما يفرضه من الاستسلام لله في ما يأمر به أو ينهى عنه، والطاعة لرسوله باعتبار أنها المظهر لطاعة الله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، لأن الإسلام هو دعوةٌ إلى الحياة، في ما أراده للإنسان من حركةٍ ووحيٍ ونموٍّ وانطلاق، من خلال مفاهيمه الواسعة الشاملة التي تفتح آفاقه على الكون كله، ليكون ساحةً لفكره، ومنطلقاً لعمله، وتجربةً لمسؤوليته،

(١) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ٤٦.

ممّا يجعل منه طاقةً حيّةً متحركةً في أكثر من اتّجاه، ومن خلال شريعته التي تنظّم له حياته في ما يأكل ويشرب ويستمتع، وفي ما يعيش من علاقاتٍ، فيتحقق له التوازن في ذلك كله، فلا تنحرف حياته إلى خط السلبيّة التي تهمل كل شيءٍ حولها، ولا تتطرف في خط الإيجابية حتى تغلق على نفسها كل بابٍ للحرّية... وهكذا يمتد التوازن في ما بين النزعة المادية والنزعة الروحية، إلى الانسجام بين الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية، فيحسب لكل شيءٍ حسابه، ويضع كل شيءٍ في موضعه على أساس الحكمة والاتزان، وذلك هو معنى الحياة في حركة الشخصية، لأن الإخلال بالتوازن يؤدّي إلى الانحراف في اتجاه الهلاك، في ما يثيره من الارتباك في حركة المصير.

* * *

أهداف الإسلام للإنسان هي أهداف الحياة عينها

أمّا أهداف الإسلام في ما يريده للإنسان من أهداف وجوده، فإنّها أهداف الحياة في امتداد المعرفة وعمقها، في كلّ ما تختزنه من أسرار وتثيره من قضايا وتواجهه من أحداث، وفي ما تستوعبه من معلومات، حتى لتدعوه إلى الإحاطة بكل شيءٍ من حوله، فلا يغيب عنه شيء في ذلك كله، وفي معنى الحرية التي تجعل للإرادة حريتها، بعيداً عن الضغوط الداخلية أو الخارجية، في انطلاقةٍ شجاعةٍ تتمرّد على كل نوازعها وتحدياتها وأوضاعها، وفي حركة الرسالة في حياته، ليواجه الحياة من موقع الرسالة التي تتطلع إلى كل زاويةٍ من زواياها، لتحرك فيها القيم الروحية التي تبني للإنسان إنسانيته، وتحقق للحياة معناها، فلا تتجمّد حياته عند حدود حاجاته، بل تتحرك إلى البعيد البعيد في نطاق القضايا الكبيرة من أهدافه... وهكذا تكون التضحية بالحياة لوناً من ألوان حركة الحياة، لأن الروح تحيى في أهدافها، كما يحيى

الجسد في حاجاته. وهذا ما أراد القرآن الكريم الإيحاء به عندما اعتبر العلم والإيمان والجهاد والشهادة مظهراً من مظاهر الحياة، ولذلك كانت الاستجابة إلى الله وإلى الرسول استجابةً للجانب الحي من حركة الرسالة في الحياة. وهذا ما ينبغي لنا أن نستوحيه في ما نلتقي به من أحكام الشريعة وأسرارها وقضاياها، لنكتشف ـ في ذلك كله ـ كيف تستوعب الشريعة الحياة، وكيف تخضع الحياة لدعوة الشريعة في ما تريد أن تحقّقه من أهداف، أو تواجهه من مشاكل وحلول.

* * *

الله يحول بين المرء وقلبه

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾. ربما كان ذلك كنايةً عن الهيمنة الإلّهية على الإنسان، فله السلطة عليه بما لا يملكه من نفسه، فهو قادر على أن يغيّر له فكره في أي جانب من الجوانب، ويحول بينه وبينه. وهذا من أوضح مظاهر السلطة والقدرة، لأن أعلى مظاهر القدرة هي السيطرة على الداخل الذي يختصّ أمره بالإنسان نفسه، لأنّ الناس ـ عادةً ـ لا يملكون الضّغط إلاّ على الجانب الخارجي من الإنسان، وهو الجسد، أمّا الفكر، فلا يملك الناس الضغط عليه إلا من خلال الوسائل العادية التي لا تخرج الإنسان عن اختياره. فإذا كان الله يملك عليه ذلك، فمعناه أنه أقرب إليه من ذاته وأنه يعرف منه ما لا يعرفه ـ هو ـ من نفسه، فلا بدّ له من أن يراقبه ويخافه ويراعيه في كل أموره... ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ في يوم القيامة، فيحاسبكم بما اطّلع عليه من أعمالكم، مما لا تملكون الحجّة فيه على التخلّص، لأنه المطّلع على الجانب الخفيّ منها، وهو جانب النية التي تطبع العمل بطابعها من خيرٍ أو شرٍّ.

* * *

تحذيرٌ للمسلمين من التساهل في أمر المنازعات الداخليّة

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[(١)]. إنها الدّعوة لأن يواجه المؤمنون المشاكل الفردية والاجتماعية الناشئة من بعض الانحرافات الفكرية والعملية التي تؤدّي إلى نتائج سلبيةٍ في حركة الحياة، وذلك بالتعامل معها من موقع المسؤولية العامة الواعية للقاعدة الاجتماعية التي تحكم مسيرة المجتمع في سلبيّاته وإيجابيّاته، فلا تقتصر في تأثيراته على الناس الذين يقومون بها، بل تمتد إلى كل أفراد المجتمع، لأن علاقات الناس ومصالحهم متشابكة. ولهذا فإننا نجد الخلافات التي تحدث في دائرةٍ ضيقة من دوائر المجتمع، لا تقتصر على تلك الدائرة، بل تتعداها إلى بقية الدوائر التي تتصل بها، أو تتأثر بها شعورياً أو فكرياً، مما قد يدخل في نطاق العدوى، أو التفاعل اللاشعوري بحكم الترابط الوثيق بين أفراده. ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الطابع الحركي للمجتمع الإسلامي، في ما يدفع إليه من تحمُّل مسؤولية الآخرين في ما ينحرفون به، حتى في المجالات البعيدة عن واقع الآمرين والناهين، لأن القضية لا تخص الفاعلين المنحرفين، بل تمتد إلى بقية قطاعات المجتمع بطريقةٍ وبأُخرى، فلا يمكن لأفراده أن يواجهوه مواجهة اللامبالاة تحت شعار تقييد حرية الآخرين الفردية، لأن هناك نوعاً من أنواع حرية الأفراد قد يلغي حرية المجتمع كله. وهذا ما عبَّرت عنه

---

(١) قرأ عليّ والباقر عليهما السلام وكذا زيد بن ثابت والربيع بن أنس وأبو العالية ـ على ما في المجمع ـ: لتصيبنّ باللام ونون التوكيد الثقيلة، والقراءة المشهورة: لا تصيبن بلا النافية ونون التوكيد الثقيلة. [انظر: مجمع البيان: ج: ٤، ص: ٨١٨].
وعلى كل تقدير، فمآل المعنى واحد كما سنرى في سياق تفسيرنا لهذه الآية المباركة، لجهة ما تحمله من تحذير للمسلمين من الاستهانة أو الاستخفاف بموضوع الخلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم.

المأثورة: «لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهُنَّ عن المنكر، أو لَيسلّطنَّ الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم»[1].. وهذا ما أرادت هذه الفقرة من الآية أن تشير إليه، فتحذّر المؤمنين من الفتنة التي إذا انطلقت، فإنها لا تصيب الذين أثاروها وأوقدوا نارها من هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس، بل تتعداهم إلى غيرهم، كنتيجةٍ طبيعيةٍ لترابط القضايا والمشاكل الاجتماعية، ووحدة مصير أفراد المجتمع.

* * *

دعوة المسلمين لتذكر نعم الله عليهم

وإذا كان التحذير متوجّهاً إلى المجتمع ككلّ في مواجهة الفتنة التي يثيرها الظالمون، فإنه يتوجّه إلى هؤلاء الذين يثيرونها بشكل أكيد، لأنّ المسؤولية الكبرى هي مسؤوليتهم بالذات في ما يتحملونه من النتائج السلبية في الدنيا والآخرة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فاحذروا أيها المؤمنون عقاب الله. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في مكّة أمام قوّة قريش وجبروتها، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ في ما يمثّل ضعفكم في العدّة والعدد، بحيث كنتم عرضةً للاختطاف في ما يمثله ذلك من ذلٍّ ومهانةٍ واستضعاف.

ولكنّ هذا الواقع قد تبدل إلى واقعٍ جديد بعد الهجرة، فقد أعطاكم الله القوّة من خلال دينه، وهيّأ لكم الأرض الطيّبة التي استقبلتكم بكل محبّةٍ وإيمان؛ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ في ما قدّمه لكم من وسائل النصر، وأثاره فيكم من روح القوة... ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من خلال ما وسّعه عليكم من

---

(١) البحار، م:٣٢، ج: ٩٠، ص: ٤٦٥، باب: ٢٤، رواية: ٢١.

رزقه الحلال الطيب من مختلف الأشكال والألوان، بعد المعاناة الطويلة التي لاقيتموها في مكّة من ضيق العيش، وجشوبة المأكل. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك كلّه، بالسير على هداه، والعمل على رضاه، والجهاد في سبيله، فإنّ ذلك هو التجسيد الحيّ للشكر العملي على نعم الله الوافرة وألطافه الرضيّة، ورحمته الواسعة.

□●□●□●

الآيتـــان

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَخُونُوا۟﴾: الخيانة: نقض الأمانة التي هي حفظ الأمن لحقّ من الحقوق بعهدٍ أو وصية ونحو ذلك، قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد، إلاّ ان الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدِّين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ونقيض الخيانة الأمانة، يقال: خنت فلاناً، وخنت أمانة فلان، وعلى ذلك قوله: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾. انتهى[١].

* * *

---

(١) مفردات الراغب، ص: ١٦٢.

مناسبة النزول

جاء في مجمع البيان: قال عطاء: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرائيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال الكلبيّ والزهري: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتاهم، فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة، أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدَّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشيّاً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال: لا والله، لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يحلّني. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يجزئك الثلث أن تصدّق به. وهو المروي عن

أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[1].

ومعنى الرّواية الأولى أقرب للانطباق على ما سنرى في التفسير الذي اعتمدناه للآيتين موضوع البحث. وأما قصة أبي لبابة وتوبته وإن كانت صحيحة وقابلة للانطباق على مضمون الآيتين لا سيما لجهة فتنة الأهل، غير أنها وقعت بعد قصة بدر بوقتٍ كثير. وظاهر الآيتين، إذا ما قيستا إلى الآيات السابقة عليهما، نرى أنها جاءت جميعها في سياق واحد، ونزلت بعيد وقعة بدر بقليل، والله العالم.

* * *

نهي إلهيّ عن خيانة أمانته ورسوله والمؤمنين

وهذا هو النداء الثالث الذي يدعو المؤمنين إلى اعتبار الإيمان عهداً بين المؤمن وبين الله ورسوله، بإخلاص العبودية لله، وإسلام الحياة كلها له، وإخلاص الالتزام بالشريعة التي جاء بها رسوله، والعمل على تحقيق الأهداف الكبرى التي أراد الله للحياة أن ترتكز عليها في مضمونها الروحي والماديّ، وفي حركتها الجهادية في مواجهة كل تحديات الباطل، من أجل إقامة الحق في واقع الإنسان، كما يدعوهم إلى الإخلاص للأمانات الفردية والاجتماعية، في ما يأتمن به الأفراد بعضهم البعض في قضايا المال والعرض والنفس والسرّ، وفي ما يتحملونه في نطاق المجتمع من مسؤولياتٍ سياسية أو اجتماعية واقتصادية وعسكرية، ممّا يعتبر في مستوى الأمانة العامّة، من أجل سلامة الأمة في قضية المصير. وبذلك يكون الفرد المؤمن، هو الفرد الأمين على قضايا الناس والحياة، ويكون المجتمع المؤمن هو المجتمع الذي

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٢٣ ـ ٨٢٤.

يعتبر الأمانة بمثابة المسؤولية عن كلّ شيء يتّصل بالآخرين في إطار طاقاته، والقاعدة الصلبة التي يرتكز عليها وجوده، بينما يعتبر الخيانة الفردية والجماعية خارجةً عن الخط المستقيم، ومنفصلةً عن البناء المتماسك للوجود الإيمانيّ الإنسانيّ في الحياة.

وهذا ما أثارته الآية الكريمة في هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في ما يوحي به الإيمان من عمق الالتزام وامتداده وقوّته. ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ في ما تفرضه حقيقة الألوهية والوحدانية من إخلاص العبودية له ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾في ما يعنيه الإيمان بالرسالة من الالتزام بالمفاهيم العامة التي تدعو إليها، والتعاليم الشرعية التي تأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتدفع إلى الحق، وتُبعد عن الباطل، فإن خيانة الله والرسول في ذلك تعني الكفر والضلال... ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فإن الله يريد للحياة الاجتماعية أن ترتكز على الثقة المتبادلة بين الأفراد، القائمة على الإخلاص في حمل الأمانة وفي تأديتها إلى أهلها، من دون فرق بين الأمانات الشخصية المتمثلة بالالتزامات الذاتية التعاقدية بين الأفراد، وبين الأمانات العامة المتمثلة بالتشريعات الإلّهية في المسؤوليات التي حملها الله للناس. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قيمة العهد الإلهي والرسالي في خط الإيمان، والعقد الفردي والجماعي في دائرة الأمانة، وإذا كنتم تعلمون ذلك، فإن العلم يمثّل الحجة البالغة التي لا تملكون معها أيّ لونٍ من ألوان العذر في ما لو انحرفتم عن الطريق المستقيم.

* * *

تحذير مبطن من فتنة الأموال والأبناء

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. فليست الأموال امتيازاً ذاتياً للطغيان والتجبّر، وليس الأولاد منحةً شخصية للشعور بالقوة والخيلاء، بل

هي أمانة في مستوى المسؤولية، ونعمةٌ في مستوى الامتحان. فقد أراد للأموال أن تكون من حلال وأن تصرف في الحلال، كما أراد للأولاد أن يكونوا مؤمنين صالحين عاملين بما يرضي الله ويصلح الناس. فهي فتنةٌ، يُفتن الإنسان بها ويُختبر، ليُعرف ما إذا كان يقوم فيها بما يستوجب مرضاة الله أو بما يستوجب سخطه، فإذا قام الإنسان فيها بطاعة الله، فإنه سيحصل على الثواب الكبير منه. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آمن به وأخلص له الإيمان والطاعة. وهكذا يعتبر القرآن ملكية المال وظيفةً إنسانية، من أجل تحويله إلى طاقة حيّةٍ منتجةٍ من أجل بناء الحياة والإنسان، كما يعتبر الأُبوَّة للأولاد رسالةً يؤدي أحد الأبوين ـ أو كلاهما ـ من خلالها مهمّته، ويقوم بدوره في تربية الأعضاء الفاعلين للأمة الذين يعملون من أجل المعاني الروحية والإنسانية التي جاءت بها الرسالات الإلَهية إلى العالم.

● □ ● □ ●

الآيــة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿فُرْقَانًا﴾: أصل الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء. وهو في الآية ـ بقرينة السياق وتفريعه على التقوى ـ ما يفرّق به بين الحق والباطل، سواء كان ذلك على صعيد العقيدة والفكر أو على صعيد العمل.

* * *

التفريق بين الحق والباطل من ثمار التقوى

وهذا هو النداء الرابع الذي يدعو المؤمنين إلى اعتبار التقوى أساساً للرؤية الصحيحة للأشياء، وميزاناً للتمييز بين الحق والباطل، وقاعدةً للمغفرة

والتكفير عن السيّئات، لأنها تمثّل الموقف الواعي الذي ينظر إلى الأشياء بعين الله، ويحكم عليها من خلال شريعته، وبذلك يوحي للعقل بالإشراق وللخطوات بالتوازن على الطريق المستقيم. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انطلقوا بإيمانكم إلى المواقع التي تتحوّل بكم إلى الموقف الحق في خط التقوى، فإن الله قد أعدّ للمتقين كل خيرٍ ورحمةٍ ورضوان.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ يفرق بين الحق والباطل، في ما يمثله من المراقبة الدائمة لله في كل ما يتحرك فيه الإنسان أو يقف، فلا يقدم رجلاً ولا يؤخّر أخرى حتى يعلم أن في ذلك لله رضى، مما يعمّق في داخله الإحساس الواعي بالخطوط الفاصلة بين النور والظلمة وبين الخطأ والصواب، ويجعل نوره يسعى بين يديه، وعن يمينه وعن شماله، وذلك هو خط المعرفة في حركة التقوى في حياة الإنسان. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، لأن التقوى تعني التوبة الحقيقية في مضمونها العملي، الذي يمثّل الحركة التغييرية في صعيد الواقع في مقابل التوبة الكلامية التي تعبّر عن الحالة النفسية الطارئة بعيداً عن الموقف الثابت المستمر. وبذلك يتحقق الأساس للمغفرة والرضوان والتكفير عن السيئات، لأن ﴿ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، كما جاء في بعض الآيات. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يمنع أحداً من فضله ولا يحرم أحداً من لطفه ونعمه.

● □ ● □ ●

الآيــة

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يَمْكُرُ﴾: قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكرٌ محمود وذلك أن يتحرى به فعل جميل، وعلى ذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ومذموم: وهو أن يتحرى به فعل قبيح، قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[النمل: ٥١]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، وقال بعضهم: من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا؛ ولذلك قال أمير المؤمنين (رضي الله عنه): من وُسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوعٌ عن عقله[١].

---

(١) مفردات الراغب: ص: ٤٩١.

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: في المجمع: الإثبات: الحبس، يقال: رماه فأثبته، أي حبسه مكانه. وأثبته في الحرب، إذا جرحه جراحة مثقلة[١].

* * *

مناسبة النزول

جاء في الدر المنثور للسيوطي، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي ﷺ ـ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه.. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليّ رضي الله عنه على فراش النبيّ ﷺ، وخرج النبي حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً رض الله عنه يحسبونه النبي ﷺ. فلمّا أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليّاً رضي الله عنه رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصّوا أثره، فلمّا بلغوا الجبل، اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[٢].

* * *

قريش تتآمر على النبي قبل الهجرة

وهذا حديث عن الأجواء التي سبقت الهجرة النبويّة من مكة إلى المدينة وهيّأت لها. فقد ضاقت قريش ذرعاً بالنبي، بعد أن استنفدت كل الأساليب التي حاولت من خلالها الضغط عليه نفسياً وجسدياً من أجل أن يترك دعوته،

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٢٦.

(٢) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٥٠ ـ ٥١.

ويبتعد عن مواجهة الفكر الإشراكي في خططه ووسائله وأهدافه، ولكنه صمد أمام عوامل الترغيب والترهيب، والإيذاء والتنكيل، والشتم والاضطهاد، فاجتمعوا في مؤتمر تآمريٍ ضمّ كبار القوم، فقال قائلهم: نثبته في بيت ونوثقه، وقال آخر: بل نقتله، وقال ثالث: بل نخرجه من بلادنا... واختلف الرأي فيما بينهم. ثم اتفقوا على أن يقتلوه بمشاركة كل بطون قريش، حتى يضيع دمه فيما بينهم. ولكن الله أطلع نبيه على ذلك، وأمره بالهجرة إلى المدينة، حيث كان قد أعدّ للأمر عدّته في ما اتفق عليه مع الأوس والخزرج على أن ينطلقوا معه في خط الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فيمنعونه مما يمنعون به أنفسهم وأهليهم وأموالهم... وهكذا أبطل الله مكرهم وتدبيرهم الخبيث بأقوى منه، حيث خطط لنبيه طريق الهجرة بكل دقّةٍ ونجاح، وانطلق الإسلام من خلال ذلك انطلاقته الكبرى في خط الدعوة والجهاد من خلال الرحمة والقوة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على ضوء ما تقدم من معنى «المكر» في «معاني المفردات»، فإن الكلمة لا تدل على معنى سيّىء ليقول قائل إن نسبة المكر إلى الله جارية على سبيل المحاكاة ورد الفعل لا على سبيل الحقيقة. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ الإثبات الحبس... ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ في ما يدبرونه من خطط للقضاء على النبي وعلى دعوته ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ بما يدبّره من إبطال كيدهم ومكرهم، وبما يسهله لرسوله من الوصول إلى أهدافه، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وخير المدبّرين، فإذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه..

● □ ● □ ●

الآيــات

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ
هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ
ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟
أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ
صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ
بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أحاديث، وهي جمع أسطورة، وتغلب على الأخبار الخرافية.

﴿مُكَآءً﴾: المُكاء بضم الميم: الصفير؛ والمكاء بصيغة المبالغة: طائر بالحجاز شديد الصفير.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: التصدية: التصفيق بضرب اليد على اليد.

﴿لِيَمِيزَ﴾ التمييز: إخراج الشيء عما يخالفه، وإلحاقه بما يوافقه، بحيث ينفصل عما يخالف.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾: الركم: جمع الشيء فوق الشيء؛ وتراكم الأشياء: تراكب بعضها فوق بعض.

﴿يَنتَهُواْ﴾: الانتهاء: الإقلاع عن الشيء لأجل النهي.

﴿سَلَفَ﴾: تقدّم.

﴿سُنَّتُ﴾: السنة هي الطريقة والسيرة.

* * *

مناسبة النزول

في الدر المنثور: «أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي ﷺ والقرآن، فقال: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾»[1].

أقول: وهناك بعض روايات أُخر في أن القائل بهذا القول هو النضر بن الحارث، وقد قتل يوم بدر صبراً.

---

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٥٤.

وفيه: «أخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل بن هشام: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾»[١].

وفيه: «أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد ﷺ أكرمه الله من بيننا؟ ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾»[٢].

وفيه: «أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير (رض) قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف، يستهزئون ويصفرون ويصفّقون فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾»[٣].

وفيه: «أخرج أبو الشيخ عن نبيط ـ وكان من الصحابة (رض) ـ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية، قال: كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون»[٤].

وفيه: «أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: المكاء: صوت القنبرة، والتصدية: صوت العصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٥٥.
(٢) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦١.
(٤) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦١.

والركن اليماني، فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء، والآخر يصفق بيده تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته»[(١)].

وفيه: «أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه قال: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان، وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمر، قالوا: لما أُصيبت قريش يوم بدر ورجع فلّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميّة في رجال من قريش إلى من كان معه تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأراً، ففعلوا، ففيهم ـ كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾»[(٢)].

وفيه: «أخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أُحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب، فأنزل الله فيه هذه الآية، وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع»
ثلاثة آلاف ونحن نصيةٌ ... ثلاث مئين إن كثرن فأربع[(٣)]

* * *

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ٦١.
(٢) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦٣.
(٣) (م.ن)، ج: ٤، ص: ٦٣.

من ملامح المجتمع الكافر

وهذه صورة حيّة للأسلوب الذي كان يستخدمه الكافرون في مواجهة الرسول والرسالة، وللجوّ العدواني الذي كانوا يثيرونه ضدّهما... وكيف واجههم الله بوعيده بإنزال العذاب عليهم في الآخرة، وبدحر مخططاتهم في الدنيا، وبكشف كل أوضاعهم المنحرفة الضالة.

* * *

استهانة الكفّار بآيات الله تعالى

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ في ما كان يتلوه عليهم رسول الله من وحي الله، ليتأملوا وليفكروا في معانيه ليهتدوا به، ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ في طريقةٍ توحي بالاستخفاف واللاّمبالاة، كمن يحاول أن ينتهي من الموضوع بشكل سريع، ولهذا فهو يحاول أن لا يدخل في حوارٍ للوصول إلى النتيجة الحاسمة، فيلقي الكلام من دون تفكير. ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾، لأن ما تقدمه لنا ـ يا محمد ـ مجرد كلام، كالكلام الذي نحدث به بعضنا بعضاً، فليس فيه شيء غير مألوف بما تعوّد الأنبياء أن يقدّموه إلى الناس. ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في ما كانوا يتحدثون به من خرافاتٍ لا تمثل شيئاً من الحقيقة. وهكذا نجد أنهم لا يريدون للمسألة أن تأخذ الطابع الجديّ للنقاش وللحوار المفيد.

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. لقد كان أهل مكة يؤمنون بالله، ولكنهم كانوا يشركون بعبادته غيره، في ما صنعوه من الأصنام التي يعتبرونها قريبةً من الله في ما تختزن ــ في داخلها ــ من أسرارٍ، وبذلك فإنها تقرّبهم إلى الله زلفى. ولهذا فإنهم يتوجهون إلى الله من موقع الواثق بصحة عقيدته في ما يعبد من هذه الأصنام، والعارف ـ من خلال ما كان يسمعه من أحاديث الأنبياء ــ بأن

التمرد على الحق الصادر من الأنبياء، يؤدي إلى عذاب إلّهيٍّ دنيوي من نوع إمطار الحجارة من السماء عليهم، أو ما أشبه ذلك من العذاب، كإنزال الصاعقة، أو النار الهابطة من السماء، أو غير ذلك مما كان يحلُّ على الأمم السالفة.

ولذلك فإنهم وجّهوا هذا الدعاء إلى الله بروحيّة التحدّي للرسول الذي يريدون إظهاره بمظهر المدّعي للنبوّة من غير أساس، لأنه لو كان صادقاً في ما يدّعيه، لكان تكذيبهم له موجباً لنزول العذاب عليهم، كما هي سنَّةُ الله مع الأُمم السابقة المكذّبة للأنبياء. ولكن الله يرد عليهم ـ بطريقةٍ غير مباشرة ـ بأن الله لن يعامل هذه الأمة، بما كان يعامل به الأمم السابقة من أساليب العذاب غير المألوف، والخارق للعادة، لأن الله لم يرد للأمّة أن تنتهي بالعذاب، بمجرد قيامها بالتمرُّد والكفران، بل يريد لها الامتداد من خلال حركة الرسول السائرة أبداً في خط الأمل الكبير بانتصار الإيمان على الكفر، وغلبة الهدى على الضلال... ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ أراد له أن يصبر ويواصل الدعوة تلو الدعوة، والأسلوب تلو الأسلوب؛ فإذا أخفق أسلوبٌ في مرحلة، فإن هناك أسلوباً آخر ينتظر التحرك في مرحلةٍ أخرى.

* * *

وجود النبي ﷺ مانع لنزول العذاب

وإذا ابتعدت جماعةٌ عن خط الدعوة إلى الله، فإن هناك جماعةً أخرى تقترب منه في عمليّة إيمان ولقاء. وبذلك كانت المسيرة مستمرةً مع رسول الله، فلا مجال ـ معه ـ للعذاب، لأنه يعني نهاية المسيرة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾. أما إذا غاب رسول الله عن الدنيا، ولاقى وجه ربّه، فسيبقى ـ بعده ـ مستغفرون، يستغفرون الله في كل صباحٍ ومساء، ويبتهلون

إليه في خشوع الإخلاص، وسيرفع الله العذاب عن الأمة كرامةً لهؤلاء المستغفرين، لأن الله يريد للجانب الخيِّر في الحياة أن يبقى ويمتد من أجل أن يهيمن على جانب الشر فيها، ولو بعد حين. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

* * *

تأخير عذاب الكفّار ليوم القيامة

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. ربما كان هذا التأكيد على عذاب الله لهم ناشئاً من استحقاقهم للعذاب، لولا وجود رسول الله بينهم. ولكن الله يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة، فقد صدوا عن المسجد الحرام كل المؤمنين، فهم كانوا يضطهدونهم في مكة، ويمنعون من كانوا خارجها من المجيء إليها للحج والعمرة. وقد فسر البعض العذاب هنا بالقتل الذي نزل بهم في معركة بدرٍ وغيرها، ويؤيد ذلك أن الله عبّر عن القتل بالعذاب في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، ولكن هذا غير واضح من سياق الآية؛ والله العالم.

* * *

أولياء الله هم المتقون

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ لأنهم أشركوا بالله غيره، ودنسوا الكعبة بأصنامهم، وابتعدوا في مفاهيمهم وتقاليدهم عن خط الرسالات، وأقبلوا على أفكار الجاهلية وعاداتها، مما جعلهم بعيدين عن الله وعن بيت الله... ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين يخافون الله ويؤمنون به، ويعبدونه، ويعمرون مساجده بالعبادة والعلم والتقوى، فتتحول ـ من خلالهم ـ إلى أجواء خاشعة من الروحانية والإيمان؛ لأن قضية المساجد ليست قضية امتياز يتوارثه الأبناء

عن الآباء للزعامة والوجاهة، بل هي قضية رسالة وتقوى وعبادة، وهذا ما يتحمل مسؤوليته المتقون الذين أُبعدوا عن دورهم الطبيعي في هذه المجالات ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يلتفت إلى ما كانت تقوم به قريش من مظاهر العبادة في البيت الحرام، فيصوّر لنا ذلك بصورة الألعوبة التي لا تمثل أيّ معنى من معاني العبادة.

* * *

ضلال سعي الكفار لإبطال دعوة الله

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فقد كانت صلاتهم نوعاً من أنواع العبث الذي يمارسونه صفيراً بأفواههم وتصفيقاً بأيديهم، من دون خشوع أو خضوع. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في جهنم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله ورسالاته. وتبقى نشاطاتهم في ما ينفقون من أموالهم في سبيل أنانيتهم ومطامعهم ومخططاتهم المشبوهة في إبعاد الناس عن طريق الله، وفي تدبير المكائد للمؤمنين، أملاً في الانتصار والوصول إلى ما يريدون أو يستهدفون... ولكن الله يكشف لنا عن النتائج السلبية التي يحصلون عليها من ذلك، بالمستوى الذي يحوّل كل جهودهم إلى حسراتٍ وهزائم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في ما يبذلونه في المعارك التي يثيرونها ضد الإسلام والمسلمين. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ ويخسرونها، لأنهم لن يربحوا منها شيئاً. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لأنهم يرونها تتبدّد وتذوب بين أيديهم من دون فائدةٍ. وتلك هي روحية الإنسان الذي يبذل ما يبذل من جهد في سبيل جمع المال، ليضمن من خلاله تحقيق أغراضه وأمانيه. وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الخسارة الفادحة التي تحطم كل أحلامه وكل مستقبله. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، فتجتمع لديهم الخسارة المادية والخسارة المعنوية. وماذا بعد ذلك؟ هل تقف الخسارة عند هذا الحد؟ إن

الآخرة تنتظرهم بعذابها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ليلاقوا جزاء أعمالهم، ويعيشوا الحسرة العظمى التي لا حسرة بعدها.

* * *

الخبثاء مركومون في جهنم

وهكذا يريد الله من الإنسان تجسيد خصائصه الذاتية، في نشاطاته وعلاقاته ومعاملاته ومواقفه، وإظهارها ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ في الصفات الخبيثة الشريرة التي تتمثل في الأول، وفي العاقبة الخاسرة الوخيمة التي تواجه الخبيث؛ وفي الصفات الطيبة الخيّرة المتمثلة في الثاني، وفي العاقبة الرابحة المشرقة التي تواجه الطيب في الدنيا والآخرة... ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ بأن يجمع الخبثاء في يوم القيامة، ويلقيهم بعضهم فوق بعض ﴿فَيَجْعَلَهُ﴾ أي الخبيث ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ تماماً كما يلقي حزمة الحطب فيجعلها وقوداً للنار. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأيّ خسارة أعظم من الخسارة الخالدة، التي يفقد الإنسان معها كل أمل بالربح في المستقبل القريب والبعيد؟!

ويختم الله هذا الفصل بتوجيه الأمر للنبي، بأن يطرح على هؤلاء الكافرين النصيحة الإلّهية الحاسمة، في ما يجب أن يفكروا به للحاضر والمستقبل. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ ويسلموا في تفكيرهم ومنهجهم العملي للحياة، ويرجعوا إلى الله في كل شيء ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم، لأن الله يغفر للمؤمن كل ما جناه في زمان كفره. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى ما كانوا عليه من التمرد والعصيان والصد عن سبيل الله، ومحاربة الله ورسوله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين كذّبوا وتمرّدوا وواجهوا الأنبياء بالمحاربة، ونصر الله رسله عليهم ومزّقهم شرّ ممزّق.

● □ ● □ ●

الآيتـــان

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ
لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿فِتْنَةٌ﴾: هي ما تُمتحن به النفوس، وتكون، لا محالة، مما يشقّ عليها. وقد غلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح.

﴿انْتَهَوْا﴾: الانتهاء: الإقلاع عن الشيء لأجل النهي.

* * *

القتال إبعاداً للفتنة عن الدين

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. وهذا توجيهٌ للمؤمنين إلى الروحية التي يجب أن تحكم أهدافهم في القتال، فهم يقاتلون على أساس منع القوة التي تمثلها قريش من الضغط على المسلمين بغرض فتنتهم عن دينهم، وإبعادهم عن خط التوحيد لله. فإن هذه القوة إذا انهارت، انهار الشرك كله، مما يدفع الجوّ إلى التغيير الجذري. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، لأن الناس سينفتحون على الإسلام عندما تتحطم كل الحواجز المادية التي تمنعهم من الوصول إليه والانفتاح عليه، وهذا هو الخط الذي ينبغي للمؤمنين أن يسيروا عليه في ساحة الصراع، ليكون من أهدافهم البعيدة أن يضعفوا كل القوى الكافرة المهيمنة على الفكر والعمل، بالوسائل الواقعية التي يملكونها، على أساس الظروف الموضوعية المحيطة بهم، في ما تختزن من أوضاعٍ وما تطلقه من تحديات وما تتحرك به من خططٍ ومؤامرات، لأن إضعاف القوى المضادّة قد يكون إحدى الوسائل التي تتيح للدعوة الإسلامية أن تأخذ حريتها في الحركة، عندما يأخذ الآخرون من أفراد الأمة حريتهم في التفكير والقراءة والاستماع والحوار، بعيداً عن الضغوط الفكرية والسياسية والعسكرية، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ وأسلموا الأمر لله ودخلوا في الإسلام، أو انتهوا عن العدوان والفتنة؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ليجزيهم على ما عملوا بما يستحقون من جزاء. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا واستمروا على طريق الكفر والبغي والضلال، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وناصركم عليهم مهما امتدوا في طغيانهم وعدوانهم. والله ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأوليائه، ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لهم على أعدائهم وأعدائه.

● □ ● □ ●

الآيـــة

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿غَنِمْتُم﴾: الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب. . ، قال الراغب: الغنم ـ بفتحتين ـ معروف، قال: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. والغنم ـ بالضم فالسكون ـ إصابته والظفر به ثم استعمل في كلِّ مظفور به من جهة العِدى وغيرهم، قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾[الأنفال: ٦٩]. والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم[١].

(١) مفردات الراغب، ص: ٣٧٨.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: القريب. والمراد به، هنا، قرابة النبي ﷺ، أو خصوص أشخاص منهم على ما تفسره الآثار القطعية.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: اليتيم هو الإنسان الذي مات أبوه وهو صغير. قالوا: كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الإنسان، فإن يتمه من قبل أبيه.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: المحتاجين.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع في سفره.

* * *

آية الخمس

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من غنائم الحرب، على قول فريق من المفسرين من أهل السنّة، ومن كل الغنائم والفوائد والأرباح، من التجارة والصناعة والزراعة والغوص والكنز والمعادن وغير ذلك... في ما جاء في التفسير عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وتبعهم في ذلك المفسّرون من المسلمين الشيعة... وربّما كانت وجهة النظر الأولى، تنطلق من سياق الآية الواقعة في أجواء معركة بدر، مما يوحي بأنها تتحدث عن قضايا المعركة وأحكامها. أما وجهة النظر الثانية، فتنطلق من القاعدة التي تقول إن المورد لا يخصّص الوارد، وإنَّ المناسبة لا تخصص الآية. وكلمة الغنيمة مطلقة في الآية، وعلى هذا الأساس كان مذهب أهل البيت في أنّ الخمس يشمل الفوائد والأرباح من كل المداخيل المالية ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾، بعد توزيع الأربعة أخماس على المقاتلين، أو إبقائها لصاحب المال.

* * *

ما معنى أن يكون لله سهم؟

ولكن ما معنى أن يكون لله سهم وهو المالك لكل شيءٍ في السموات والأرض؟ وقد أجاب البعض بأنه قد ذكر للتبرك، أو لما يشبه ذلك. ولكن ربما كان الأقرب إلى الجوّ التشريعي في الآية، أن يكون سهم الله من أجل الغايات التي ترتبط باسم الله، كسبيل الله ونحوه... ولعل السياق يبعد عن موضوع التبرّك، لأنه ذكر بالطريقة نفسها التي ذكرت فيها بقية الأصناف، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ في ما يحتاجه في شؤونه العامة المتعلقة بشخصيته الرسولية، لا بلحاظ ذاته بصفته الشخصية، لأن الله ـ سبحانه ـ قد جعلها له بصفة المسؤولية العامة، مما يوحي بدور المسؤولية في قضية هذه الضريبة.

* * *

ذوو القربى في الآية

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو الإمام المعصوم، في تفسير أهل البيت عليهم السلام ـ ولذا أفرده بالذكر ـ، وقرابة الرسول بقولٍ مطلقٍ، في أقوال المفسرين الآخرين. ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الذين فقدوا آباءهم ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ الذين لا يملكون العيش الكريم الذي يكفيهم في سنتهم، أو من هم أكثر بؤساً من ذلك. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي انقطعت به الطريق، فلم يكن لديه المال الذي يستعين به للرجوع إلى بلده.

وتضافرت الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بتخصيص هذه الأصناف بأيتام آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومساكينهم وأبناء سبيلهم، ولكن جمهور المفسرين أطلقوا ذلك. وربما استوحى بعضهم من بعض الأحاديث، أن هذا التقسيم على سبيل المورد والمصرف لا على سبيل التخصيص، ولذا فإن وليّ الأمر يعطيهم ما ينقص عن حاجتهم، كما يأخذ منهم ما يزيد عليها.

* * *

لماذا تأخر تطبيق هذا التشريع عن زمن الرسول؟

وهناك عدة أسئلة يوجهها بعض الباحثين حول السرّ في تأخر تطبيق هذا التشريع عن زمن الرسول ﷺ حتى عهد الأئمة عليهم السلام، مع أنه يتسع لما لا تتسع له الزكاة، لشموله لبعض الموارد التي لا تجب فيها الزكاة، كما أن كمِّيته أكثر منها؟! وأجاب بعض المحققين عن ذلك، بأننا نلاحظ في بعض رسائل الرسول ﷺ إلى القبائل التي دخلت في الإسلام، أنه يأمرهم فيها بالخمس، في الوقت الذي لم تكن لديهم أية ظروفٍ حربيةٍ تسمح بوجود الغنائم. وقد أثار بعض آخر عدم التحدث في القرآن عن الخمس إلاّ في هذه الآية، مع أنه تحدث عن الزكاة في أكثر من مرة. وأجيب عنه، بأن المقصود ما يشمل كل الضرائب الماليّة حتى الخمس، باعتبار أنها تزكي المال وتنميه. وهناك أبحاثٌ أُخر تتكفل بها كتب الفقه، فليراجعها من أراد الاطلاع عليها.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ من آيات في شأن الغنائم. وربما كانت إشارة إلى آية الأنفال في ما توحي به من إيكال الأمر إلى الله وإلى الرسول، ليتصرّف المسلمون من خلال ما يصدر إليهم من تعليمات. فهذا هو مظهر الإيمان الحق في خط النظرية والتطبيق. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ الذي ظهر فيه الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع الكفر والإسلام. وربما كان ذلك إشارة إلى معركة بدر. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ في ما ينصر به عباده المؤمنين، ويسلِّطهم على أعدائهم، ليفتحوا وليغنموا من الأموال ما شاء الله لهم ذلك.

● □ ● □ ●

الآيـــات

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ
وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ
كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي
أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بِالْعُدْوَةِ﴾: جانب الوادي، أو شفيره.

﴿الدُّنْيَا﴾: مؤنّث أدنى، وهو الأقرب.

﴿الْقُصْوَىٰ﴾: مؤنث الأقصى، وهو الأبعد.

﴿وَٱلرَّكْبُ﴾: جمع راكب. وقيل هو البعير الذي كان عليه أبو سفيان ابن حرب.

﴿بَيِّنَةٍ﴾: حجّة ظاهرة.

﴿لَفَشِلْتُمْ﴾؛ الفشل: هو ضعف من فزع.

﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾؛ التنازع: الاختلاف. وهو من النزع نوع من القلع، كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر ممّا هو عليه.

* * *

الرعاية الإلهية لمعركة بدر

وهذه بعض الآيات التي تتحدث عن الأجواء التي هيّأها الله ـ سبحانه ـ للمسلمين، من أجل نصرهم على المشركين في بدر، ليحسُّوا برعاية الله لهم في ما يخوضونه من معارك، أو يواجهونه من تحدّيات. ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي شفير الوادي الأقرب إلى المدينة، الذي اتخذه المسلمون موقعاً عسكرياً لهم. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ وهي الجانب الأبعد. ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهم الذين كانوا مع القافلة التي تحمل تجارة قريش بقيادة أبي سفيان، فقد استطاع أن يبتعد إلى الساحل الذي هو أسفل منهم، حتى هرب بها بعيداً عن المسلمين.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ لأن المسلمين لم يخرجوا لقتال قريش، بل ليتعرضوا للقافلة، كما أن المشركين خرجوا لحماية القافلة، وقد كانت المواجهة بينهما في المعركة غير منتظرةٍ، ودون اتفاق أو تواعدٍ على مكانٍ خاص أو زمانٍ خاص. وربما كان التواعد السابق موجباً للاختلاف في

الميعاد، لأن ذلك قد يخلق حالةً من الاستعداد الذي يؤخر أحدهما عن الآخر، وربما يوجب بعض التردد والتراجع لدى الخائفين المترددين، في ما لو علموا أن هناك معركةً حربيةً تنتظرهم في مسيرهم هذا. وقد يكون في هذا الموقع الذي اتخذه المشركون، الذي يتميز بالصلابة والقرب من الماء، والموقع الذي اتخذه المسلمون، الذي يتميز بالرمل المتحرك والبعد عن الماء، إشارةً إلى أنّ النصر لم يكن حاصلاً من الأسباب الطبيعية التي تفرض الانتصار لمراكز القوى، لأنّ القضية كانت عكسيّة، لأن المواقع العسكرية لا توحي بانتصار المسلمين. ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فقد أراد ـ سبحانه ـ أن يهيّىء الجوَّ الملائم الذي تتحرك فيه المعركة باتجاه النتائج المفاجئة التي توحي بالرعاية الإلهية في ما تمثله من حجةٍ للإيمان على الكفر، وللمؤمنين على المشركين، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾. وربما كان المراد من الهلاك الكفر أو الضلال، باعتباره سبباً للهلاك الأخروي أو الدنيوي، في ما يقتضيه من أوضاعٍ سلبيّةٍ لأصحابه. ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ في ما يمثله الإيمان من حياة روحية، في ما يحسّه الإنسان المؤمن من حياةٍ مطمئنة، أو في ما ينتهي إليه من حياة النعيم في الآخرة. فقد أراد الله للمؤمنين أن ينفتحوا على الإيمان من موقع الحجة لهم على الآخرين، كما أراد أن يقيم الحجة على الكافرين في ما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فهو الذي يسمع دعوات المؤمنين واستغاثتهم، ويعلم ضعفهم وحاجتهم للتأييد والنصر.

* * *

رؤية النبي للمنام... واستبشار المؤمنين بالنصر

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ وقد رأى النبي في منامه قريشاً وهم

قلّة لا يمثلون قوّةً عددية كبيرة، فأخبر المسلمين بما رأى، فاستبشروا بذلك وقوي عزمهم على الدخول في المعركة. ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ لأن ذلك يؤدي بهم إلى الخوف الذي يبعث على الهزيمة النفسية، وينتهي بهم إلى الفشل في مسيرتهم هذه، من خلال الضعف الداخلي المسيطر عليهم، ويخلق فيما بينهم حالةً من التنازع بين فريقٍ يدعو إلى الاستمرار في المعركة، وبين فريقٍ يدعو إلى التراجع والانسحاب بفعل العجز عن المواجهة، مما يجعل من الاندفاع معها حالةً انتحارية لا يُقدم عليها العقلاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ لتندفعوا في المعركة من موقع الاستهانة بهم، لتنطلقوا بروحٍ قويةٍ ثابتةٍ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ليتحركوا نحوكم بروح الاستهانة والتهوّر التي تمنعهم من الاستعداد الذاتي والحذر الشديد، ليساهم ذلك في إتمام عملية النصر، ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في ما يقضيه من انتصار المسلمين على المشركين، على أساس تهيئة الجو النفسي الذي يدفع بالمعركة في الاتجاه المفاجىء لمصلحة المسلمين. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأن بداياتها منه ونهاياتها إليه.

* * *

معركة بدر وإيحاءات الحرب النفسية

وربما نستوحي من ذلك أن من الممكن لقيادة المعركة أن تقوم بعمليةٍ إيحائيةٍ للمقاتلين، من أجل تثبيت أقدامهم، وتطمين أنفسهم، وذلك بإعطاء صورةٍ عن موازين القوى في المعركة، بطريقةٍ مختلفةٍ عن الواقع، في عدد الأعداء وفي طبيعة استعدادهم، وفي الأوضاع السياسية المحيطة بهم، وفي كل القضايا المتصلة بتحضير الأجواء التي تدفع بالمعركة إلى خط النصر،

لأن المقاتلين ينتصرون أو ينهزمون بالقوة أو الضعف الداخلي، قبل القوة العسكرية أو الضعف العسكري. ولهذا وجدنا الحرب الإعلامية تحقق الانتصار والهزيمة قبل الدخول في المعركة، في ما تحققه من هزيمةٍ نفسية تضعف معنويات المعركة، أو في ما تحققه من معنويّاتٍ عالية تزيد من فرص النصر.

وعلى ضوء ذلك، نعرف أنّ الإسلام يتحرّك في خط الأسلوب الواقعي في العمل، في نطاق المصلحة الإسلامية العليا، بعيداً عن الأجواء المثالية التي تتجمّد أمام حرفيّات التشريع أو مثاليات الأخلاق... ولعلنا نستطيع أن نقرّر ـ من خلال ذلك ـ أن القيم الأخلاقية الإسلامية ليست مطلقةً، بل هي نسبيّة محدودة بحدود مصلحة الإنسان العامة، في ما تفرضه من الانسجام معها في بعض المواقع أو الابتعاد عنها في مواقع أخرى، مما يدفعنا إلى الابتعاد عن إصدار الأحكام الأخلاقية بشكلٍ مطلق.

● □ ● □ ●

الآيـــات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ
ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ
وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن
دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ
يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾: الثبات: قال الراغب، الثبات ـ بفتح الثاء ـ ضد الزوال[1].

---

(١) مفردات الراغب، ص: ٧٤.

وهو في المورد ضد الفرار من العدوّ. وهو بحسب ما له من المعنى أعمّ من الصبر الذي يأمر به الله في قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، فالصبر ثبات قبال المكروه، بالقلب بأن لا يضعف ولا يفزع ولا يجزع، وبالبدن أن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل في ما لا يحمد فيه العجل، فالصبر ثباتٌ خاصٌّ.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: الريح على ما قيل: العز والدولة. وقد ذكر الراغب أن الريح، في الآية، بمعنى الغلبة استعارة[(١)]، لأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به، والغلبة على العدو تفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب، فاستعيرت لها[(٢)].

﴿بَطَرًا﴾: قال الراغب: البطر: دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها. ويقارب البطر الطرب، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح، وقد يقال ذلك في الترح. والبيطرة معالجة الدابة[(٣)].

﴿وَرِئَآءَ﴾: الرياء: المراءاة: هو إظهار الجميل ليُرى مع إبطان القبيح.

﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: التقتا، ورأت كل منهما الأخرى.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: النكوص: الإحجام عن الشيء. و﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: حال. والعقب مؤخر القدم. ولذا يكون معنى نكص على عقبيه كناية عن الرجوع القهقرى إلى الوراء، أي الانهزام.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: مفردات الراغب، ص: ٢١١.

(٢) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ٩٦.

(٣) مفردات الراغب، ص: ٤٨.

القرآن يدعو للثبات والصبر والوحدة

وتبقى للمعركة مواعظها ووصاياها الإلهية، التي تضع للقوة قواعدها وأخلاقها، لأن الله يريد للمقاتلين في أيّة معركةٍ أن لا يعتبروها مجرد ساحةٍ للقتل والقتال، بل يريد لهم أن يجدوا فيها الساحة التي تتحرك فيها الرسالة في خطين؛ خطٍّ تحطيم الحواجز التي يريد الأعداء أن يقيموها ضد حريتها في الدعوة وفي الحركة، وخطٍّ تبني فيه الإنسان على قاعدةٍ روحيّةٍ تنطلق مع الله في آفاق الخير والقوة، وتخوض مع الشيطان معركة القوة في مواجهة الضعف، والثبات في مواجهة الاهتزاز، ليظل الإنسان في كل مواقعه قريباً من حركة الرسالة في حياته. فليس هناك ازدواجيةٌ بين الذات والرسالة، حتى يكون لكل واحدٍ منهما موقعٌ خاص به، بل هو الموقع الواحد المتنوّع الألوان والأوضاع. وهذا ما نستوحيه من هذه الآيات.

* * *

أمر بالثبات أمام العدوّ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾. إن الإيمان يفرض على المؤمنين أن لا يدخلوا في معركةٍ مع أيّ فريقٍ من الناس إلاّ بعد أن تتّضح لهم شرعيتها، من خلال طبيعة المواقف والتحديات الضاغطة على الإسلام والمسلمين. وعلى هذا الأساس، فلا بد لهم أن يثبتوا ويستمروا في المعركة حتى النهاية انطلاقاً من وضوح سلامة الهدف من موقع سلامة الرؤية، لأنهم سيقفون بين خيارين، وكلاهما خير، النصر أو الشهادة؛ وبذلك يمكنهم أن يحصلوا على العنصر الحقيقي للقوة في موقفهم.

* * *

ذكر الله منبعٌ من منابع القوة

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، لأنه يمثّل مصدر القوة في مواقف الضعف، وأساس الأمن في مواقع الخوف، وقاعدة الانضباط في حالات الاهتزاز والانحراف، فيشعر المؤمن ـ معه ـ بأنه لا ينطلق في المعركة من حالةٍ مزاجيةٍ قد تجره إليها أجواء المعركة، بل من مهمةٍ رسالية تفرضها عليه رسالته بأمر ربه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لأن الأمّة التي ترتكز على الثبات وعلى المراقبة الدائمة لله في جميع مواقفها السلمية والحربيّة، سوف تسير إلى الفلاح في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فإن ذلك هو الذي يحمي المسيرة من الانحراف، ويصون الخطوات من الاهتزاز، ويحقّق للإنسان الطمأنينة النفسية والسكينة الروحية في التزامه بالخط المستقيم الذي يتّجه ـ أبداً ـ إلى رضوان الله.

* * *

التنازع سبيل الفشل والزوال

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ إن النزاع يتحرك من ذاتية الفكر التي تنزع للاصطدام بفكرٍ مماثلٍ، وعندها تتلاعب الأهواء بالقضايا، فلا يبقى هناك مجالٌ للّقاء على أرضٍ مشتركة، وتكون النتيجة أن يتنازع كل الفرقاء القضية، فيحاول بعضهم أن ينحرف بها في اتجاه اليمين، في حين يحاول الآخرون أن ينحرفوا بها في اتجاه الشمال؛ مما يفقدها قوتها ومسارها الطبيعي، فتفقد ـ من خلال ذلك ـ شروط النجاح وعناصره، وتقف ـ في النهاية ـ عند حدود الفشل، وتذهب الريح القوية العاصفة التي تضرب قوى الأعداء في الفضاء، لأنها تتوزع هنا وهناك، فلا يبقى منها شيءٌ إلا ما يشبه

الهواء الخفيف الكسول الذي لا يمثل أية قوةٍ في حركة العواصف. . . أمّا إذا التقت الأفكار عند فكر الرسالة، وتجمّعت الرياح عند حركة العاصفة، وتزاحمت الأقدام في الطريق الواحد نحو الهدف الواحد على أساس طاعة الله ورسوله، فهناك القوة كل القوة في ساحة الصراع.

* * *

الصبر أكبر عون على الشدائد

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ففي الصبر قوة الموقف، ووضوح الرؤية، وسلامة الطريق، وحرية الإرادة، وبذلك يكون الموقف للحق. وإذا كان الموقف للحق، كان مع الله، وكان الله مع السائرين على الحق الثابتين عليه.

* * *

النهي عن اتباع البطرين المرائين

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَـرًا﴾ في ما يمثله البطر من الطغيان في النعمة، وزهو الانحراف بها عن وجهها الصحيح الذي يُرضي الله، بعيداً عن خط التوازن والاعتدال. ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم لم ينطلقوا من حالة إخلاصٍ عميقٍ لوحي الرسالة، ليكون خروجهم تجسيداً للرسالة، بل كانوا ينطلقون من حالة رياءٍ استعراضي يحاولون ــ من خلاله ــ الإيحاء للناس بقوتهم وعظمتهم، ليراهم الناس وليقولوا عنهم ما يحبون أن يقال فيهم من كلمات المدح والثناء. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فيمارسون كل وسائل الضغط التي يملكونها ضد المؤمنين الرساليين السائرين في طريق الله، العاملين من أجل رضاه، المجاهدين في سبيله.

* * *

الفرق بين من يحارب لله ومن يحارب لغيره

وهذا هو الفرق بين الذين يحاربون من أجل رسالة إلهية، وبين الذين يحاربون من أجل عُقدةٍ ذاتية. إنه الفرق بين المسلمين الذين حاربوا مع رسول الله، وبين المشركين الذين حاربوا مع أبي جهل. وقد جاء في كتب السيرة، أن ابن الحقاف الكناني جاء إلى أبي جهل بهدية من أبيه، وهو في طريقه إلى حرب النبي ﷺ، فقال له: يقول لك أبي: «إن شئت أمدّك بالرجال، وإن شئت زحفتُ معك». فقال أبو جهل: «إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ، وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لقوّة، ولا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع العرب بذلك»[(١)].

وربما كان هذا ما توحي به الآية من أخلاق هؤلاء الذين ينطلقون من موقع البطر والرياء والصدِّ عن سبيل الله. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فكيف يواجهون حساب المسؤولية غداً بين يدي الله، وهو المهيمن على ذلك كله؟!.

* * *

الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ثم يتبرأ منهم

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ في ما وسوس لهم من أفكار ومشاعر وأهداف، فانحرف بهم عن الاتجاه الصحيح، فالتبس عليهم الباطل بالحق، والخير بالشر، والحسن بالقبيح، فزيّن لهم أعمالهم الشريرة، وصوّر لهم أنهم في موقع القوة المطلقة التي لا تغلب. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

---

(١) راجع: مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٤٣.

لأنكم تملكون من العدد والعدّة ما لا يملكون. فهم في موقع الضعف، وأنتم في موقع القوّة، فلا تخافوا من الهزيمة. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أجيركم من كل سوء، وأمنحكم القوّة عند الضعف، وأثبتكم عند الاهتزاز.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ ووقفتا في موقف المجابهة الحاسم، وظهرت الغلبة للمسلمين على المشركين، وبرز الإمداد الإلهي في أكثر من مظهر، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ورجع القهقرى منهزماً في عمليةٍ تراجعيةٍ واضحةٍ، وفي حركة هروب من المسؤولية؛ وتخلّى عن كل وعوده. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ فليست لي علاقة بكم من قريب أو بعيد، لأن المسألة بالغة التعقيد، لما تحمله من نتائج المسؤولية. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ مما يوحي بالهول والرعب والفزع والهزيمة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ في عقابه وعذابه. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقد تحدثت الروايات الواردة في أسباب النزول عن تمثّل الشيطان بصورة شخصٍ يدعى سراقة، وعن حديثه مع قريش في المعركة، بالطريقة التي تحدّثت بها الآية، في ما وعدهم به في البداية وما خوّفهم منه في النهاية. وقد أنكرها بعض المفسرين لضعف أسانيد الرواية، وحمل الآية على التصور الشيطاني الذي كان يسيطر على قريش في ما كان يوسوس لهم من الإحساس بالعظمة والزهو والكبرياء، والشعور بالقوة المطلقة التي لا غالب لها... ثم تتابعت الأحداث لتقلب الوضع رأساً على عقب، ولتواجههم بالهزيمة التي تتضاءل معها شياطينهم وما توسوس به وتدفع إليه، تماماً كما ورد في الآية الكريمة: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، فإنّ الظاهر ورودها مورد الحديث عن الطريقة الشيطانية في الإضلال، حتى إذا وقع الإنسان في الضلال، ابتعد عنه، وتركه يواجه المسؤولية بنفسه. وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وهكذا نجد هذه الآيات تتحرك في جوٍّ واحدٍ، وإن اختلفت أساليبه. وقد ناقشه بعض المفسرين، فاعتبروا أن ما دلّت عليه الروايات ليس بمستحيل، فلا مانع من أن يتمثل الشيطان بصورة رجلٍ ليتحدث مع الناس ويتحدّثوا معه من دون أن يبيّن لهم شخصيته. فإذا كان هذا الأمر ممكناً، فلا من بد أن يحمل ظاهر القرآن عليه، ولا مانع من ذلك على الأقلّ.

ولكننا نناقش الموضوع من ناحيةٍ أخرى غير ناحية الاستبعاد، لأنها لا تنهض حجةً على صرف الآية عن ظاهرها، وهي أن الآية توحي بأنّ دور الشيطان كان دور التشجيع وحشد القوة في داخلهم، لأنهم كانوا يعيشون حالةً من الخوف والضعف، ولهذا حاول تقويتهم بقوله: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليستريحوا إلى جواره وليأمنوا به. ولكن واقع المعركة الذي نعرفه من القرآن، ومن التاريخ، ومن طبيعة موازين القوى بين المسلمين والمشركين، يدلُّنا على أن المشركين كانوا لا يشكون ضعفاً في العدد والعدة، فما حاجتهم للتشجيع وللتقوية؟! ثم لو كان الذي تفرضه الرواية صحيحاً، فما دور سراقة، وما أهميته ليجير قريشاً، فتطمئن له وتعيش الأمن من خلاله، لأن الشيطان ـ في مضمون الرواية ـ لم يكشف لهم عن شخصيته؟! ونحن لا نجد جواباً على هذه التساؤلات. ثم ما معنى أن نفرض على القرآن تفاصيل معينةً على أساس رواياتٍ غير صحيحة، لعدم ثبوت وثاقتها؟! ولماذا هذا التساهل في تفسير القرآن، الذي يمثّل الحقيقة الفاصلة القاطعة، من خلال ظنونٍ لا تثبت أمام النقد العلمي؟! ولهذا فإننا نتفق مع الذين يستقربون ورود الآية مورد توضيح التصور الشيطانيّ، الذي يوحي للإنسان بالهلاك في صورة النصر، ثم يغيّر الصورة في عملية هروب وتراجعٍ؛ والله العالم.

* * *

قول المنافقين في نصر المسلمين وردّ الله عليهم

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من المنافقين على نحو عطف التفسير، أو الذين كانوا يعيشون أجواء الشكّ والريبة، من دون أن يتخذوا موقفاً واضحاً في السر والعلن: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ في أسلوب من أساليب التنديد بمسيرة المسلمين، وإقدامهم على خوض المعركة الذي قد يعتبرونه نوعاً من أنواع التهور؛ فيرجعون ذلك إلى أن دينهم الذي يؤمنون به هو الذي أوقعهم في الغرور، في ما وعدهم به من الدخول في الجنّة والحصول على ثواب الله في الآخرة، مما يجعلهم لا يقدّرون العواقب في ما تتمخّض عنه نتائج الأشياء؛ ولكنّ الله يرد على هذه الفكرة بأن هؤلاء قد أعدّوا أنفسهم إعداداً جيداً، ثم واجهوا المعركة بروحٍ واثقةٍ بالنصر من خلال الثقة بالله والتوكّل عليه. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ لا يُغلب في عزته في ما يريد أن يقضي من قضاء، ولا يُنتقص من حكمته في ما يريد أن يخطط من أمور.

●□●□●

الآيـــات

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا
نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ
ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ
ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يَتَوَفَّى﴾: التوفّي أخذ الحقّ بتمامه. ويستعمل في كلامه، تعالى، كثيراً بمعنى قبض الروح.

﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾: ظهورهم.

﴿كَدَأْبِ﴾: الدأب والديدن: العادة، وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان، والطريقة التي يسلكها.

* * *

حالة قبض الملائكة لأرواح الكافرين

ويصور لنا الله حالة قبض الملائكة لأرواح الكافرين وما يتمثل فيها من عنف وإهانةٍ وتحقير. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في بدرٍ وفي غير بدر، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ فيحيطون بهم من خلفهم ومن قدّامهم بالضرب، كنايةً عن السخط الذي يشعرون به ضدّهم في كفرهم بالله وتمرّدهم عليه. ويقولون لهم، وهم يدفعونهم إلى النار ليواجهوا عذابها: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الذي يحرق أجسادكم، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من أعمال شريرة، ومن اختيارات فاسدةٍ، ومن كفرٍ وضلالٍ وكبرياء... ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يعاقبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم، في ما يقدّم لهم من براهين، وما يمكّنهم به من قوى. وتلك هي سنته في خلقه الذين يكفرون به ويتمرّدون عليه في الماضي والحاضر.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فقد كان ديدنهم وطريقتهم أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، واستمرّوا في خط الكفر والضلال والإضلال يتعمقون فيه ويمتدون... ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي جنوها واكتسبوها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فكيف يأمن عقابه الكافرون والمتمردون؟!

* * *

تغيير النعم خاضع للسلوك العملي للناس

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وتلك هي

سنّة الله في عباده، فإن نعم الله التي ينزلها على عباده، في ما تقتضيه رحمته وحكمته، لا تتغير ولا تتبدّل ما دامت النيات خالصةً، والخطوات مستقيمة على النهج الذي يحبه الله ويرضاه، فلا ينزل عذابه في الدنيا، ولا عقابه في الآخرة، إلا بعد أن يغيروا ما بأنفسهم، في ما يواجهون به الأنبياء والدعاة إلى الله من جحودٍ وكفرانٍ وتمرّدٍ وعصيانٍ، وما يفسدون به الحياة بعد إصلاحها، ولذلك فإن الأمم السابقة لم تتعرض للعذاب أو للبلاء، إلاّ بعد وصولها إلى المدى الذي يمثل الخطورة على مسيرة الإيمان والمؤمنين في ما يواجهونه من التحديات والتعديات في هذا المجال.

وهكذا نستطيع أن نعرف أن تغيير النعم وزوالها خاضعٌ للسلوك العملي للناس، في ما يفعلون ويتركون. فإذا أرادوا بقاء النعمة، فعليهم الاستمرار في الانفتاح على الله وفي الإخلاص له ولعباده، لأن ذلك هو السبيل الذي تتحرك فيه النعم في حياتهم. ولكن ليس معنى ذلك أن هناك حتميّةً في تغيير الواقع عند تغيير النيّات والأعمال، فقد تقتضي حكمة الله أن يبقي لبعض عباده نعمتهم، مع اختلاف نواياهم وأعمالهم، لأن هناك جانباً آخر يفرض بقاءها واستمرارها. وتلك هي أسرار الله في خلقه، لا يعلمها إلا هو. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع كل شيء ويعلم بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وكانوا يتقلّبون في نعم الله، في ما يملكونه من ثروات وإمكانياتٍ، وما يتقلبون به من رخاءٍ وجاهٍ وسلطان، ولكنهم لم يشكروا الله على ذلك، عندما أرسل رسوله موسى بآياته ليخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، فتمرّدوا واستكبروا وكذبوا بآيات الله. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾. سواء كانوا في مواقع المسؤولية فأضلوا وضلوا، أو كانوا في القاعدة فظلموا أنفسهم باتّباع الظالمين والمستكبرين، ولم يستجيبوا لرب العالمين.

● □ ● □ ●

الآيـــات

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا
تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ
مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: الدابة: كل ما دبّ على وجه الأرض، ثم غلب استعماله في ذوات الأربع.

﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾: تظفر بهم وتدركهم بسرعة.

﴿فَشَرِّدۡ بِهِم﴾: التشريد: الإبعاد والتفريق على اضطراب.

﴿فَٱنۢبِذۡ﴾: النبذ: الطرح. ويُقال: إلقاء الخبر إلى من لا يعلمه.

* * *

الثابتون على الكفر شر الدواب

في هذه الآيات، وما بعدها، حديثٌ يتنوّع في قضايا علاقات المسلمين مع الكافرين الذي يقاتلونهم أو الذين يعاهدونهم ثم ينقضون عهدهم... وكيف تكون أوضاع الحرب والسلم في هذا الجو المتقلّب المضطرب. وهذا ما نتابعه في الآيات التالية.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، لأنهم لا ينطلقون من قاعدةٍ إيمانيّةٍ ثابتةٍ تتصل بالله، وتنطلق في حركاتها وعلاقاتها من خلاله، وبذلك يشعرون بمسؤولياتهم عن الحياة وعن الإنسان، فيحترمون كل المواثيق والالتزامات التي تتعلق بالخير والعدل والسلام، وتلك هي مشكلة الكفر، في ما يوحي به للإنسان من التحرر من كل قيدٍ من قيود المسؤولية. ولهذا فإنّ الكافرين يتحوّلون من موقعٍ إلى موقعٍ، ويتهربون من كل عهد، ليعطوا بعد ذلك عهداً آخر... وهكذا يخلقون للحياة القلق والارتباك. ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بالله وبرسله وباليوم الآخر، ليلجأوا من ذلك إلى ركنٍ وثيق، مما جعلهم شرّ الموجودات التي تتحرك في الكون وتدب على الأرض التي لا تسيء إلى سلامة الحياة ولا تشوّه وجهها، بل تتجه إلى الغاية التي أرادها الله لها في نطاق قوانينه الطبيعية، بينما نجد الكافرين يخرّبون الحياة وينحرفون بها عن الصراط المستقيم، بالتمرد على خالقهم وإنكار وجوده أو جعل الشركاء من دونه.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ لأنهم لا يرون في العهد التزاماً داخلياً عميقاً مقدّساً، بل يرون فيه مجرّد فرصةٍ ينتهزونها للخروج من مأزقٍ طارىء وضغط عنيف، أو يعتبرونه دوراً يمثلونه ليجلبوا لأنفسهم نفعاً، أو ليدفعوا عنها ضُرّاً. فهم يلعبون بالكلمات تماماً كأيّة لعبة أخرى، ولهذا فإنهم لا يجدون أي حرجٍ في الرجوع عنه أو نقضه، لأن القضية ـ في مثل هذه الأمور ـ هي قضية الضغط الخارجي، أو الوازع الداخلي، فإذا ابتعد

الأول لفقدان الظروف التي تمثل عنصر الضغط، كان الثاني هو الضمانة الباقية للالتزام. ولكنه ينطلق ــ في الأغلب ــ من الإيمان بالله. فإذا فقد الإنسان ذلك، فقد كل شيء في هذا الاتجاه. وهذا ما أشارت إليه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ في ما تمثّله من مراقبةٍ داخلية لله في كل الأمور، وانضباطٍ عملي على هذا الأساس.. وربما كان المقصود بهؤلاء اليهود ـ كما جاء في بعض الروايات ـ وربما أُريد به غيرهم.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ أي إذا ظفرت بهم في الحرب، فشدد عليهم بمختلف الضغوط النفسية والعسكرية، من أجل أن يكونوا عبرةً لمن وراءهم من جماعتهم، أو من الناس الذين يسيرون في هذا الاتجاه. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي فرقهم بما تثيره في قلوبهم من الرعب، فتنحلّ عزائمهم ويبتعدون عن خط المواجهة، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويعرفون النتائج السيئة المترتبة على نقض العهد على جميع المستويات، ليتراجعوا عن غيّهم وضلالهم وانحرافهم عن الخط الصحيح.

* * *

الوفاء بالعهد هو الأصل

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وذلك بظهور علامات الخيانة للمواثيق، بما يصدر منهم من أقوال وتحركاتٍ توحي بوجود خطةٍ جديدة للتمرّد والعدوان، ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي ألق إليهم عهدهم، لأنهم بدأوا بذلك في ما تحركوا به ضدّك، مما يُعتبر مخالفةً للعهد ونقضاً له، الأمر الذي يجعلك في حلٍّ من عهدك ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على أساس العدل والمعاملة بالمثل، وذلك ما يوحي به الإسلام في شريعة العهد مع الآخرين. فالوفاء بالعهد هو الأصل والأساس، فإذا بدرت الخيانة منهم كان وليّ الأمر في حلٍّ

من عهده، فينذرهم بإلغاء العهد ليكونوا على بيّنةٍ من أمرهم، ويبدأ التصرف معهم بما يناسب المقام، لأنهم خانوا الله ورسوله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لأن هؤلاء لا يمثّلون التوازن الروحي والعملي الذي تقوم عليه الحياة وتتحرك به في الاتجاه السليم. وفي هذا إيحاءٌ للمؤمنين بأن عليهم أن يعيشوا في داخلهم الرفض النفسي والعاطفي للخائنين، لأن مشاعرهم لا بد من أن تكون منسجمةً مع الخط الإلهي المحدد للخط الشعوري لحركة الإنسان في الحياة؛ فيحبون من يحبهم الله، لأن الله لا يحب إلا الطيبين المخلصين؛ ويبغضون من يبغضهم الله، لأنه لا يبغض إلا المنحرفين الخائنين... وبذلك لا يعيش المؤمن الازدواجية بين قناعاته ومشاعره، كما يعيش ذلك بعض الناس عندما تتجه مشاعرهم في غير اتجاه قناعاتهم، لأن المؤمن يمثل الوحدة في الفكر والعاطفة والحياة.

* * *

المؤمن عينه دائماً على المستقبل

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ وهناك قراءةٌ معروفةٌ بالتاء، أي: ولا تحسبن يا محمد أن الذين كفروا سبقوا، أي لا تخف من قوتهم وتقدمهم في بعض المراحل أو المعارك. ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله فسيدركهم أينما ذهبوا، لأنه على كل شيء قدير. ولهذا فإن على المؤمنين مواصلة مسيرتهم على أساس النفس الطويل الذي لا يربط النتائج الحاسمة بالمرحلة، بل يعمل على التطلع إلى النتائج في حسابات الأهداف البعيدة. وسيجدون من خلال هذه النظرة، أن الظروف التي توحي بالضعف والهزيمة الآن، قد لا تكون كذلك في مستقبل المعركة، فقد يحمل المستقبل بعض الفرص التي تفتح باب النصر على مصراعيه ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

● □ ● □ ●

الآيـات

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن
جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن
يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ
بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: الخيل المرابطة أو المربوطة: الجاهزة للتحرك.

﴿تُرْهِبُونَ﴾: تخيفون وتقلقون.

﴿جَنَحُواْ﴾: مالوا.

﴿لِلسَّلْمِ﴾: السلم: بفتح السين وكسرها، الصلح.

* * *

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ لا بد للحق من قوّةٍ في مواجهة التحديات المضادة، لردع القوى المعادية التي تمنع الحق من ممارسة حريته في الدعوة إلى الإيمان به وبقضاياه، أو تعمل على تحطيم قوّته وتهديم أركانه، لأن أسلوب الرفق والحوار لا ينفع مع الذين لا يؤمنون بهذا الأسلوب، بل يعتبرون العنف القائم على القهر والضغط الماديّ أساساً للسيطرة على الآخرين. ولذلك أراد الله للمؤمنين أن يقوموا بعمليّة إعداد القوة العسكرية بكل ما يملكون من إمكاناتٍ وقدرات مادّية، فليس لهم أن يدّخروا جهداً في هذا السبيل، لأن ذلك هو القاعدة الصلبة التي ترتكز عليها القوة المستقبلة الواثقة بالتماسك والنصر والامتداد، القادرة على ردّ التحدّي بالتحدي المماثل، أو بالأقوى منه...

وإذا كانت القوّة العسكرية في الماضي تتمثل في ما تعارف عليه الناس من أدوات القتال، من السيف والسهم والرمح والدرع، فإن العصور المتأخرة قد استحدثت وسائل أخرى كالبندقية والمدفع والرشاش والدبابة ونحوها، فلا بدّ لنا من أن نحصل على ذلك كله، إذ لا معنى لأن نتحدث عن الوسائل القديمة التي استنفدت أمام الوسائل الجديدة للحرب، ولكن لا بد للقرآن من أن يتحدث للناس بالطريقة التي يفهمونها، وبالأشياء التي يعيشونها، لأنهم المخاطبون بها في البداية، ولهذا عقّب الله ذلك بقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾

باعتبار أنها كانت المظهر للقوة العسكرية المتحركة آنذاك. ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾. وبذلك كان الإعداد للقوة تدبيراً وقائياً يرهب العدو، فيمنعه ذلك من العدوان، ويدفعه إلى الدخول في معاهدات ومواثيق مع المسلمين، أو يجعله خاضعاً للسيطرة الإسلامية، أو يوحي له بالدخول في الإسلام...

وهكذا تكون القوة الكبيرة البارزة سبيلاً من سبل ردع العدو ومنع الحرب، مما يجعل منها ضرورةً سياسيةً وعسكريةً معاً، فيفرض على القائمين على شؤون المسلمين أن لا ينتظروا حالة إعلان الحرب ليستعدوا، بل لا بد لهم من الاستعداد الدائم في كل وقتٍ، وذلك تبعاً للظروف الموضوعية المحيطة بالواقع السياسي والعسكري الموجود من حولهم، من أجل إرهاب عدوّ الله وعدو المسلمين.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ أي ممّن هم أقل منهم درجةً في القوة أو في العداوة، أو من غيرهم، ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ لأنكم لا تحيطون بالساحة كلها في ما تختزن من عداواتٍ وتحدياتٍ في الحاضر والمستقبل، ممن يحيط بالمسلمين في أكثر من موقع، ولكن ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ فيوحي إليكم بضرورة الإعداد الدائم المتحرك، الذي يرصد تصاعد القوة العسكرية للآخرين، والاكتشافات الجديدة لأنواع السلاح التي قد تتغيّر في كل يوم، بحيث تصبح الأسلحة القديمة غير ذات فائدةٍ، مما يفرض تبديلها دائماً بشكل متحرك. وربما يفرض ذلك الإعداد لإنتاج السلاح، لأن مشكلة وجود مصانع الأسلحة في أي بلدٍ آخر غير إسلاميٍّ يفرض كثيراً من الضغوط السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية على البلد المستورد له، ويجعل نتائج الحرب خاضعةً للسياسة التي يسير عليها البلد المنتج. وهذا ما نلاحظه في العصور المتأخرة التي تحوّل فيها السلاح من تجارةٍ حرةٍ، إلى تجارةٍ موجهةٍ تابعةٍ للموقف السياسي الذي قد يتحرك من أجل الابتزاز السياسي للبلد المستورد، بفرض شروطه الخاصة.

* * *

ضرورة توفير مقوّمات القوة على كلِّ صعيد

وإذا كان جوّ الآية يوحي بوجوب الاستعداد للحصول على القوّة العسكرية، فإننا نستوحي منها ضرورة الإعداد للقوة من نوعٍ آخر، مما تحتاجه الأمة في تطورها العلمي والاجتماعي والاقتصادي في موقعها السياسي بين الأمم الأخرى، لأن ذلك يحقق لها الاكتفاء الذاتي أو التفوق الواقعي، الذي يفسح لها المجال للتحرك بقوة من موقع استغنائها عن الآخرين، أو من موقع حاجة الآخرين إليها، فنستطيع بذلك أن نتخلّص من الضغوط التي تقيد حريتها في الحركة، أو تفرض الضغوط التي تحتاجها في علاقاتها بالآخرين، وهذا ما يُلزم الأمة ـ بجميع أفرادها ـ أن تستنفر كل طاقاتها في سبيل الوصول إلى المستوى المتقدم في كل المجالات التي تُمثِّل أساس القوة في الحياة، ولتتخلص من كل نقاط الضعف المفروضة عليها من الداخل والخارج، فذلك هو السبيل الأفضل لانطلاقة الإسلام بقوّةٍ في حياة الناس في عالمٍ لا يفهم إلا بلغة القوة. فالحق الذي لا يستند إلى القوة لا يرتكز على أساسٍ ثابتٍ متين.

وإذا كان الوصول إلى هذا المستوى من القوة يحتاج إلى الكثير من المال، فإن على الأمة أن تساهم في ذلك على جميع المستويات، وأن تعتبر ذلك إنفاقاً في سبيل الله، لأن رفع المستوى العلمي والعسكري والاقتصادي للأمة هو من أفضل السبل العملية التي تؤدي إلى تدعيم الحق وتفتح طريق الانتصار في المعركة الطويلة ضد الكفر والكافرين... وقد أراد الله أن يوحي للمؤمنين بأنه سيعوضهم عما أنفقوه في هذا السبيل في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فتأخذونه وافياً غير منقوص، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بل تجدون العدل كله، والخير كله، والرحمة الواسعة التي تفتح لكم أبواب الحياة على آفاق الفلاح والنجاح.

* * *

السلام للمسالمين

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ إذا مالوا للسلام وأقبلوا عليه، وأبدوا كل الاستعداد للعيش بسلام مع المؤمنين في نطاق المعاهدات والمواثيق، فلا ترفض ذلك، بل حاول أن تستجيب له، وتؤكد رغبتك فيه لتعرِّفهم بأن الحرب في الإسلام لا تنطلق من عقدةٍ، بل من قاعدةٍ فكرية على مستوى مصلحة الإنسان والحياة، فتكون الحرب سبيلاً لإعادة التوازن إلى الساحة لمصلحة الخير، وعندما تقف قوة الكفر لتمنع الإيمان من ممارسة حريته في الدعوة إلى الله، فتكون الحرب هي الطريق التي يسلكها المؤمنون لاستعادة حريتها... وهكذا في كل موقف من مواقف الظالمين والمستكبرين الذين يريدون أن يقهروا الضعفاء بظلمهم، ويذلُّوهم باستكبارهم.

أما إذا أراد الآخرون أن يفتحوا صفحة جديدةً للسلم، ويفسحوا المجال للحوار مع المسلمين، ليكون هو الوسيلة الفضلى للصراع على مستوى الفكر، أو على مستوى الواقع، فإن الإسلام يفتح ساحته للحوار، وآفاقه للسلام، ولكن لا بد من دراسة الظروف والشروط والمعطيات على أساس الحاضر والمستقبل، لئلا تكون المسألة مسألة استغفالٍ وخديعةٍ، تتخذ من السلام ستاراً تختفي خلفه، وتستعد من خلاله لهجمةٍ مستقبليّةٍ قويّةٍ، تستفيد من فرص السلام لمصلحة الحرب. فإذا أعد وليّ الأمر العدة لذلك كله، فإن له أن يطمئن لما فعل، على أساس وضوح الرؤية، ولا يلقي بالاً للتهاويل ولاحتمالات الخوف التي قد تثور في النفس، لتثير القلق والارتباك في المسيرة، بل لا بد من التوكل على الله أمام كل تهاويل الغيب الذي لا يعلمه إلا الله... وهذا هو خط التوكّل الذي يرتكز على دراسة كل ظروف الواقع ومعطياته، وكل شروط العمل ومقتضياته، وكل الوسائل الواقعية للوصول إلى

الأهداف... ثم يستقبل الغيب بروحٍ واثقةٍ بالله، متوكلةٍ عليه، مطمئنةٍ لرحمته التي ينشرها على عباده، الذين يأخذون بتعاليمه ويسيرون على هدى سننه في الكون، في ربط النتائج بمقدّماتها، والمسبّبات بأسبابها... وهذا ما أراده لرسوله في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فإنه لا يخذل من توكّل عليه، وسلّم أمره له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يسمع دعوات عباده في ما يحتاجون إليه، ويعلم أوضاعهم في ما يحيطهم به من لطفه ورحمته...

* * *

الله يحمي النبي من كيد الكافرين

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بالأساليب الملتوية والمظاهر الخادعة، ليقوموا بعملية تحضيرٍ لهجوم مفاجىءٍ، يستغلّون فيه حالة الاسترخاء التي يوحي بها السلم، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ الذي يحميك من كل المفاجآت غير المحسوبة في المستقبل، كما حماك في الماضي، على أساس أن تستكمل كل الحسابات لكل ما يحيط بك ولما يطرأ عليك، مما تستطيع أن تتعرف أبعاده. فلا تخف من كل ما يواجهونك به من أساليب الخداع، فإن الله يكفيك منها، وتذكر لطف الله بك ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾، في ما أمدّك به من قوة، وهيّأه لك من أسباب، ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا بك واتبعوك، وواجهوا التحديات الصعبة معك، وجاهدوا في سبيل الله بقيادتك، واجتمعت قلوبهم على الإخلاص لك، وتناسوا كل خلافات ماضيهم، وكل أحقاد تاريخهم المليء بالحروب والمنازعات... فقد كان ذلك كله بلطفٍ من الله عليك، وتأييدٍ لك.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ في ما أودعه فيها من عناصر المودة والرحمة

والشعور بالمسؤولية الإنسانية الروحية، على أساس الإيمان النابض بالمحبة والحياة، حتى تحوّلت كل تلك المجموعات المتنافرة في ذاتها، المختلفة في طبيعتها، إلى وحدةٍ روحية إيمانية، تماماً كما عبر الله عنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وكما قال عنهم رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى»[1]... وتلك هي الإلفة التي يرعاها الله برعايته، ويشملها بلطفه، فإنها تنمو من خلال الينابيع الروحية التي تتفجّر في الفكر والشعور حتى تتحول ـ في القلب وفي الروح ـ إلى نهرٍ كبير يمتد في حياة المؤمنين جميعاً في نطاق المجتمع المؤمن المتكامل الواحد...

* * *

الله هو المؤلّف بين القلوب

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن المال لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الروح وآفاق الشعور، إلا إذا تحول إلى حالةٍ حميمة، تحمل في داخلها بعضاً من نبضات الشعور وخفقات العاطفة، ليتحوّل المال إلى معنًى يتمثل في العطاء، في البعد الإنساني الذي يحترم في الإنسان إنسانيته، ويوحي إليه بالمعاني الحلوة المشرقة، وعند ذلك يفقد العنصر المادي ليتحول إلى عنصرٍ روحيٍّ. أما المال الذي يتحرك في العلاقات كثمن لها، تماماً كما هي السلع المعروضة في السوق، فإنه قد يعطي صاحبه موقعاً متقدماً في حركة الواقع، وقد يحصل على بعض الامتداد في آفاق الربح، ولكنه لن يستطيع أن يمنحه قلباً وروحاً وحياة ووحدة شعور، ولذلك

---

(١) البحار، م: ٢٠، ج: ٥٨، ص: ٩١ ـ ٩٢، باب: ٤٣. رواية: ٢٩.

لم يستطع المال أن يحقق إنسانية العلاقة بين الأغنياء والفقراء، أو بين الحاكمين والمحكومين، ولكن الفكر والإيمان والخير استطاعت أن توحّد القلوب، وتقارب بين المواقف. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، لأن بيده أسرار القلوب، وخفايا النفوس، وأعماق الأرواح، يقلّبها كيف يشاء ويحوّلها كما يريد. ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فلا يغلب في عزته، ولا يُعارض في حكمته، فمن إرادته تكون الأشياء، ومن حكمته تأخذ طريقها إلى مواقع الهدى والنجاح.

●□●□●

الآيــات

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ
اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿اتَّبَعَكَ﴾: الاتباع: موافقة الدّاعي في ما يدعو إليه من أجل دعائه.

﴿حَرِّضِ﴾: التحريض والحضّ والحثّ بمعنى، وهو الترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة إليه.

﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفقه: أبلغ وأغزر من الفهم.

﴿خَفَّفَ﴾: رفع المشقّة.

﴿ضَعۡفٗاۚ﴾: الضعف بكسر الضاد من المضاعفة، أي زيادة الشيء مثله في المقدار، وبفتحها وضمها ضد القوة المادية والمعنوية وقيل: الضم يختصّ بضعف العقل.

* * *

مناسبة النزول

في تفسير الميزان نقلاً عن تفسير القمّي قال: «قال: كان الحكم في أوّل النبوّة في أصحاب رسول الله ﷺ أن الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار، فإن هرب منهم، فهو الفار من الزحف، والمائة يقاتلون ألفاً.

ثم علم الله أن فيهم ضعفاً لا يقدرون على ذلك فأنزل الله: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ ففرض عليهم أن يقاتل أقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار. فإن فرّ منهما فهو الفارّ من الزحف. وإن كانوا ثلاثة من الكفّار وواحداً من المسلمين، ففرّ المسلم منهم، فليس هو الفارّ من الزحف»[(١)].

* * *

الله هو كافي النبي من كل سوء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ فهو كافيك من كل أحدٍ، فلا تحتاج معه إلى

---

(١) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ١٣٥ ـ ١٣٦.

أحدٍ من الناس، ولا تخاف من أيِّ شيء ومن أي إنسان. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم معك في رسالتك وفي جهادك، وهم القاعدة الصلبة القوية التي تتحرك من خلالها في طريق الدعوة والفتح، فليذهب الكافرون أو ليقفوا ضدك، فلن يستطيعوا أن يقدِّموا أو يؤخِّروا شيئاً في الساحة. وقد قيل إن المعنى يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين من كل سوء، فلا تخافوا من الاندفاع في المعركة، لأن الله سوف ينجيكم من كل الأعداء. وهو قريبٌ من خلال جوّ الآيات، ولكن الأول أقرب من خلال نظم الآية؛ والله العالم.

* * *

تحريض المؤمنين على القتال والصبر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ فإن المعركة الفاصلة بين الإيمان والشرك تفرض تقوية الموقف، وشدَّ العزيمة، وشحذ الهمم، ولا بدّ للنبي من أن يقوم بدور فاعل في حثّ المؤمنين على القتال، لا سيما مع القوة القليلة عدداً وعدةً التي يملكها المسلمون في مقابل كثرة العدد والعدة لدى المشركين. وقد أراد الله لنبيّه أن يدعوهم للصبر الذي يدفعهم إلى مواجهة الآلام والمشاكل والتحديات التي تفرضها المعركة، بروحٍ قويّةٍ راضيةٍ مطمئنةٍ فرِحةٍ بالجهد الذي تقدمه أمام الله، ليستنفروا كل طاقاتهم، ويحوِّلوها إلى طاقةٍ واحدةٍ مضاعفةٍ، بحيث يتحركُ الواحد منهم في مقابل عشرة رجال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾. ولا بد في ذلك من جهدٍ عظيم في المعاناة، وفي الاستعداد النفسي الداخلي المنطلق من وعي الإيمان، وقوة الثقة بالله وبما عنده من الثواب، مما يجعل الإنسان يقابل الموت بدون اكتراث، ويجابه الأعداء بكل قوة.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

﴿يَفْقَهُونَ﴾ ولا يعقلون الأسس التي يرتكز عليها النجاح في الدنيا والآخرة، ولا يعرفون أنّ هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله لا ينفعونهم شيئاً لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعون عنها ضرّاً... ومن خلال ذلك، فهم لا يحملون عمق الفكرة التي تهزُّ وجدانهم وتطهّر مشاعرهم، وتثير في داخلهم الامتداد في حركة الحياة أمام قضية المصير، ولذا فإنهم لا يملكون روح الثبات في المعركة، لأنهم لا يرتبطون بالهدف الحقيقي الذي يبدأ من موقع الفكر والروح ليمتد في ساحة المعركة، ممَّا يجعلهم لا يملكون أساساً للقوة، كما يجعل هذه الدعوة الإلّهية ـ في ما يريده من مستوى المواجهة ـ دعوةً واقعية تتحرك في دائرة الإمكانات المعقولة للمؤمن القويِّ الواعي في صبره، الصابر في كل تطلّعاته ومواقفه... وربما كان هذا التفصيل في ذكر العشرين في مقابل المائتين، وفي ذكر المائة في مقابل الألف، للتأكيد عليهم في أن عددهم ـ في معركة بدر ـ الذي يبلغ الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً، يتفوق في القوة الصابرة، على عدد الألف الذي يبلغه جيش قريش، لأنه سيتحول إلى أكثر من ثلاثة آلاف رجل يقابلون ألف رجل؛ والله العالم.

* * *

التدرج في رفع المستوى الروحي لدى المؤمنين

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ من خلال التجربة الأولى التي تمارسونها في أول معركة مع قريش، ومن خلال الوسائل المحدودة التي تملكونها في حساب القوّة المادية، بالإضافة إلى نقاط الضعف الذاتية المتحكّمة في واقعكم الداخلي، وغير ذلك مما يفرض التدرُّج في رفع المستوى الروحي لدى المؤمنين، لأن حيويّة الصبر لا تنمو ولا تتعاظم إلا في نطاق الظروف الموضوعية الذاتية المنسجمة مع الواقع الداخلي من الوعي

والفكر والإرادة، الذي يتطور بطريقةٍ تدريجيّة. ولهذا أراد الله ـ في البداية ـ أن يطرح الفكرة في نداء الدعوة النبوية على أساس المستوى الأعلى في عملية إيحائيةٍ في ما ينتظره منهم من قوة الموقف مما يمكن أن يصلوا إليه ـ ولو بعد حين ـ ثم أعطاهم الفرصة في تخفيف المستوى المطلوب، لتكون بدايةً طبيعيةً للنمو في حركة تصعيد القوة في الداخل وفي خط المواجهة، بحيث يكون المؤمن الواحد في مواجهة اثنين من الكافرين، من خلال عامل الصبر الذي يشتد، فيشدّ عزيمة الإنسان في الاندفاع في حركة المعركة. ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته وعنايته. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الثابتين على مواقعهم بالثبات في مواقفهم، وبالإصرار على قضيتهم حتى بلوغ الأهداف الكبيرة.

●□●□●

الآيـــات

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ
عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ
لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى
قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن
يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَسْرَىٰ﴾: جمع أسير. الأسر: الشدّ على المحارب وأخذه.

﴿يُثْخِنَ﴾: الثخن ـ بالكسر فالفتح ـ الغلظ، ومنه قولهم: أثخنته الجراح وأثخنة المرض. قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه، ومنه استعير قولهم: أثخنته

ضرباً واستخفافاً، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤][1]، فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعدما كان رقيقاً سائلاً مخشيّ الزوال بالسيلان[2].

﴿عَرَضَ﴾: العرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال، ولذلك سمي به متاع الدنيا لدثوره وزواله عما قليل.

﴿حَلَٰلًا﴾: الحلال: وصف من الحل مقابل العقد والحرمة، كأن الشيء الحلال كان معقوداً عليه محروماً منه فحل بعد ذلك.

﴿طَيِّبًا﴾: هو الملائم للطبع.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾: لأصابكم.

* * *

مناسبة النزول

جاء في مجمع البيان: «كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم علي بن أبي طالب عليه السلام سبعة وعشرين. وكان الأسرى أيضاً سبعين ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، فجمعوا الأسارى، وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم. وقتل من أصحاب رسول الله تسعة رجال منهم سعد بن خيثمة. وكان من النقباء من الأوس. وعن محمد بن إسحاق قال: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار، وقيل ثمانية، وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً. وعن ابن

(١) مفردات الراغب، ص: ٧٥.

(٢) تفسير الميزان، ج: ٩، ص: ١٣٧.

عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق، بات ساهراً أول الليلة، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام؟ فقال ﷺ: سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله ﷺ. وروى عبيدة السلماني عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر في أسارى: إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدتهم. وكانت الأسارى سبعين، فقالوا: بل نأخذ الفداء فنستمتع به، ونتقوى به على عدونا، وليستشهد منا بعدتهم. قال عبيدة: طلبوا الخيرتين كلتيهما، فقتل منهم يوم أُحد سبعون. وفي كتاب علي بن إبراهيم: لما قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك، أتجذّ أصلهم[1]، فخذ يا رسول الله منهم الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش، فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾»[2].

❋ ❋ ❋

القرآن يثير مسألة الأسرى في بدر

لقد جاءت هذه الآيات لتثير قضية الأسرى في معركة بدر، من حيث المبدأ في شرعية ما قام به المسلمون من أسر المشركين من أجل الحصول على الفدية، في الوقت الذي كان الهدف من المعركة هو تحطيم قوة الشرك؛ ثم لتتحدث عن بعض التفاصيل الفرعية في الحديث عن الأسرى.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. هذا تنديدٌ من الله بالمسلمين الذين قاتلوا في بدر، وما قاموا به من أسر الكثيرين من

(١) جذّه: قطعه مستأصلاً.

(٢) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٥٨ ـ ٨٥٩.

المشركين، وعدم اللجوء إلى قتلهم في المعركة، وذلك من أجل الحصول على الفداء، ليستفيدوا به في تقوية أنفسهم مالياً. وتلك نقطة ضعفٍ يسجلها الله عليهم في هذا الاتجاه، فإن المقاتل الذي يشعر بخطورة القوة الكبرى المهيمنة على شؤون الناس بالظلم والسيطرة، لا يعيش في المعركة هاجس النفع المادي، بقدر ما يعيش هاجس القضاء عليها، بالقضاء على كل رموزها لئلاّ تكون فتنة ويكون الدين لله... لا سيّما في المرحلة الصعبة التي خاض فيها المسلمون المعركة غير المتكافئة ضد قريش وانتصروا فيها، ممّا يفرض التفكير في إضعاف أيّة مبادرةٍ مستقبليةٍ لمعركةٍ جديدةٍ، في ما يمكن أن تفكر به قريش من هجومٍ جديد ثأراً لنفسها. ولكنها التجربة الأولى للمسلمين الذين كانوا يخوضون فيها معركة الوجود واللاوجود للإسلام. فخاضوها على الطريقة التي كانوا يخوضون فيها معاركهم الخاصة سابقاً، في قتل البعض، والإبقاء على البعض الآخر من أجل الفداء، فكانت هذه الآية تناقش المسألة من زاوية المصلحة الإسلامية العليا في حركة الأنبياء، فليس للنبي الداخل في معركةٍ من معارك الإيمان والكفر، أن يكون له أسرى، حتى يتمكن في الأرض ويستقر ويثبّت أقدامه، لينطلق ـ بعد ذلك ـ من موقع قوة، بعيداً عن إمكانات التحرّك المضاد من قِبَل الأعداء.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي يزول بسرعة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فهي التي ينبغي لهم أن يستهدفوها في معاركهم، تحقيقاً لمرضاة الله بتحقيق غاياته التي أقام عليها حركة المعركة، فإن المؤمن يريد ما يريده الله، ويحب ما يحبه، ويتجرد عن النوازع الذاتية والمنافع الشخصية... ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلا يُغلب في ما يريده، ولا يعبث في ما يشرّعه من أحكام وما يبيّنه من تعاليم... ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في عدم تعذيبكم وإهلاككم، لأنه أراد أن يفسح لكم المجال من أجل أن تتعمّقوا في المعرفة التي تفتح لكم باب التجربة الحية الواعية، التي تتعامل مع النتائج المستقبلية للأحداث بدلاً من النتائج

الحاضرة السريعة، ولولا ذلك اللطف الإلهي الذي شملكم بعفوه ورحمته، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الأسرى، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، لأن القضية تتعلق بالخطورة الكبيرة التي يمثلها هذا التصرف الخاطىء، في نتائجها السلبية على الموقف.

* * *

سؤالان تثيرهما الآية

وهنا سؤالان:

الأول: كيف يستحقّ هؤلاء العذاب العظيم في ما لم يتقدم إليهم فيه نهيٌ من الله؟ فان العقاب لا يصح عقلاً بدون بيان صادر من الله. فنحن نعرف أن القضية جديدة عليهم، فلم يتحدث التشريع إليهم بتحريم أخذ الأسرى؟!

والجواب عنه بأحد وجهين:

الأول: إن الآية واردةٌ في مقام الحديث عن عظمة الخطأ الذي يستوجب ـ بطبيعته ـ العذاب العظيم، لا في مقام التهديد لهم بالعذاب. وقد يكون رفع العذاب عنهم لوجود المانع فيه من جهة عدم البيان.

الثاني: إنهم قد يستحقّون العذاب لأنهم لا يملكون حرية التصرف في المعركة من دون استشارة النبي في ذلك بصفته القيادية، في ما يُصدر من أوامر ونواهٍ تتعلق بسير الحرب، وبصفته الرسالية في ما يبيّنه من تشريعات تتعلق بأحكام المقاتلين مع الأعداء في ساحة القتال، وليس لهم أن يعتذروا عن تصرفهم الخاطىء بالقاعدة العقلية بقبح العقاب من دون بيان، لأن موردها صورة ما بعد الفحص والسؤال وعدم الوصول إلى نتيجةٍ معه، لا صورة ما قبل السؤال مع التمكن منه، فإن التصرف المحرَّم في ذاته غير مبررٍ في هذا

المجال، فهم يستحقون العقاب في ما أخطأوا به، ولكن الله رفعه عنهم برحمته ولطفه.

السؤال الثاني: إن الآية ربما توحي بأنها موجهةٌ إلى النبي، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ فقد يستفاد منها أن الخطاب متوجهٌ إليه، للتنبيه بأن عليه أن يسلك سلوك الأنبياء من قبله في ما كانوا يخوضونه من معارك، لأنه ليس بدعاً من الأنبياء، وبذلك فليس له سنّةٌ غير سنّتهم. وإذا كان الأمر كذلك، فقد يتنافى هذا مع مبدأ العصمة في ما توحي به من مخالفةٍ للتعاليم الإلّهية بعد العلم، لأنه لا بد له من أن يكون على معرفةٍ بالمبدأ العام للحرب، مما قد بيّنه الله له، إذ لا يمكن أن ينطلق في حربٍ لا يعرف أحكامها؟!

والجواب عن ذلك، أنه لم يظهر من الآية أنَّ الخطاب موجّهٌ إلى النبي ﷺ، بل هو موجّهٌ للمقاتلين الذين أسروا المشركين طمعاً بالفداء. أمّا الحديث عن النبي في فقرة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾، فربما يكون من جهة أنه قائد المعركة الذي يتحرك الجيش باسمه، وينعكس وضع المعركة عليه، لأنها تُنسب إليه، مما يحمِّل المسلمين مسؤولية ما يقومون به من أعمالٍ وتصرفات غير مسؤولة، فكأنّ الله يريد أن يقول لهم: إذا لم يكن من سنّة الأنبياء أن يكون لهم أسرى في بدايات التحرك، فكيف تريدون للنبي أن يكون له ذلك؟! وهذا ما يظهر من جوِّ الآيات التي تتحدث عن المسلمين آنذاك، بأنهم يفكرون بالدنيا وبمتاعها أكثر مما يفكرون بالآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾. مما لا يتناسب مع روحية النبي ﷺ الذي جاء من أجل أن يقرب الناس من الآخرة ويبعدهم عن الدنيا.

* * *

الله يبيح للمسلمين ما أخذوا من غنائم

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقد عفا الله عنكم ورضي عليكم، وأباح لكم ما غنمتموه من الحلال الطيب مما حصلتم عليه من المعركة أو من الفداء، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ فيه وفي ما تستقبلون من أعمال، وما تحصلون عليه من أموال. . . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. في ما يفيضه عليكم من رحمته وغفرانه.

* * *

النظرة الرسالية للأسرى

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾. إن الإسلام لا ينظر إلى الأسرى نظرة القوي القاهر الذي يعتبرهم كميةً مهملة، أو مجرد شيءٍ يحقق للمسلمين الربح، بل ينظر إليهم نظرةً إنسانيةً رسالية. ولهذا فإن الله يريد للنبي أن يخاطبهم بروح الداعية الرسالي، الذي يحاول أن يفتح قلوبهم على الخير ليفكروا بالمستقبل من هذا الموقع، فيدخلوا مع أنفسهم في عملية تأمُّل ومحاسبةٍ في ما كانوا يسيرون فيه من طرق الضلال، وما يجب أن يواجهوه من مسؤولية الإيمان، ليقول لهم ـ بعد ذلك ـ ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ من الدخول في الإسلام، والإخلاص لله، والامتناع عن الأعمال العدوانية التي تسيء إلى الناس ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من المال، في ما يرزقكم من رزقه، ويشملكم به من عنايته. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم إذا تبتم منها، ورجعتم عن الخط المنحرف إلى الخط المستقيم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يغلق باب عفوه عمن تاب إليه، ولا يطرد من رحمته من التجأ إليه.

* * *

الله يطمئن نبيه لجهة خوفه من خيانة المشركين

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ في ما يضمرونه من الشر، وما يعدّونه من الخطط العدوانية للعودة إلى الحرب، ومقاومة المؤمنين، والاعتداء على الرسالة، فلا تخشَ من ذلك ولا تحمل له هماً، لأنهم لن يكونوا القوة التي لا تقهر، كما أنها ليست أوّل خيانةٍ لهم، فقد اعتادوها حتى سرت في دمائهم ومشاعرهم. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ وأقدرك عليهم، وهو قادرٌ على أن يهزمهم مرةً ثانية. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون ويخططون ﴿حَكِيمٌ﴾ في ما يدبر لهم من خططٍ مضادّةٍ تحبط كل ما صنعوه من قبل، وما يصنعونه بعد ذلك.

● □ ● □ ●

الآيــات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن
وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ
قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ
بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ
وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

* * *

معاني المفردات

﴿ءَاوَواْ﴾: الإيواء: ضمّ الإنسان غيره إليه بإنزاله عنده وتقريبه إليه.

﴿أَوْلِيَآءُ﴾؛ الولاية: عقد النصرة للموافقة في الديانة.

﴿فِتْنَةٌ﴾؛ الفتنة: أصلها في اللغة: الامتحان. وتستعمل في أشياء منها الكفر والشرك.

﴿كَرِيمٌ﴾: فاعل الكرم والجود والشرف العظيم.

* * *

مناسبة النزول

جاء في مجمع البيان: قيل نزلت الآية في الميراث، وكانوا يتوارثون بالهجرة، فجعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام. وكان الذي آمن ولم يهاجر ولم يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر. وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فنسخت هذه الآية وصار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين ولا يتوارث أهل ملّتين. عن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والسدي(١).

* * *

ضرورة موالاة المؤمنين والامتناع عن موالاة الكافرين

وهذه نهاية المطاف في سورة الأنفال التي كانت بدايتها في أجواء المؤمنين الذين يعيشون الإيمان كموقفٍ للفكر وللروح وللحياة... وجاءت نهايتها لتحدّد ملامح المؤمن ـ الموقف، في مواجهة الكافر ـ الموقف، ولتؤكد الولاية عند كل فريق على أساس الانسجام في الخط والعمل، ولتحدثنا

---

(١) مجمع البيان، ج: ٤، ص: ٨٦٢.

عن المؤمن الذي يعيش الإيمان فكراً ويتهرب من تحمل مسؤولية الموقف، لتؤكد أن لا ولاية بينه وبين المؤمنين الآخرين إلا في نطاقٍ محدودٍ جداً، ولتوحي ـ في نهاية المطاف ـ بأن الساحة جاهزة لاستقبال الطلائع الإيمانية التي تكمل المسيرة في المراحل القادمة، لتكون جزءاً من المسيرة الواحدة التي تتحرك في خطوط متصلة، من نقطة البداية إلى نقطة النهاية، من خلال الفكر الواحد، والخط الواحد، والهدف الواحد على أساس الإيمان بالله الواحد وبرسله وباليوم الآخر.

* * *

الله يقرر الولاية بين المهاجرين والأنصار من المؤمنين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ من مواقع الضعف إلى مواقع القوة، وتركوا كل ما يربطهم بالدنيا وراءهم ليستقبلوا الآخرة برسالية المؤمن الداعية المجاهد، الذي يبذل كل شيء من أجل الله. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلم يدّخروا جهداً ولا طاقةً، ولم يتركوا روحاً إلاّ ووجهوها في خط الجهاد في سبيل الله، لأن أملاكهم ووجودهم هي ملك لله... وهؤلاء هم الطليعة الأولى من المهاجرين مع رسول الله إلى المدينة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ رسول الله ﷺ والمؤمنين المهاجرين معه، وهم الأنصار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، لأن الإيمان بالله والجهاد في سبيله والنصرة لدينه، تمثل العلاقة الوثيقة التي تعلو وتفوق كل علاقةٍ أخرى، بما فيها علاقة القرابة من ناحية العمق والامتداد، ولهذا فإن لبعضهم البعض حق الولاية بالنصرة والمودّة والأمن، فلكل واحدٍ منهم أن يمنح الأمان لأيّ شخصٍ من الكفار، وعلى الآخرين أن ينفذوا ذلك. وهناك فريق آخر، وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا،

ممن لم يكونوا مستعدين للتضحية بشيءٍ من المال والأرض والنفس، فلم يتحول الإيمان عندهم إلى موقف، بل بقي لديهم مجرّد فكرٍ وشعور.

* * *

وجوب نصرة المؤمنين غير المهاجرين في حال الاستنصار

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فليس بينكم وبينهم علاقة، لأن الإيمان وحده غير كافٍ في تعميق العلاقة. ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ فيكونوا مع المهاجرين ويتساووا معهم في الولاية. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ على أعداء الإسلام الذين اضطهدوهم واعتدوا عليهم، ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لأنهم يملكون ولاية النصرة، فعلى المؤمن أن ينصر أخاه المؤمن على الكافرين المعتدين. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، لأن الميثاق بينكم وبينهم يمنع من الاعتداء عليهم حتى في هذه الحالة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فعليكم أن تراقبوه بشكلٍ دقيق، لأنه يراقبكم بدقّةٍ أكثر ويعرف منكم ما لا تعرفونه من أنفسكم.

* * *

الكفار بعضهم أولياء بعض

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، لأن وحدة الفكر الكافر في ما تمثله من وحدة الموقف والشعور، تمثّل الموالاة الواقعية في حركة العلاقات الإنسانية.. وهذا ما نلاحظه من الترابط الوثيق بين الكافرين، في ما يشعرون به من وحدة المشاعر والمصالح والتحديات المضادة للإيمان، وفي ما

يتحركون به من حركاتٍ وأوضاعٍ سلميةٍ أو حربية. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ فتركّزوا الولاية على أساس الفكر والخطٍ الواحد في الحياة، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، لأن إفساح المجال لعوامل أخرى، داخلية أو خارجيةٍ، مما يقوم على وحدة النسب أو اللون، أو العرق أو الأرض... يفسد الواقع ويحوّل المجتمع إلى ما يشبه الفوضى التي تتنوّع وتتعدّد تبعاً لتنوُّع هذه العوامل، مما يفقد الحياة عنصر الوحدة الحقيقي الذي يمثل البرنامج الفكري والعملي للمجتمع، بالإضافة إلى علاقة الروح والفكر والشعور، كأساسٍ لوحدة الموقف.

* * *

المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حقاً

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، لأنهم هم الذين جسّدوا الإيمان وحوّلوه إلى حركة حياةٍ، وفعل عطاء، وخطّ تضحيةٍ وشهادةٍ... ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ جزاءً لما هو الإيمان كموقف، ولما هو الجهاد على أكثر من صعيد... ويأتي الجيل الجديد الذي لم يعاصر انطلاقة الدعوة في معاناتها الأولى، في ما تحمّله المسلمون الأوّلون من المهاجرين من تعذيبٍ وتشريد وبذلٍ وعطاء... ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ لأنهم يؤمنون بما تؤمنون به، ويهاجرون كما تهاجرون، ويجاهدون كما تجاهدون... وهكذا تنطلق الولاية في خط الإيمان والجهاد والهجرة والإيواء والنصرة، لتكوّن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلاميّ القويّ الموحّد.

* * *

أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ في ما يتوارثون به، فالأقرب أولى من الأبعد في الإرث، وهذه الآية تقرّر إرث الأقرباء الذين لم تذكرهم آيات الإرث في سورة النساء، كالأخوال والأعمام وأبنائهم... كما استفاد منها مذهب أهل البيت عليهم السلام في إعطاء البنت المنفردة، أو الأخت المنفردة، أو الأختين والأخوات... التركة كلها من ناحية الفرض، ومن ناحية القرابة؛ فلا يجوز اشتراك الأخ مع البنت أو الأعمام أو الأخوال مع الأخوات، وهكذا مما تفصّله كتب الفقه... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

●□●□●

الفهرس

الموضوع الصفحة

تفسير سورة الأعراف [١ ـ ٢٠٦]

في أجواء السورة ٧
الآيات: [١ ـ ٧] ١١
معاني المفردات ١١
انفتاح الداعية على مشاكل الساحة ١٢
اتباع ما أنزله الله على الرسول ١٥
الظلم والسقوط الحضاري ١٧
هل يأتي العذاب بعد الإهلاك؟ ١٩
من وحي هذه الآيات ٢٠
كيف نفهم سؤال الله الرسل والناس؟ ٢٠
من هم الذين يشعرون بالحرج تجاه القرآن؟ ٢٣
الآيتان: [٨ ـ ٩] ٢٤
معاني المفردات ٢٤
والوزن يومئذ الحق ٢٤
آراء المفسرين في قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ ٢٧
الآية: [١٠] ٣١
معاني المفردات ٣١

على الإنسان ربط حياته دوماً بالله ٣١
شكر الله يجب أن يلازم الإنسان ٣٢
هل هناك صراعٌ بين الإنسان والطبيعة؟ ٣٣
الآيات: [١١ ـ ١٨] ٣٤
معاني المفردات ٣٤
عنصرية إبليس وراء سقوطه ٣٥
إبليس يثأر لنفسه من الإنسان ٣٨
حزب إبليس في جهنّم ٣٩
إبليس والقياس ٣٩
إبليس والتكبّر ٤٣
لماذا أمهل الله إبليس؟ ٤٥
لا سبيل للشيطان إلى إرادة الإنسان ٤٦
لينتبه المتكبّرون في الأرض ٤٧
إبليس في إحاطته بالإنسان ٤٨
الآيات: [١٩ ـ ٢٥] ٥١
معاني المفردات ٥١
آدم وحوّاء يخضعان لخداع إبليس ٥٣
التوهّم علّة الانحراف ٥٤
إبليس يستغلّ براءة آدم وحوّاء ٥٦
هبوط آدم وحوّاء إلى مستقرّهما الأرضي ٥٨
لماذا أسكن الله آدم وحواء الجنة؟ ٥٩
قراءة «ملكين» بكسر اللاّم ٦١
آدم وحوّاء ـ معاً ـ في موقع المسؤولية السلبية والإيجابية ٦٢
إيحاءات كلمة «الشجرة» ٦٤
رمزية الشجرة لكل حرام ٦٥

إيحاءات ردود فعل آدم وحوّاء على ظهور سوآتهما ٦٦
تأثير المعصية في آدم وحوّاء ٦٧
الآيات: [٢٦ ـ ٣٠] ٦٩
معاني المفردات ٦٩
القرآن يحذّر بني آدم ويوجّههم ٧١
لباس التقوى خير ٧١
تحذيرٌ عام لبني آدم من إبليس ٧٣
لا يأمر الله إلاّ بالقسط ٧٥
كما بدأكم تعودون ٧٦
كلمة في التقوى ٧٨
التقوى حالة شاملة لكلّ الأوضاع الإنسانية ٧٩
التقوى عمقٌ فكري وروحي في الإنسان ٧٩
سمات المتّقين ٨١
القلق الإيجابي رفيق التقوى ٨٤
خير الزاد التقوى ٨٤
الحصاد الإلّهي للتقوى ٨٥
التقوى انفتاح عقلي وروحي وعملي على الله تعالى ٨٦
الآيات والتفسير الروائي.. عرض ومناقشة ٨٧
الآيات: [٣١ ـ ٣٣] ٨٩
معاني المفردات ٨٩
مناسبة النزول ٩١
مع العلاّمة الطباطبائي حول مناسبة النزول ٩٢
المنهج الإلّهي في توجيه حياة الإنسان ٩٣
الله جميلٌ يحبّ الجمال ٩٤
التوازن في الإسلام قانون الحياة ٩٦

القصد أمرٌ يحبّه الله ٩٧
الزهد في كلمتين ٩٨
القيمة للروح لا للشكل ٩٩
المؤمن أولى بنعم الله ١٠٠
الأشياء التي حرّمها الله ١٠١
المقصود بالظاهر والباطن من الفواحش ١٠٢
الآية: [٣٤] ١٠٥
معاني المفردات ١٠٥
لكل أمّة أجل ١٠٦
عمر الأمّة الحضاري ١٠٧
الآيتان: [٣٥ ـ ٣٦] ١٠٩
النداء الأخير للناس لاتّباع الرسل ١٠٩
وجوب اتّباع الرسل والتقيّد بتعاليمهم ١١٠
ملاحظتان حول الآيتين ١١١
الآيات: [٣٧ ـ ٤٣] ١١٣
معاني المفردات ١١٤
صورة المكذّبين بآيات الله ١١٨
مشهد المكذبين الأوّل ١١٩
المشهد الثاني ١٢٠
المعطيات العملية للقصة ١٢١
العقيدة المنحرفة لا تصنع الوحدة الروحية ١٢٢
تحليل الدعاة للمواقف العامّة للناس ١٢٢
أبواب السماء مغلقة في وجه المستكبرين ١٢٤
المؤمنون أصحاب الجنة ١٢٥
لا غلّ في الجنّة ١٢٥

الآيات: [٤٤ ـ ٥٣] ١٢٧
معاني المفردات ١٢٨
تحاور أصحاب الجنة وأصحاب النار ١٣٠
أهل الأعراف ١٣٢
أصحاب النار يتوسّلون أصحاب الجنة ١٣٤
الجزاء بالمثل ١٣٥
التأويل هو الحقيقة الواضحة ١٣٦
هل من شفعاء للذين نسوا الله في الدنيا؟ ١٣٧
الآيات: [٥٤ ـ ٥٨] ١٣٨
معاني المفردات ١٣٨
القرآن وتحريك الإيمان في قلب الحياة ١٤٣
العرش مظهر السلطة الإلهية الأعلى ١٤٤
الليل يلاحق النهار ١٤٤
كلّ ما في الكون طوع أمر الله تعالى ١٤٥
من أحبّ الله أحبَّ عباده ١٤٥
الإفساد عدوان على الحياة ١٤٦
التجارة مع الله روحية لا مادية ١٤٧
حركة الرحمة الإلّهية في الكون ١٤٨
دروس للعاملين في حقل التربية الإنسانية ١٤٩
الآيات: [٥٩ ـ ٦٤] ١٥١
معاني المفردات ١٥١
موقع الإيمان هو موقع البحث عن الحقيقة ١٥٢
ما معنى إرسال نوح إلى قومه؟ ١٥٤
قوم الرسول هم قاعدة الانطلاق ١٥٤
نوح (عليه السلام) ودعوة التوحيد الخالص ١٥٥

معنى التأكيد على العبادة دون الإيمان ١٥٦
لماذا كانت العبادة واجهة الرسالة؟ ١٥٧
نوح في مواجهة الملأ من قومه ١٥٨
مشكلة الرسل والدعاة مع عماة البصيرة ١٦٠
الآيات: [٦٥ ـ ٧٢] ١٦٢
معاني المفردات ١٦٣
هود ـ بعد نوح ـ نبيٌّ لقومه ١٦٣
العقل في مواجهة الانفعال الطائش ١٦٤
دور الرسول النصح لأمّته دوماً ١٦٥
منطق التوحيد في مواجهة منطق الشرك ١٦٦
نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ١٦٨
الآيات: [٧٣ ـ ٧٩] ١٦٩
معاني المفردات ١٧٠
حديثٌ عن قصة صالح مع قومه ثمود ١٧٠
الخط الواحد لرسالة الأنبياء ١٧١
المستضعفون يؤمنون بالنبي صالح (عليه السلام) ١٧٢
الآيات: [٨٠ ـ ٨٤] ١٧٥
معاني المفردات ١٧٥
لوط في مواجهة شذوذ قومه الجنسي ١٧٦
المجتمعات المنحرفة ترفض دعوة التطهّر ١٧٧
هلاك قوم لوط بانحرافهم ١٧٨
الآيات: [٨٥ ـ ٩٣] ١٧٩
معاني المفردات ١٨٠
شعيب وقومه ١٨١
الحقّ والإصلاح هما أساس كلّ خير ١٨٢

شعيب في موقع التذكير والتحذير لقومه ١٨٣
الأساليب السلبية لا تحلّ الخلافات الفكرية ١٨٤
منطق الاستعلاء في مواجهة منطق العقل والحوار ١٨٥
ثبات شعيب في مواجهة قومه ١٨٦
الله ينصر شعيب ومن معه ١٨٧
لا أسف على الكافرين ١٨٨
الآيتان: [٩٤ ـ ٩٥] ١٨٩
معاني المفردات ١٨٩
سنّة الله في أهل القرى ١٩٠
الآيات: [٩٦ ـ ١٠٠] ١٩٢
معاني المفردات ١٩٢
التقوى مفتاح بركات السماوات والأرض ١٩٣
لا مأمن للخاسرين من مكر الله ١٩٤
الآيتان: [١٠١ ـ ١٠٢] ١٩٦
معاني المفردات ١٩٦
لا عهد للكافرين ١٩٧
الآيات: [١٠٣ ـ ١١٢] ١٩٨
معاني المفردات ١٩٨
موسى وفرعون ١٩٩
جحود فرعون لآيات الله تعالى ٢٠٠
موسى (عليه السلام) يؤكد نبوّته ٢٠١
موسى (عليه السلام) يسعى لتحرير بني إسرائيل من قبضة
فرعون ٢٠١
موسى (عليه السلام) يقدّم بيّنة نبوّته لفرعون ٢٠٢
ملأ فرعون يتّهمون موسى (عليه السلام) بالسحر ٢٠٣

الآيات: [١١٣ ـ ١٢٦] ٢٠٥
معاني المفردات ٢٠٦
وجاء السحرة، فماذا كان أمرهم؟ ٢٠٧
عصا موسى (عليه السلام) تلقف إفك السحرة ٢٠٨
السحرة يستجيبون لدعوة موسى (عليه السلام) ٢٠٩
فرعون يصرّ على كفره ويتوعّد السحرة ٢١٠
السحرة التائبون يسألون الله الصبر ٢١١
الآيات: [١٢٧ ـ ١٢٩] ٢١٣
معاني المفردات ٢١٣
موسى في حواره مع قومه بعد تهديد فرعون ٢١٣
منطق الطغاة من الحاكمين ٢١٤
موسى (عليه السلام) يحث قومه على الصبر والثبات ٢١٥
العاقبة للمتقين ٢١٦
انهزامية قوم موسى (عليه السلام) ٢١٧
موسى يزرع الأمل في قلوب قومه ٢١٧
الآيات: [١٣٠ ـ ١٣٧] ٢١٩
معاني المفردات ٢٢٠
نهاية فرعون ٢٢١
الطوفان أول العقاب ٢٢٢
الطغاة يعاهدون موسى على الإيمان وينكثون ٢٢٣
المستضعفون يرثون مشارق الأرض ومغاربها ٢٢٤
الآيات: [١٣٨ ـ ١٤١] ٢٢٥
معاني المفردات ٢٢٥
موسى (عليه السلام) في نظر بني إسرائيل ٢٢٦
بنو إسرائيل يسألون موسى أن يجعل لهم أصناماً ٢٢٧

موسى (عليه السلام) وجهالة قومه ٢٢٨
موسى يذكّر قومه بنعم الله عليهم ٢٢٩
وقفة تأملية أمام هذه الآيات ٢٣٠
استيحاء الفكرة في الحاضر ٢٣١
الآيات: [١٤٢ ـ ١٤٥] ٢٣٣
معاني المفردات ٢٣٣
الله يواعد موسى (عليه السلام) وينزل عليه الألواح ٢٣٤
الله يواعد موسى (عليه السلام) أربعين ليلة ٢٣٥
هارون يخلف موسى في قومه ٢٣٦
موسى يسأل الله تعالى رؤيته ٢٣٧
الله يتجلّى للجبل فيتهاوى ٢٣٩
اصطفاء الله تعالى موسى ٢٤٠
الله ينصّ على موسى شريعة التوراة ٢٤١
الآيتان: [١٤٦ ـ ١٤٧] ٢٤٣
معاني المفردات ٢٤٣
واقع المستكبرين في الأرض ومصيرهم ٢٤٤
الآيات: [١٤٨ ـ ١٥٤] ٢٤٦
معاني المفردات ٢٤٧
موسى في مواجهة ضلال قومه ٢٤٧
قوم موسى يتخذون العجل إلّهاً ٢٤٨
موسى يرجع غضبان أسفاً ٢٤٩
تساؤلات حول فكرة العصمة ٢٥١
غضب الله على الضالّين وتوبته على التائبين ٢٥٢
موسى يأخذ ألواح شريعته مجدداً ٢٥٣
الآيات: [١٥٥ ـ ١٥٨] ٢٥٤

معاني المفردات ٢٥٥
موسى يختار سبعين رجلاً لميقات الله ٢٥٥
من هم السفهاء الذين عناهم موسى؟ ٢٥٧
موسى (عليه السلام) يسأل الله المغفرة ٢٥٧
المتّقون هم الذين يتّبعون النبي الأمّي ٢٥٨
الخطوط العامّة التي تميّز الشريعة الإسلامية ٢٦٠
الإسلام يختزن في داخله آفاق حركة الحياة ٢٦١
المؤمنون هم المفلحون ٢٦٢
محمد رسولٌ للعالمين ٢٦٢
دعوة للإيمان بالله ورسوله ٢٦٤
الآية: [١٥٩] ٢٦٥
صفة الجماعة التي تعيش الإيمان في حياتها ٢٦٥
الآيات: [١٦٠ ـ ١٦٣] ٢٦٧
معاني المفردات ٢٦٨
قوم موسى يتوزعون على اثنتي عشرة فرقة ٢٦٨
الله يكشف تمرّد بني إسرائيل ٢٦٩
الآيات: [١٦٤ ـ ١٦٧] ٢٧١
معاني المفردات ٢٧١
اختلاف المؤمنين من بني إسرائيل في الموقف من المتمرّدين . ٢٧٢
الإصرار على الإصلاح معذرة إلى الله ٢٧٣
الله يمسخ المصرّين على الكفر قردة ٢٧٤
عذاب بني إسرائيل إلى يوم القيامة ٢٧٥
الآيات: [١٦٨ ـ ١٧١] ٢٧٧
معاني المفردات ٢٧٧
بنو إسرائيل يتفرقون في الأرض جماعات ٢٧٨

الله يناقش الأوضاع المنحرفة لليهود ٢٧٩
الله يرفع الجبل فوق اليهود كالغمام ٢٨٠
الآيات: [١٧٢ ـ ١٧٤] ٢٨١
معاني المفردات ٢٨١
فطرة الإنسان تشهد لله تعالى بالربوبية ٢٨١
هل ثمة عالم آخر اسمه عالم الذرّ؟ ٢٨٤
الآيتان: [١٧٥ ـ ١٧٦] ٢٨٥
معاني المفردات ٢٨٥
مثل الذي أخلد إلى الأرض كمثل الكلب ٢٨٦
الآيات: [١٧٧ ـ ١٧٩] ٢٨٨
معاني المفردات ٢٨٨
الكافرون كالأنعام بل أضل سبيلاً ٢٨٨
الآيات: [١٨٠ ـ ١٨٦] ٢٩١
معاني المفردات ٢٩١
لله الأسماء الحسنى ٢٩٢
هل أسماء الله توقيفية؟ ٢٩٢
مسألة الاسم الأعظم ٢٩٤
كل إنسان يجزى بعمله ٢٩٥
من الناس من يهدي بالحقّ والعدل ٢٩٦
الله يكيد بالكافرين ٢٩٦
الله ينفي الجنون عن النبي ٢٩٧
ملكوت الله تعالى مظهر لعظمته ٢٩٨
من يضلل الله فلا هادي له ٢٩٨
الآيتان: [١٨٧ ـ ١٨٨] ٢٩٩
معاني المفردات ٢٩٩

مناسبة النزول ٣٠٠
لا يعلم موعد القيامة إلاّ الله تعالى ٣٠٠
علم الساعة عند الله تعالى ٣٠١
الصورة التي يرسمها القرآن لشخصية النبي ٣٠٢
الآيات: [١٨٩ ـ ١٩٨] ٣٠٤
معاني المفردات ٣٠٥
الإنسان في تعاطيه مع الله ٣٠٥
الآيات: [١٩٩ ـ ٢٠٦] ٣٠٩
معاني المفردات ٣٠٩
القرآن يوجّه المسلمين من خلال الرسول ٣١٠
دراسة الواقع الفكري والنفسي لمجال الدعوة ٣١١
الاستعاذة بالله تعالى في مواجهة الشيطان ٣١٢
التقوى تبطل إغواءات الشيطان ٣١٣
النبي لا يتبع إلاّ ما يوحى إليه ٣١٤
كتاب الله بصائر فكرية وروحية للإنسان ٣١٤
الإنصات والاستماع لقراءة القرآن ٣١٤
ذكر الله تضرعاً وخيفة ٣١٥
حال الملائكة مع الله تعالى ٣١٦

تفسير سورة الأنفال [١ ـ ٧٥]

سبب التسمية ٣١٩
مناسبة النزول ٣١٩
موضوع السورة ٣٢١
الآيات: [١ ـ ٤] ٣٢٤
معاني المفردات ٣٢٤

المسلمون يسألون والجواب يتحرك في تنمية الشخصية ٣٢٥
الله يدعو المسلمين لإصلاح ذات بينهم ٣٢٦
من هم المؤمنون؟ ٣٢٧
الآيات: [٥ ـ ٨] ٣٣١
معاني المفردات ٣٣١
كيف واجه المسلمون الدعوة إلى معركة بدر؟ ٣٣٢
الخروج إلى قافلة قريش بأمر الله تعالى ٣٣٢
بعض المؤمنين يكرهون الخروج ٣٣٣
الله يعد المسلمين إحدى الطائفتين ٣٣٥
درس قرآني في كيفية الاستعداد للقتال ٣٣٦
إرادة الله تعالى إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين ٣٣٦
الآيات: [٩ ـ ١٤] ٣٣٨
معاني المفردات ٣٣٨
مناسبة النزول ٣٣٩
ميزان القوّة الظاهري يميل لمصلحة قريش ٣٤٠
إمداد المسلمين بألف من الملائكة مردفين ٣٤١
النصر من عند الله ٣٤٢
دور الملائكة في تثبيت المؤمنين ٣٤٣
الآيات: [١٥ ـ ١٩] ٣٤٥
معاني المفردات ٣٤٥
مناسبة النزول ٣٤٦
الفرار من الزحف.. من الكبائر ٣٤٧
لا ظفر إلاّ بالله وحده ٣٤٨
الله يحض الكافرين على كفّ شرورهم ويحذرهم نفسه ٣٤٩
الآيات: [٢٠ ـ ٢٣] ٣٥١

معاني المفردات ٣٥١
الله يحضّ المؤمنين على طاعته وطاعة رسوله ٣٥٢
الله يترك الكافرين لأنفسهم لعلمه أن لا خير فيهم ٣٥٣
الآيات: [٢٤ ـ ٢٦] ٣٥٤
معاني المفردات ٣٥٤
الإيمان موقفٌ للحياة ٣٥٥
أهداف الإسلام للإنسان هي أهداف الحياة عينها ٣٥٦
الله يحول بين المرء وقلبه ٣٥٧
تحذيرٌ للمسلمين من التساهل في أمر المنازعات الداخلية ٣٥٨
دعوة المسلمين لتذكّر نعم الله عليهم ٣٥٩
الآيتان: [٢٧ ـ ٢٨] ٣٦١
معاني المفردات ٣٦١
مناسبة النزول ٣٦٢
نهيٌ إلّهي عن خيانة أمانته ورسوله والمؤمنين ٣٦٣
تحذير مبطّن من فتنة الأموال والأبناء ٣٦٤
الآية: [٢٩] ٣٦٦
معاني المفردات ٣٦٦
التفريق بين الحق والباطل من ثمار التقوى ٣٦٦
الآية: [٣٠] ٣٦٨
معاني المفردات ٣٦٨
مناسبة النزول ٣٦٩
قريش تتآمر على النبي قبل الهجرة ٣٦٩
الآيات: [٣١ ـ ٣٨] ٣٧١
معاني المفردات ٣٧٢
مناسبة النزول ٣٧٢

من ملامح المجتمع الكافر ٣٧٥
استهانة الكفّار بآيات الله تعالى ٣٧٥
وجود النبي (ص) مانعٌ لنزول العذاب ٣٧٦
تأخير عذاب الكفّار ليوم القيامة ٣٧٧
أولياء الله هم المتّقون ٣٧٧
ضلال سعي الكفّار لإبطال دعوة الله ٣٧٨
الخبثاء مركومون في جهنم ٣٧٩
الآيتان: [٣٩ ـ ٤٠] ٣٨٠
معاني المفردات ٣٨٠
القتال إبعاداً للفتنة عن الدين ٣٨١
الآية: [٤١] ٣٨٢
معاني المفردات ٣٨٢
آية الخمس ٣٨٣
ما معنى أن يكون لله سهم؟ ٣٨٤
ذوو القربى في الآية ٣٨٤
لماذا تأخر تطبيق هذا التشريع عن زمن الرسول؟ ٣٨٥
الآيات: [٤٢ ـ ٤٤] ٣٨٦
معاني المفردات ٣٨٦
الرعاية الإلّهية لمعركة بدر ٣٨٧
رؤية النبي للمنام.. واستبشار المؤمنين بالنصر ٣٨٨
معركة بدر وإيحاءات الحرب النفسية ٣٨٩
الآيات: [٤٥ ـ ٤٩] ٣٩١
معاني المفردات ٣٩١
القرآن يدعو للثبات والصبر والوحدة ٣٩٣
أمر بالثبات أمام العدوّ ٣٩٣

ذكر الله منبعٌ من منابع القوة ٣٩٤
التنازع سبيل الفشل والزوال ٣٩٤
الصبر أكبر عونٍ على الشدائد ٣٩٥
النهي عن اتباع البطرين المرائين ٣٩٥
الفرق بين من يحارب لله ومن يحارب لغيره ٣٩٦
الشيطان يزيّن للكافرين أعمالهم ثم يتبرّأ منهم ٣٩٦
قول المنافقين في نصر المسلمين وردّ الله عليهم ٣٩٩
الآيات: [٥٠ ـ ٥٤] ٤٠٠
معاني المفردات ٤٠٠
حالة قبض الملائكة لأرواح الكافرين ٤٠١
تغيير النعم خاضع للسلوك العملي للناس ٤٠١
الآيات: [٥٥ ـ ٥٩] ٤٠٣
معاني المفردات ٤٠٣
الثابتون على الكفر شرُّ الدوابّ ٤٠٤
الوفاء بالعهد هو الأصل ٤٠٥
المؤمن عينه دائماً على المستقبل ٤٠٦
الآيات: [٦٠ ـ ٦٣] ٤٠٧
معاني المفردات ٤٠٧
وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوّة ٤٠٨
ضرورة توفير مقوّمات القوّة على كلِّ صعيد ٤١٠
السلام للمسالمين ٤١١
الله يحمي النبي من كيد الكافرين ٤١٢
الله هو المؤلّف بين القلوب ٤١٣
الآيات: [٦٤ ـ ٦٦] ٤١٥
معاني المفردات ٤١٥

مناسبة النزول ٤١٦
الله هو كافي النبي من كل سوء ٤١٦
تحريض المؤمنين على القتال والصبر ٤١٧
التدرّج في رفع المستوى الروحي لدى المؤمنين ٤١٨
الآيات: [٦٧ ـ ٧١] ٤٢٠
معاني المفردات ٤٢٠
مناسبة النزول ٤٢١
القرآن يثير مسألة الأسرى في بدر ٤٢٢
سؤالان تثيرهما الآية ٤٢٤
الله يبيح للمسلمين ما أخذوا من غنائم ٤٢٦
النظرة الرسالية للأسرى ٤٢٦
الله يطمئن نبيه لجهة خوفه من خيانة المشركين ٤٢٧
الآيات: [٧٢ ـ ٧٥] ٤٢٨
معاني المفردات ٤٢٨
مناسبة النزول ٤٢٩
ضرورة موالاة المؤمنين والامتناع عن موالاة الكافرين ٤٢٩
الله يقرر الولاية بين المهاجرين والأنصار من المؤمنين ٤٣٠
وجوب نصرة المؤمنين غير المهاجرين في حال الاستنصار ٤٣١
الكفّار بعضهم أولياء بعض ٤٣١
المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حقاً ٤٣٢
أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ٤٣٣

والحمد لله رب العالمين